غير مخصص للبيع

الفيصل

مجلة ثقافية شهرية ـ العدد (٢١٢) ـ صفر ١٤١٥ هـ ـ (يوليو/ أغسطس) ١٩٩٤م
AL FAISAL MAGAZINE ISSUE (212) JUL/ AUG 1994

شعراء الصهيونية
سياسيون أيضا

المالديف
الفقر والطبيعة الساحرة

Mngool.com

الرصاص
يغتال الحياة

المحدث الفاصل بين الراوي والواعي

للحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي
(ابن خلاد المتوفى نحو ٣٦٠هـ)

كتاب في علوم الحديث يحتوي على سبعة أجزاء، في بداية كل جزء ونهايته بعض السماعات والقراءات التي تحتوي على أسماء بعض الأعلام، ومكان السماع، وتاريخه.

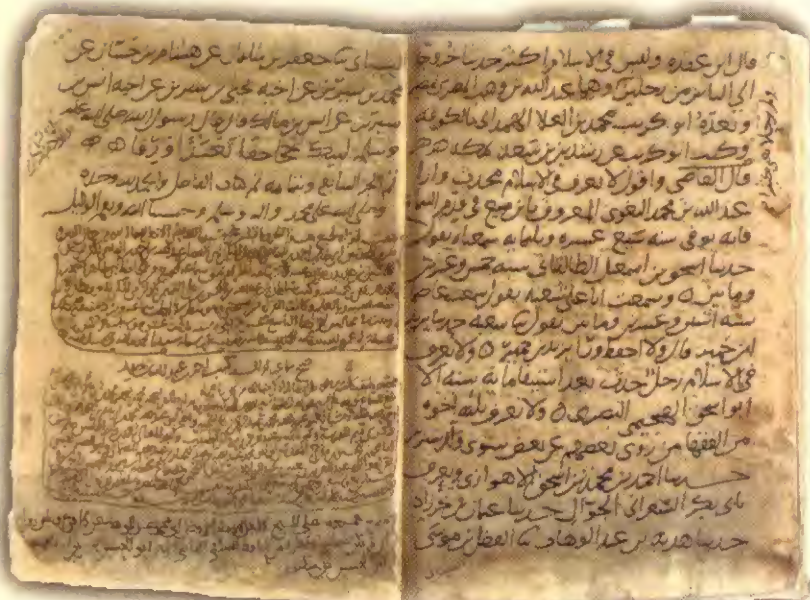
تكمن أهمية المخطوطة في أنها نسخة تامة، موثقة بالبيانات التوثيقية، المتمثلة في السماعات والقراءات المؤرخة في القرنين السادس والسابع الهجريين، والتي تحتوي على أسماء بعض العلماء.

المخطوطة من مقتنيات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، برقم ٧٩٣٤/خ.



إعداد: عبد الرحمن محمد السدحان





في العدد القادم:

المسلمون في الصين : صفحات مشرقة.

شعرنا بين أصالة العرب ورطانة الغرب.

عبدالله بن خميس : الفصحى أمانة في أعناقنا.

مفهوم الجنون في الفكر العربي.

الفيصل

رئيس التحرير

د. زيد بن عبد المحسن الحسين



الرصاص يخترق أجسادنا

«الرصاص كان سببًا في انهيار الإمبراطورية الرومانية». هذه النتيجة العلمية توصل إليها عالم كَندي. وقد فاق افتتان الحضارة الحديثة بهذا المعدن كل الحدود، حتى أصبح يمثل الخطر البيئي الأول، والعجيب أن خطر هذا المعدن امتد إلى جليد القطب الشمالي الذي لاأثر فيه للمصانع، ولا تسير في طرقاته سيارات تنفث في الهواء عوادمها، فمن أين جاء الرصاص؟



العالم يهرع لإنقاذ المالديف

في جزر المالديف تستطيع أن تغوص في أعماق المحيط دون أن تبتل، ودون أن تغوص أيضًا! ويمكنك أن تقضي أوقاتًا ممتعة وسط عجائب الطبيعة من الأسماك والنباتات والأحياء المائية. هذه الجزر الجميلة التي يبلغ عددها (١٢٠٠) جزيرة مهددة بالغرق، لماذا؟.



العقاب الجسدي للطفل تهذيب أو تعذيب؟

للعقوبة الجسدية مضار كثيرة تفوق فائدة المثوبة بأكثر من الضعف، إذ يُولِّد الجو المشحون بالعقوبة عدوانية ظاهرة لدى الأطفال. ولكن، هل يعني هذا أن تختفي العقوبة كلية من مدارسنا؟

إطلالة

.. بل الإنسان



عكست قمة الأرض التي عُقدت في مدينة ريودي جانيرو البرازيلية في يونيو ١٩٩٢م، والتي عنيت ببحث القضايا البيئية والتنموية، مدى القلق الذي ينتاب العالم إزاء مشكلة التدهور البيئي، وعمق الإحساس بهذه المشكلة التي تهدد جهود التنمية في البلدان النامية، وتنذر في الوقت نفسه بفناء الإنسان، وتقويض المدنية الحديثة التي بلغت شأواً عظيماً في هذا العصر، وأتاحت لسكان الكرة الأرضية، وبخاصة في شمالها، كل سبل الراحة والدعة والرفاهية التي كانت تمثل حلماً بعيد المنال في أزمان قريبة مضت.

وقد تجسد هذا الشعور العالمي بمشكلة البيئة، وتأثيرها في التنمية، في مشاركة (١٦٠) دولة من دول العالم في هذه القمة، وحضور أكثر من (١٣٠) من قادته، مما يمثل تجمعاً دولياً فريداً، قلّما وُجد له مثيل. وتوضح الموازنة بين هذه القمة والمؤتمر الدولي الأول للبيئة، الذي عقد في استكهولم عام ١٩٧٢م، تزايد الاهتمام العالمي بقضايا البيئة، والاتجاه نحو ربطها بقضايا التنمية، إذ لم يحضر المؤتمر الدولي الأول للبيئة الذي نظمته الأمم المتحدة سوى (١١٤) دولة، كما لم يكن هناك تمثيل قوي على مستوى القمة.

ولقد أكدت تجارب دول العالم الفقيرة والصناعية - على حد سواء - خلال العشرين عاماً التي تفصل بين التجمعين الدوليين، مشكلة التدهور البيئي، وانعكاسها السلبي على التنمية في البلدان النامية، وعلى التقدم التقني الذي ينتظم الأنشطة الحياتية في العالم الأول، وعمق تهديد هذه المشكلة الشائعة - في حالة استمرار تفاقمها، وعدم الوصول إلى حلول ناجعة لها - لوجود الإنسان والكائنات الحية الأخرى، إذ يرى كثيرون من خبراء البيئة أن مشكلة الإخلال بتوازن البيئة وتهديم نظامها تتساوى - إن لم تكن تفوق - مع مشكلة الأسلحة الفتاكة، كالأسلحة الجرثومية والكيمائية. بل، هناك من يراها تتعادل مع قوة التفجير النووي.

ولم يكن أمام سكان الأرض خيار آخر لمحاولة السيطرة على هذا الخطر الداهم المهدد لبقائهم والمنذر بفناء حضارتهم، غير التعاون والتنسيق فيما بينهم، لطرح مشكلة البيئة على بساط النقاش والتداول، من أجل إيجاد السبل والوسائل الكفيلة بحلها، أو المانعة لتفاقمها في أسوأ الفروض.

إن المؤتمرات الدولية والإقليمية والوطنية التي تم تنظيمها في الأعوام الماضية أكدت أن الاضطراب في علاقة الإنسان - أينما كان - ببيئته في الوقت الحاضر ليس له ما يماثله في التاريخ، وأن الاختلال البيئي يتنامى بسرعة فائقة، وأن هذه الأزمة لاتعني دولاً دون غيرها، وأن آثارها لاتقتصر على الجيل الحالي، وإنما تمتد إلى الأجيال اللاحقة. وقد كان من أهم نتائج تلك المؤتمرات التوصل إلى الصلة الوثيقة التي تربط بين الإخفاق التنموي والتدهور البيئي، والاقتناع بأن التنمية والبيئة متلازمتان، بحيث لايمكن تصور أن تكون التنمية على حساب البيئة، أو أن تكون البيئة عائقاً للتنمية. فالعبث بالبيئة وإفسادها يعني تدهور الحياة الطبيعية والبشرية ومن ثم انهيار التنمية لأنها تكون في هذه الحالة قد فقدت المرتكز الرئيس الذي تقوم عليه، بل، فقدت مبررها، أي إن التنمية لابد أن تكون وفق ضوابط أخلاقية وإنسانية وثقافية، أهمها المحافظة على البيئة نظيفة وطبيعية. ومفاد القول أن المحافظة على البيئة لاتتناقض مع التنمية، وإنما تسيران جنباً إلى جنب، فالتنمية ترمي إلى تلبية حاجات الإنسان، والارتفاع بمستواه المعيشي عن طريق الانتفاع الأمثل بمكونات البيئة، أما المحافظة على البيئة فنشاط يهدف إلى استمرار البيئة في الإنتاج دون توقف أو تناقص في المعدل، ودون أن يمثل في الوقت نفسه أي خطر على الحياة ومقوماتها الطبيعية.

لقد أظهرت التداولات والمناقشات حول البيئة والتنمية أن غياب الوعي بالعلاقة التي تربط بينهما كان - ولايزال - السبب الرئيس في تدهور البيئة وانهيار التنمية، واعتلال صحة الإنسان، ذلك أن الإنسان أساء استعمال قدرته في تغيير بيئته، في سبيل تحقيق أقصى استغلال ممكن لها، دون النظر إلى أن هناك كائنات حية أخرى تشاركه هذه البيئة، وتنتفع معه بمكوناتها، مما أدى إلى اختلال التوازن الطبيعي، وتهديد حياة الكائنات الحية، ومن بينها الإنسان نفسه. فجشع الإنسان وطمعه تحت مبرر التقدم والرقي جعل الروح المصلحية تتملكه في علاقته مع الطبيعة، فلم ينظر إليها إلا على أنها مصدر للخامات التي يجب أن يحصل عليها في أسرع وقت وبأقل ثمن، بل إنه لم يتورع عن إلحاق الضرر بأخيه الإنسان في سبيل مصلحته. ولعل النظريات الاقتصادية التي صاحبت الثورة الصناعية في الغرب خير دليل على أنانية الإنسان، إذ لم تهتم هذه النظريات بمصير الأمم والشعوب الأخرى، أو البيئة بقدر اهتمامها بحساب الخسارة والربح فغابت عنها الضوابط الأخلاقية والإنسانية التي يجب أن تحكم خطى الإنسان في إضطلاعه بمسؤولية إعمار الأرض. ولا أدل على ذلك من نظرية زرع الإتكالية (DE-PENDENCY THEORY) التي نشأت في الغرب بهدف جعل الأمم الأخرى في حاجة دائمة إليه ليقوم باستغلالها إلى أقصى حد ممكن.

فالصناعة في الدول الكبرى قامت - وتقوم - على استنزاف الموارد الطبيعية للدول الفقيرة، دون اهتمام بالعواقب، التي تمثلت في إفقار بيئات تلك الدول، والإخلال بالتوزان الطبيعي لها، الذي يمتد أثره ليشمل العالم كله، حيث نجد، مثلاً، أن الغابات التي تعد من أكبر ثروات الدول الفقيرة تتعرض للإبادة المنتظمة، ذلك أن هذه الدول - من أجل زيادة دخلها الوطني وتسديد فوائد ديونها الخارجية - تقوم بتأجير مساحات شاسعة من غاباتها لشركات صناعة الورق في الدول الصناعية - لتدخل بذلك الحلقة المفرغة التي لا مخرج منها -، التي تقوم - بدورها - باستغلال هذه الغابات استغلالاً تجارياً جائراً، دون مراعاة لأهميتها كمأوى لملايين الكائنات الحية، وإسهامها في خفض درجة حرارة البيئة التي تتميز بارتفاعها الكبير في هذه البلاد. ويتم سنوياً إبادة نحو ١٧ مليون هكتار من الغابات مما يهدد بفقدان الأرض

يغتال الحياة

لرئتها الخضراء، وانقراض كثير من الكائنات الحية التي كانت تعيش فيها، ومن ثم حرمان الدول الفقيرة من ثروات حيوانية هائلة، إضافة إلى الإضرار بمناخها. وتقوم الدول الصناعية كذلك بتصدير مخلفاتها السامة ونفاياتها النووية إلى البلدان الفقيرة، مستغلة حاجتها إلى المواد الغذائية والأدوية وغيرها.

وتقع المسؤولية الكبرى في تلويث مياه البحار والأنهار والبحيرات والمحيطات على عاتق الدول الصناعية، بسبب ماتطرحه مصانعها من نفايات ومخلفات، تمتد تأثيراتها الضارة إلى شواطئ البلدان الفقيرة. ففي البحر المتوسط مثلاً، تملك الدول الأوربية الساحلية نحو ٩٠٪ من المصانع المقامة على ضفافه، وتصب ثلاثة من أنهارها الرئيسة في هذا البحر، بينما يمثل نهر النيل فقط الجانب غير الغربي. ولايغيب عن الأذهان أن هناك مصانع نووية تنتشر على طول هذا الساحل، إضافة إلى أن ناقلات النفط المملوكة للدول الغربية تمثل مصدراً مهماً لتلويث هذا البحر، الذي يقال إنه ملّوث بحدود ٢٥٪ من النفط العائم في العالم، في حين أنه يغطي أقل من ٥٪ من المساحة البحرية العالمية، وهذا المثال نفسه - مع اختلاف التفاصيل - ينطبق على السواحل الأخرى، مما يعني أن الدول التي يصفونها بالنامية تعد متضررة من مشكلة اختلال التوازن البيئي أكثر من كونها مشاركة في إيجادها، والتسبب فيها. ويكفي أن نعلم أن إنتاج مدينة نيويورك من الأوساخ والقمامة يوازي نفايات نحو ٢٥ دولة من الدول الفقيرة.

إن التغيرات المناخية المتوقعة نتيجة اختلال التوازن الطبيعي للبيئة من أكثر القضايا التي تحوز اهتمام العالم، فهذه التغيرات حسب آراء خبراء البيئة ستكون ذات آثار بعيدة في حياة الإنسان، إذ من المتوقع أن ترتفع درجة حرارة سطح الأرض، مما سيؤدي إلى ذوبان الجليد، وارتفاع مستويات البحار، وغرق آلاف الجزر، والموانئ والمدن والمنشآت الساحلية، وتلوث الأنهار نتيجة اندفاع مياه البحر إليها، كما ستكون هناك فيضانات وسيول وأمطار غزيرة في بعض المناطق، بينما سيسود الجفاف مناطق أخرى، وسيتسبب هذا في تشريد الملايين. وهذه الكوارث البيئية ستشمل كل الشعوب والدول، إلا أن الدول الفقيرة ستكون الأكثر معاناة، نظراً لافتقارها إلى القدرات المالية والفنية التي تحتاجها لمواجهة الموقف. أما الدول الصناعية الكبرى فإنها قادرة - بما لديها من إمكانات مادية وتقنية - على تطوير قدراتها، وخفض خسائرها إلى أقصى درجة ممكنة.

وترى الدول الفقيرة أن التفكير في التغيرات المناخية المستقبلية نوع من الترف الذي لايتناسب وماتعيشه من ظروف حياتية صعبة، فهَمُّها الآني هو تأمين المأكل والمشرب لشعوبها، وهذا يؤدي بها إلى الاستغلال الأقصى للأرض والموارد الطبيعية الأخرى، متجاهلة مغبة هذا الاستغلال الجائر، فالفقر لايدع مجالاً للتفكير المنطقي في المستقبل، ولذلك فإن هذه الدول تستهجن الإرشادات البيئية التي تأتيها من الشمال المرفه، وترى أن الأجدر أن تقوم دول الشمال بإمدادها بما تحتاج إليه من تقنية حديثة تساعدها على إبقاء البيئة العالمية بيئة صحية خالية من أي تلوث، وفي الوقت نفسه تحقق لها التنمية التي تصبو إليها.

إن القول بأن الدول الصناعية هي المصدر الرئيس لتلوث البيئة واختلال توازنها لايعني أن الدول الفقيرة لانصيب لها في إحداث هذه المشكلة العالمية، فهذه الدول تعاني من كثير من مظاهر الأزمة البيئية، التي تتمثل بشكل واضح في مشكلة التصحر، والزحف العمراني على الأراضي الزراعية الذي كوّن مايُعرف بالغابات الإسمنتية في المدن الفقيرة، والاستخدام غير الرشيد للمواد الكيميائية، وزيادة ملوحة التربة، وتلوث الهواء، وتلوث مياه الأنهار والبحار، وانقراض كثير من النباتات والحيوانات.

وتعد الهجرة من الريف إلى المدينة المشكلة البيئية الرئيسة، لما يترتب عليها من آثار جسيمة، أهمها الضغط المتزايد على المؤسسات الخدمية، كشبكات المياه والكهرباء والصرف الصحي والمدارس والمستشفيات، وإهمال الأرض الزراعية، وعدم وجود المأوى المناسب الذي تتوافر فيه الشروط الصحية المطلوبة، وانتشار البطالة، مما يؤدي إلى تفشي العنف والجريمة والسرقة وغيرها من الظواهر السلبية التي من شأنها تقويض البنى الاجتماعية، ومن ثم تلويث البيئة التربوية، إلى جانب التلوث المريع الذي يصيب البيئة الطبيعية. لذلك فإن كثيرًا من مدن العالم الثالث - ومن بينها مدن عربية كثيرة - بحاجة إلى إعادة التخطيط، لضمان بيئة صحية وتربوية صالحة، تتيح سبل العيش الكريم.

وفي مقام الحديث عن ضرورة التخطيط العلمي للمدن، أسعفتني الذاكرة بمقولة لابن خلدون، توضح ما للفكر العربي الإسلامي من حضور قوي حيال القضايا الإنسانية، والسبق الذي يسجله في هذا المضمار، يقول ابن خلدون:

«لتكون المدينة في مكان جيد يتناسب مع الأحوال الجوية أو بحري الهواء حتى تُتَجنَّب الأمراض، لأنه إذا كان الهواء فاسدًا، وكانت المدينة قرب الماء القذر أو المستنقعات، كل هذا يؤدي إلى اعتلال الصحة، وجلب الضرر إلى قاطني المدينة، وينشر المرض بين السكان».

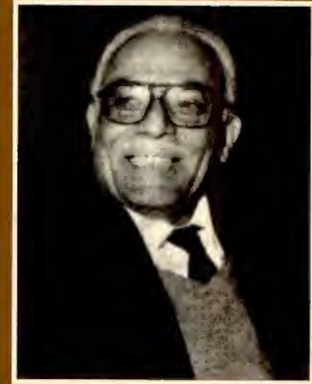
يأتي حديثي عن المشكلة البيئية تعليقًا على مقالة علمية بعنوان «الرصاص يغتال الحياة» تنشرها الفيصل في هذا العدد، توضح مالهذا المعدن، الذي افتتن به الإنسان منذ القدم، من أضرار جسيمة لايدركها كثيرون منا، كما يضم العدد استطلاعًا مصورًا عن (المالديف) التي تضم أكثر من (١٢٠٠) جزيرة مهددة كلها بالغرق بسبب الثقب الحادث في طبقة الأوزون.

إن أكثر النتائج أهمية في الدراسات المتعلقة بقضية البيئة، تلك التي توضح أن القضية قضية فكرية، تتمحور حول أهمية إيجاد صياغة جديدة للعلاقة بين الإنسان والطبيعة، وأن الوعي البيئي لابد أن يجد له مكانًا رحبًا في أذهان الأفراد والمجتمعات، وأن يُتَرْجَمَ هذا الوعي إلى تعاون بَنَّاء يرمي إلى صالح البشرية، وحضارتها، مع الأخذ في الحسبان ضرورة تهيئة بيئة أفضل للأجيال القادمة.

ويبقى تساؤل يطرح نفسه: أما كان الإنسان في غنى عن كل هذا الجهد والعناء والمال الذي ينفقه في سبيل السيطرة على الكوارث البيئية التي أوجدها بعبثه وإفساده، إذا ما أحسن منذ البداية التعامل مع مكونات الطبيعة وفق ضوابط سلوكية وأخلاقية راقية تليق بمسؤوليته عن إعمار الأرض؟.

د. زين بن عبدالمحسن الحسين

العبرية الصهيونية.. واليهودية الشعبية



د. حسن ظاظا

ما أسمّيه هنا «اليهودية الشعبية» لغة نشأت وترعرعت في حارات اليهود الغربيين (الاشكناز) في ألمانيا وبولندا وإمبراطورية القياصرة الروس، ثم هاجرت مع مَن هاجر من أولئك اليهود إلى أوربا الغربية، وأمريكا الشمالية والجنوبية وأستراليا والجاليات اليهودية في جنوب أفريقيا والشرق الأقصى، وهي التي تُسمى عندهم، وعند جميع الباحثين في اللغات باسم (ييديش) لأن الإنسان اليهودي يطْلق عليه في هذه اللغة (ييدْ)، وهي تسمية تتضمن فحوى من المديح والتقدير، إذا وصَفَوا بها واحدا منهم، كان المفهوم الضمني أنه يهودي أصيل، ملتزم بكل ما يقضي به دينه من تعاطف وتعاون مع أبناء هذا الدين، إلى جانب الحرص الدقيق على التقوى، والقيام بالفرائض والعبادات. وإذا كان عدد اليهود في العالم - الآن - يُقدَّر بخمسة عشر مليونا، ففيهم أحد عشر مليونا من المتكلمين بالييديش، ونصف الملايين الأربعة الباقية يهود (مُندَمجُون) يتكلمون بلغات الأمم التي يعيشون بين ظَهرانيها، ويبقى لهذه العبرية الصهيونية المنتشرة في إسرائيل نحو مليونين من الناطقين بها، بعد قرن ونصف من تعليمها والدعاية إلى استعمالها، وبذل الجهود الجبارة في سبيل تمكينها من «اغتيال» الييديش والقضاء عليها، فتلك معركة لغوية أخرى لاتزال العبرية الصهيونية تخوضها بقدر ضئيل جدا من النجاح. ولها العذر في ذلك لأسباب، منها قدَم الييديش التي ترجع أصولها الأولى إلى ما قَبل عام ١٠٠٠ الميلادي، في التجمعات اليهودية في حوض نهر الراين، على ضفافه الألمانية والفرنسية. وهكذا اكتسبت هذه اللغة اليهودية الشعبية عراقة معترفا بها، ثم تطورت بشكل طبيعي على ألسنة المتحدثين بها، بعد أن ماتت اللغة العبرية مرارا عَبْرَ التاريخ، وأضفى عليها جلال الموت نوعًا من الرهبة، فلا يَتلُوها إلاّ الكهنة اليهود للتعبد فقط، لأن ألفاظها وتراكيبها كانت محصورة في ألفاظ التوراة وما يُكمِّلها من نصوص العهد القديم، ولم تكن تفي بحاجة اليهودي في التعبير عن متطلبات حياته اليومية، السريعة التقلُّب والتعقيد، في العصور المتعاقبة، وفي البلدان الكثيرة بحضاراتها المتقدمة النامية، ولأن اليهودي كان يحترم (اللغة المقدسة) - لغة موسى والأنبياء والحكماء - ولا يجرؤ على أن يستعملها في الهزل والضحك، أو الشتم والسباب، أو سرد القصص المسلية والخرافات الملهية. ويكفي دليلا على ذلك أن بطل اللغة العبرية الصهيونية في أوائل هذا القرن العشرين - إليعازر بن يهودا (١٨٥٨- ١٩٢٢م) - بعد أن ترك وطنه (ليتوانيا) إلى باريس ثم إلى شمال أفريقيا، هاجر إلى فلسطين، وسكن مدينة القدس، وهناك أخذ بالتوجيه الصهيوني في إحياء اللغة العبرية، فأنشأ عام ١٨٨٨م «جمعية اللغة العبرية»، وكانت نواة للمجمع اللغوي الإسرائيلي بعد قيام الدولة الصهيونية في فلسطين عام ١٩٤٨م، فهذا المناضل في سبيل فَرْض عبرية صهيونية، وجد مقاومة شديدة من المتزمّتين اليهود في فلسطين، خصوصا بعد أن أصدر جريدة بالعبرية، اعتبرها أولئك الشيوخ اعتداء على لغة التوراة ! إذ كيف يمكن السكوت على ذكر أخبار حوادث السرقة والقتل باللغة العبرية، إلاّ بقلم واحد من الزنادقة - مثل بن يهودا - يريد أن يُدنِّس اللغة المقدسة؟ وطبعا كان المعارضون له يستخدمون الييديش، التي كانت تسمح بكميات كبيرة من الشتائم يصبُّونها على بن يهودا، ومن يتعاونون معه.

بدأت هذه اليهودية الشعبية كما قلنا منذ أكثر من ألف سنة، في الوقت الذي لم تكن اللغات الأوربية الحديثة قد استكملت شخصيتها، بل كانت لغات ولهجات عامية لاتجرؤ على منازعة اللاتينية واليونانية في ميادين الأدب والعلم والتأليف، وكان لابد من الانتظار مدة خمسمائة عام حتى تشهد أوربا طلائع الأدباء في لغاتها القومية. وحتى يمكننا أن نتصور (الييديش) في الأطوار الأولى من تكوينها ، علينا أن نتذكر أن الروح القبليَّة كانت ترافق اليهودي أينما ذهب. فهو ينجذب إلى أمثاله، ويعتزل غيرهم بخوف شديد على دينه، وعلى نفسه، وبنفور من الاختلاط مهما كان شكله، فاللحم واللبن معًا حرام، والذبيحة التي لم يذبحها يهودي مأذون شرعا حرام، والنسيج المخلوط من الصوف والكتان أو من القطن والحرير يَحْرُم اتخاذه عباءة للصلاة أو كفنًا للميت، والنبيذ المعصور من أعناب مختلفة الجذور يحرم استعماله في طقوس القرابين والتقدمات والعبادات، والزواج بين اليهود وغيرهم حرام، إلاّ بشروط قاسية جدًا،

واليهودي الملتزم بروح الشريعة يميل إلى تحاشي الاتصال بأبناء الأمم الأخرى (الجوييم) إلا لمنفعة تعود عليه أو على قومه، وعلى أثر الشتات البابلي في القرن الخامس قبل الميلاد، والروماني في القرن الأول بعد الميلاد، كان اليهود مكروهين من الأمم التي لجأوا إليها، مضطهدين في أكثر الأحيان، بسبب عزوفهم عن الاندماج في غيرهم، وحرصهم - حتى في المظهر الخارجي - على الظهور على شكل فئة منفصلة، كحوصلة سرطانية في جسم الأمة التي تؤويهم، فكان من الطبيعي أن يعيشوا في حاراتهم وتجمعاتهم محرومين من التعليم والتثقيف، وكانت اللغة العبرية العتيقة قد غطى عليها النسيان، باستثناء يهود الدولة الإسلامية الذين وجدوا من سماحة الشريعة في الإسلام ما وضعهم في ذمة المسلمين، يدفعون من الجزية ما يعفيهم من واجبات الجهاد العسكري، وكانت هذه الجزية غالبًا لا تعدو مقدار الزكاة الواجبة على المسلمين أنفسهم.

في هذا الجو الأوربي من العداوة وانعدام الثقة، وفي ظلمات العصور الوسطى في الغرب كان لابد أن يتكلم اليهود، فتكلموا برطانة عامية أساسها ألمانية سقيمة محرَّفة مرصَّعة بألفاظ عبرية دينية منسوخة المعنى والمبنى وبرواسب آرامية تلمودية ملتوية، ومن نتوءات وخرفشات عالقة باللسان من لغات أخرى كثيرة.

وتنقسم مراحل تاريخ لغة اليديش إلى أدوار متعاقبة لكل منها ميزاته:

الدور الأول: وتتبين معالمه منذ القرنين التاسع والعاشر من الميلاد، ويعرف باسم (اليديش البدائي) وكانت الغلبة فيه للهجات الجرمانية القديمة، المستعملة في إمبراطورية شارلمان وخلفائه وهي إمبراطورية نصرانية تجمع معظم شعوب أوربا، ولا تحب اليهود.

الدور الثاني: اليديش القديم، وهو دور شهد انتشار الاستيطان اليهودي في ألمانيا وشرق فرنسا ووادي نهر الدانوب، وتم ذلك في خطوتين امتدت الأولى منهما من ١١٠٠ إلى ١٢٥٠م، والأخرى من ١٢٥٠ إلى ١٥٠٠م، وفي هذه الخطوة كان مركز النشاط الاجتماعي قد انتقل إلى أوربا الشرقية، خصوصا بعد ظهور (محاكم التفتيش) الكاثوليكية وطرد المسلمين من الأندلس، لإنجاز عملية تطهير ديني لاستئصال بقايا المسلمين في أوربا، ومعهم اليهود والزنادقة من كل لون، حتى من المسيحيين أنفسهم. وكثر رحيل اليهود شرقًا نحو بوهيميا ومورافيا وبولندا وأقاليم بحر البلطيق، وتطورت لغة اليديش مع هذا التغير، فأصبح الدخيل من لغات الصقالبة (السلافيين) رافدًا هاما لليديش، إلى جانب شظايا من اللغة المقدسة (العبرية والآرامية)، وما تأصّل على ألسنة أولئك اليهود من لغات أصلها جرماني ولاتيني يسمونها (لَعَاز) أو بالعربية (إلغاز) الأولى بالعين المهملة، ومقابلها العربي بالعين المعجمة، وأصلهما واحد.

الدور الثالث: يُسمى عندهم (اليديش الوسيط)، ويمتد من ١٥٠٠ إلى ١٧٠٠م، وهو عصر الازدهار والانتشار لهذه اليهودية الشعبية نحو الغرب. فتسربت مع التجار والمثقفين اليهود إلى هولندا وألمانيا الشمالية، وحدث في اللغة نفسها تأثر بالأوساط والحضارات الجديدة، بحيث صارت هذه اللغة تُسمَّى (اليديش الغربي) لانتشارها في كل أوربا الغربية. ثم عادت اليديش إلى الإنكماش في هذه المواطن الجديدة مرتدة على أعقابها نحو أوربا الشرقية، لأن فرص الكسب في غرب أوربا ضاقت باليهود، مما أدى إلى بزوغ مواقف من القومية المتعصبة مقترنة بموجات قوية من (اللاسامية)، ولم تكن مواقف الشعوب في أوربا الشرقية بأقل لاسامية نحو اليهود، فَعَبَر الكثيرون من اليهود المحيط الأطلسي نحو الدنيا الجديدة، في أمريكا الشمالية والجنوبية، كما عبر فقراؤهم البحر الأبيض المتوسط نحو فلسطين ومصر وسورية ولبنان و تركيا والعراق، وكانت كلها أجزاء من الدولة العثمانية.

ثم بدأ الدور الأخير من عام ١٧٥٠م، وفيه وصلت الصحافة والأدب اليديش إلى العصر الذهبي، لاسيما في أميركا حيث كانت صحافة اليديش قوة هائلة لها شأن في توجيه الرأي العام اليهودي في العالم أجمع، وفي الأدب ظهرت الأسماء اللامعة التي عرفها غير اليهود من الترجمات الكثيرة إلى اللغات الحديثة، على حين كان الأدب المنافس (العبرية الصهيونية) لايزال مترسًا وراء سياسة استعمارية استيطانية لفلسطين تحت أسماء كثيرة مثل: جماعة (البيلو)، وجماعة (عشّاق صهيون)، ومنظمات «العودة إلى أرض الميعاد».. وما إلى ذلك، مما مهد الظروف لنجاح (الصهيونية العالمية) بزعامة هرتسل في المؤتمر اليهودي الصهيوني الدولي الأول في (بال) بسويسرا. وكان هذا الزعيم لايعرف من العبرية شيئًا يُذكر، بل كان يخطب ويدير المناقشات مع المؤتمرين بلغة اليديش. ومازال اليهود في هذا الدور الأخير إلى الآن. وليس أدلّ على أهمية

الشاعر اليهودي ينسلخ من «العبرية»، ويلجأ «لليديش» عندما يريد أن يحرك مشاعر بني جلدته.

هذه اليهودية الشعبية التي نبتت وترعرعت وتفتحت بشكل تلقائي وطبيعي من أن أمير شعراء العبرية الصهيونية التي يزعُمون أنها فصحى - عندما اندلعت موجة لاسامية في روسيا ووقعت فيها مذبحة (كيشينييف) عام ١٩٠٣م، وتبين أن اليهود استسلموا للمهاجمين دون مقاومة تُذكر - كتب قصيدة طويلة قوية بالعبرية، ثم عاد فكتبها باليديش حتى يصل صوته إلى اليهود جميعًا، لأنه كان ينعى عليهم السلبية والاستسلام للذبح كالخراف، وينادي بضرورة المقاومة، وتحطيم القوة بالقوة. وقبل أن أُقدِّم ترجمة لمطلع القصيدة من اليديش، أعطي الصديق القارئ فكرة عن هذا الشاعر، أشهر شعراء الرعيل الأول من الصهيونية، وأكثرهم حظوة لدى الصهاينة، وهو يهودي أوكراني من مواليد بلدة (رادي) في ١٩ يناير ١٨٧٣م، ومات في تل أبيب في ٤ يوليو ١٩٣٤م فحياته موازية تقريبا لحياة شاعر العرب في ذاك الوقت (شوقي)، ولعل باحثا منّا يقوم بموازنة بين أمير شعراء الصهيونية ونظيرَه ومعاصره أمير شعراء

العبرية الصهيونية ..واليهودية الشعبية

العرب والمسلمين. وعنوان قصيدته باليديش والعبرية (مدينة المذبحة) وفيها كل ملامح المنشور السياسي العنيف، وهي من نوادر ما كتبه باليديش. يقول في المقطع الأول منها:

من حديد.. من فولاذ بارد كالجليد..
اصْنَعْ لك قلبا يا رجل! وَضَعْهُ بين جوانحك..
وتعالَ معي.. تَعالَ إلى مدينة المذبحة!..
إذ ينبغي لك أن ترى بعينيك.. وأن تلمس بيديك..
على الحواجز الحديدية.. وقضبان الصلب المدببة..
على الأبواب والجدران.. على بلاط الشوارع..
على الأحجار والأخشاب..
آثار الدماء المتجمدة الداكنة.. ونخاع الجماجم!..
إنها بصمات إخوتك.. من رؤوسهم.. ونحورهم!..
وعليك أن تهيم بين الأنقاض.. بين الحيطان المتفسِّخة..
والأبواب المنكفئة على وجوهها.. والمدافئ المبقورة البطون..
في أطلال الغرف.. والحجارة العارية، التي سَفَعَها دخان الحرائق..
والقرميد الذي لَحَسَتْهُ ألسنة اللهب!
لترى كيف رقصت الفأس والنار والحديد بوحشية..
في مهرجان الدماء بالأمس!..
وتسلَّقْ إلى مخازن المئونة تحت السقوف المحطمة...
وتأمل مليا... تأمل الشقوق الممزَّقة...
فهي جروح دامية فاغرة سوداء!

ولا تَنتَظِر من العالم علاجًا!

وتمضي القصيدة على هذه الوتيرة على مدى ثلاثمائة وخمسين بيتًا، يصعد فيها الغضب مع تفصيل بشاعة المأساة حتى أظن من جانبي أننا لَسْنا في الحيِّ اليهودي بكيشينييف، بل في (دير ياسين)، أو (غزة)، أو (ساحة الحرم القدسي)، أو (الجامع الإبراهيمي) في مدينة الخليل! ويختتم بياليك القصيدة بقوله:

يكفي الآن أيها الرجل! اهرب واختف.. إلى غير رجعة!..
حُثّ الخطا في قلب صحراء.. وافقد عقلك!..
ومَزِّق روحك إربا..
وانتزع قلبك.. واقذف به إلى ابن آوى..
وأطلق لدموعك العنان على الصخر الملتهب...
ولتذهب صيحتك أدراج الرياح!

فهذا صهيوني أصابه شكٌ في جدوى (عبريته القومية) فانسلخ منها ولجأ إلى اليديش بنضارته وبساطته وعفويته، لأنه يريد أن يحرك مشاعر بني جلدته، ولا يريد أن يتأنق أو يتحذلق.

وجدت (العبرية الصهيونية) في اليديش (اليهودية الشعبية) خصما لدودًا شديد المراس، لاتزال تسعى جاهدة في إبادته والقضاء عليه. فعبرية الصهاينة لغة صناعية قضى بها مخطط سياسي، يقوم على دعاوى تراثية عنصرية مناقبية، وتطمح إلى أن تكون لغة عامة لليهود جميعا حتى يشعروا أنهم (قوميّة) قائمة بذاتها، وتكون هذه العبرية المصنوعة نوعا من (الاسبرانتو اليهودي)، مثل الاسبرانتو العالمية التي تمخض عنها حلم مستحيل، هو جمع البشر جميعا على لغة واحدة، وقد فشلت الاسبرانتو العالمية رغم كل الجهود المضنية التي بُذلت بلا نتيجة. ذلك أن البيئة، ونمط الحضارة، ومطَالب العصر، هي التي تصنع اللغات، لا المراسيم الحكومية، أو الزعامات القيادية، أو المجامع اللغوية، فضلا عن الدعايات المزخرفة البّراقة. وقصة العبرية الحديثة (الصهيونية) قد انتهت بأن تكون سجنًا للناطقين بها، لايتصلون بالفكر العالمي إلاّ من خلالها، أي من خلال الأطماع السياسية الصهيونية فحسب. فالشاب اليهودي الذي ضاق ذرعا بالحياة في إسرائيل لايستطيع أن يفكر في مغادرة هذه الدولة، إلاّ بعض السعداء الذين قُدر لهم أن يحسنوا لغة أجنبية أخرى. لأنه لايتلقى معلومات عن الإنسانية التي تملأ العالم، إلاّ من خلال الإعلام الصهيوني، كما أنه يجد صعوبة كبيرة في الحصول على عمل يعيش منه خارج سياج عبريته التي تلقنها في إسرائيل. في حين أن أخاه الناطق باليديش، يَقْدر بجهد قليل جدا على استعمال الألمانية أو الإنجليزية أو الروسية، لأن اليديش منقوعة في ذلك كله، بالإضافة إلى أنها أقدم من العبرية الصهيونية بنحو ألف سنة، وقصة إحياء العبرية أو على الأصح خلق لغة مُتَنَكِّرة في ثياب تراثية كرنفالية، ظاهرة عليها ركام ثقيل من علامات الاستفهام. فإن إليعازر بن يهودا، بطل (إحياء اللغة العبرية) كما يقول ويقولون عنه، كان يَعْتَبر أن المعجم العربي والآرامي والسرياني مِلْكٌ للغة العبرية (الحديثة) وملأ معجمه الكبير بغنائم من ألفاظ تلك اللغات، واشتق من هذه الألفاظ المُغْتَصَبة آلافا من التصريفات والمشتقات والتوليدات والمركّبات الغريبة.

وفي أوائل عصور الأمل الصهيوني في إقامة دولة يهودية بفلسطين، كاد زعماء هذه السياسة أن يختاروا (اليديش) - كما هي - لغة رسمية لدولتهم. ولكن أحلاما رومانسية خَيَّلتْ لهم أن عبرية جديدة - مهما كان نطقها سيئا، وتراكيبها متعثرة عرجاء - تُوحي لليهود وللعالم - المسيحي خصوصا - بأن معجزة قد تحققت في (أرض الميعاد) وأن الدولة الصهيونية تتكلم - شعباوحكومة - بلغة موسى وهارون، وداود وسليمان! وكان الأديب اليهودي (آرثر كوستلر) قد تأثر بهذه المعجزة، فترك الماركسية، وترك عضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وهاجر إلى الولايات المتحدة، وزار فلسطين الصهيونية، ثم ألَّف كتابا عنوانه (تحليل معجزة) تغنّى فيه بما حققته السياسة الصهيونية من (منجزات)!

وقد بدأ إنتاج الأدب الصهيوني باللغة العبرية قبل الصهيونية نفسها، لكن بأسلوب لايخرج عن تعابير كتابهم المقدس القديم، واشتهر في هذا النمط من الأدب التقليدي - الديني في جوهره ومظهره - اليهودي الايطالي (موسى حاييم لوتساتو)، المولود في بادُوَا بإيطاليا عام ١٧٠٧م. واجتذبه التصوف اليهودي، فرحل إلى صَفَد بفلسطين حيث اتخذها عَدَدٌ من صوفية اليهود مُسْتَوطَنة لهم، وكانت هجرته إليها عام ١٧٤٣م. وبعد وصوله بثلاث سنين ظهر طاعون في صفد قضى على معظم أولئك الدراويش، ومات فيها ابنه وزوجته، فهرب إلى عكّا ومات بها في العام التالي ١٧٤٧م، وكان من روّاد

الشعر العبري الحديث الذي يشبه الشعر الصوفي العربي في حضيض عصور الانحطاط عندنا.

ويطول بنا الحديث لو حاولنا أن نتعقب أولئك الأدباء الذين تكلفوا اقتفاء أثر كتابهم المقدس تبركا ومحاكاة واقتداءً. حيث نجد «مابّو» بعد ذلك بقرن من الزمان يكتشف فنّ القصة والرواية، ويكتب فيها نثرا أشبه بخطب الحاخام في معابد اليهود في السبت والأعياد. أما تعليم اللغة العبرية حسب مناهج مدرسية مقررة فقد بدأ في القرن الماضي فقط، وفي باريس خاصة، على يد الاتحاد الإسرائيلي العالمي، الذي مهدت له قوانين الثورة الفرنسية الخاصة بالحرية والإخاء والمساواة، منذ عام ١٧٨٩م. ففي ٢٧ سبتمبر عام ١٧٩١م أصدرت حكومة الثورة مرسومًا يمنح اليهود حقوق الإنسان. وبعد ذلك ساعدت الظروف السياسية المواتية ليتقدم اليهود الفرنسيون نحو آفاق جديدة من العمل في سبيل مصلحة بني جلدتهم، خصوصا بعد أن ظهر فيهم زعيم متعصب ليهوديته، أكثر من تعصبه لفرنسا هو (كريمْييه، إسحق أدولف، ١٧٩٦ - ١٨٨٠م). ويسجلَ التاريخ أنه كان من الرعيل الأول من الطلبة اليهود الذين سمحت لهم الحكومة الفرنسية بدخول (المدرسة الثانوية الإمبراطورية) في باريس. ثم التحق بكلية الحقوق في جامعة (إكس) في إقليم بردفانس، بجنوب فرنسا. وبعد حصوله على إجازة القانون عاد إلى بلده (نيمْ) - في الجنوب أيضا - عام ١٨١٧م وعمل محاميا. وأثار عند دخوله سلك العدالة مشكلة كَثُرَ فيها القيل والقال، عندما رفض النطق بالصيغة الرسمية لـلقَسَم الخاص بالدخول في المهنة، وخاض من أجل ذلك قضية خرج منها منتصرًا، كما انتصر في قضيتين مماثلتين ليهوديين آخرين، وقد وصَمَ صيغة القسم بأنها تتضمن تفرقة عنصرية ودينية ضد اليهود، وانتهى الأمر بإلغاء هذه الصيغة من القانون الفرنسي عام ١٨٢٧م، مما جعله زعيما لليهود في فرنسا، وبطلا للدفاع عنهم. وفي عام ١٨٣٠م انتقل إلى باريس، تسبقه شهرته وبطولته، وهناك سمع بتهمة الدّم في دمشق عام ١٨٤٠م، والقبض على عدد من اليهود بالمدينة ومحاكمتهم بقتل الأب الفرنسي الكاثوليكي (توما) هو والعامل المسلم (إبراهيم عمارة) البستاني في دير الرهبان الدومينيكان بدمشق، لمعتقدات سحرية تُحبِّذ خلط عجين الخبز الخاص بعيد الفصح اليهودي بدم ذبيح من غير اليهود. وأقام كريمييه الدنيا وأقعدها، وشكّل لجنة يرأسها اللورد البريطاني اليهودي مونتفيوري يرافقه صاحبنا هذا، والمستشرق سالمون مُونْك والمهندس شارل نترْ، وقابلت اللجنة الوالي محمد علي باشا في قصر رأس التين بالإسكندرية - وكان واليا على الشام أيضا - وحصلت منه على إذن بإطلاق سراح ثلاثة من زعماء يهود دمشق، وثلاثة وستين يهوديًا ويهودية آخرين مُتَّهَمين بالجُرم نفسه، كما حصلت من محمد علي على تعويض ضخم لليهود، أنشأ به شارل نترْ أول مستوطنة زراعية يهودية في فلسطين قبل هرتسل بنصف قرن من الزمان، هي (يقْو به يسرائيل) أي (غدير إسرائيل)، حوِّلت إلى مدرسة يهودية للزراعة في منطقة رحوبوت (مجدل عسقلان) وهي الآن كلية الزراعة بالجامعة العبرية.

محمد علي باشا لم يكتف بإطلاق سراح اليهود المتهمين، بل عوضهم ماليًا أيضا، وكأنهم هم الضحايا.

معذرة في الإطالة والاستطراد فحياة الصهيوني هذا حافلة بالمصائب على العرب والمسلمين، وعمله في إحياء اللغة العبرية هو أقل أعماله قيمة وخطورة. ففي عام ١٨٤٢م تمّ انتخابه عضوا بمجلس النوّاب في البرلمان الفرنسي. ثم وزيرًا للعدل في فبراير عام ١٨٤٤م عندما سقطت الملكية مرة أخرى، وانتقلت فرنسا إلى النظام الجمهوري. وفي أثناء الشهور القليلة التي قضاها في وزارة العدل حصل على الموافقة على (قانون كريمييه) الذي يُعطي الجنسية الفرنسية لليهود في الجزائر، ثم طُبق على يهود تونس والمغرب بعد احتلالهما، مع بقاء المسلمين العرب والبربر مُسْتَعْبَدينَ للمُستَعمر لا يتمتعون بأية حقوق، حتى حقوق المواطنة التي حصل عليها كريمييه كاملة لليهود عام ١٨٤٦م.

وفي سبيل إحياء اللغة العبرية أعلن صاحبنا في ١٧ مايو نداءً لإنشاء (الاتحاد الإسرائيلي العالمي). وكان هذا النداء يحمل توقيعه هو وستة عشر من زعماء اليهود الفرنسيين. وكانت لهم لجنة تنفيذية من ستة ليس منهم كريمييه الذي آثر أن يعمل - في تلك المرحلة - من وراء ستار، أما الستة المذكورون فهم:

١- المهندس شارل نترْ ٢- نارسيس ليفين ٣- إيزيدور كوهين ٤- يوجّين مانويل ٥- أرِسْتيدْ آسْتروك ٦- جول كارفالو.

ولم يظهر كريمييه علنا إلا عندما انتُخب عام ١٨٦٣م رئيسا للاتحاد الإسرائيلي العالمي، وكان الثالث في هذه الرئاسة. ركزّ الاتحاد الإسرائيلي في الجولة الأولى من نشاطه على البلاد العربية، فافتتح أول مدرسة يهودية له في (تطوان) بالمغرب، عام ١٨٦٢م ووضعها تحت حماية فرنسا وبريطانيا، ثم شيّد مدرسة ثانية في طنجة عام ١٨٦٥م - ثم انتشرت هذه المدارس على طول الساحل في: تونس ١٨٧٨م - طرابلس ١٨٨٩م - القاهرة ١٨٩٦م - الإسكندرية ١٨٩٧م - طنطا ١٩٠٥م، كما امتلأت فلسطين بمدارس الاتحاد الإسرائيلي في: القدس - طبرية - حيفا- صفد، وكذلك سورية: دمشق - حلب، والعراق في: بغداد - الموصل - البصرة - العمارة - الحلّة - خانقين. ومنذ ١٨٩٨م زحفت مدارس الاتحاد إلى إيران في: طهران - أصفهان - همذان - سينه - شيراز - كرمانشاه، ثم في الجزء الأوروبي من تركيا. وكثرت مدارس الاتحاد الإسرائيلي في الجزائر: الجزائر العاصمة - وهران - قسنطينة، وكانت تُعنى بتعليم الشريعة اليهودية(التوراة والتلمود) لحرص اليهود على ذلك هناك، كما فتحت مدرسة لتخريج الحاخامين في أسطنبول بتركيا. هذا إلى جانب عدد كبير من المدارس الصناعية ومراكز التدريب المهني، على غرار مدرسة الزراعة بفلسطين، فَأُسِّسَتْ مدرسة في الجديّدة (تونس)، وفي سالونيك (اليونان)، بالإضافة إلى مئات المدارس في آسيا وأمريكا الجنوبية وأفريقيا، وبعضها يَضُمّ مستوصفا طبيًا، أو مركزا لرعاية الأطفال، أو شباكا لتوزيع الغذاء للأطفال والفقراء، وأكثر هذا كما نرى بدأ واستمر

العبرية الصهيونية
..واليهودية الشعبية

قبل الصهيونية العالمية، كما بدأ تدريس التاريخ اليهودي واللغة العبرية والكثير من مواد الدراسة في العلوم الأخرى باللغة العبرية، لأن إحياء اللغة عند المسؤولين في الاتحاد الإسرائيلي العالمي كان أمرا في الدرجة الأولى من الأهمية. ومع ذلك فقد أُتيحَت لي فرص رؤية الأساتذة والتلاميذ والكتب في القاهرة والإسكندرية وفلسطين والمغرب وسورية ولبنان والعراق، فوجدت أعداداً كبيرة من اليائسين من جدوى إحياء لغة مُتكلَّفة لا تمت إلى العبرية القديمة الفصحى - عبرية التوراة وأسفار الأنبياء إشعيا وإرميا وحزقيال ومزامير داود - إلاّ كما يشبه القطّ النمر أو الأسد، ولكن .. كل قوم بما لديهم فرحون.

واليهوديةَ الشعبية (البيديش) لا تشكو من هذا اليأس، ولا تَنفُضُ غَزلَها وتستأنفه من جديد، لأنها لغة وُلدتَ ولادة طبيعية، قد تكون تخلّقت في رَحم آخَر، ولكنها قطعًا ليست من (أطفال الأنابيبّ) ولذلك جاء أدبها ناضجا مع الزمن، خاليا من الأمراض النفسية التي تسرى في الأدب الصهيوني، ومن تلك الأمراض: المازوشية، أي التلذذ بالعذاب، والبحث عن السعادة في البكاء، وحَمْلِ أثقال التشاؤم مهما ابتسمت الدنيا والشعور الدائم بالدُّونيّة. وعلى الطرف الآخر نجد مرض الاستعلاء والتجبر واحتقار الأمم الأخرى غير اليهودية، والنظر إليها على أنها ستكون، في آخر الزمان، عندما يستجيب لهم المسيح المخلص، عبيدا وخدما لإسرائيل، ثم يأتي مرض آخر هو الانحلال والاستسلام للسكْر والزنا والعربدة والحصول على المال بأية وَسيلةَ مهما كانت غير شريفة، والشك، لافي وجود الله تعالى فحسب، بل في وجود أي نظام يبدو به الكون في نظره «معقول»، فهو لا يؤمن بالتوراة ولا بالتلمود ولا بالقوانين الوضعية، ولا بقيمة الإنسان، ولاقيمة الحياة نفسها، ولاضرورة للعلم أو العمل أو احترام مطالب الأخلاق. قد نَقَع أحيانا على نماذج من هذا في آداب الأمم الأخرى، حتى أدبنا العربي، لكنها لاتفوح منها روائح الوباء المقززة، لأنها نادرة تحملها الزوابع بعيدا، إلى حيث تُؤْمَن العدوى منها والأدب العبري الحديث مريض لغة وفكرًا، على حين أن أدب اليديش، قد يكون مريضا، ولكنه غير موبوء أو مُقَزِّز، وهو أدب غني، ويكفي أن صحافته في العالم أضعاف أضعاف صحافة الصهاينة، على الرغم من الإرهاب النفسي والمادي الذي تمارسه الصهيونية بوحشية على اليديش، لغة وفكرًا وتراثًا. وهذا مَثَلٌ من الشعر اليديش العفوي من قصيدة عنوانها «لا تظنّ»! لإسحاق ليبوش بيريز(١٨٥٢م في بولندا - مات في وارسو ١٩١٥م):

لاتظنّ أن الدنيا غابة،
للذئاب ، والثعالب، والسرقة، والخداع!
وأن السماء، ستارة تحجب الرؤية عن الله!
وأن الضباب، غشاوة لكي لاتراك عين!
وهزيم الريح، ضوضاء لخَنْق أعلى صرخات ضحاياك!
والأرض، لتشرب الدماء البريئة التي تُريقها!
لا ! لاتظنّ أن الدنيا غابة.

ونموذج آخر من يهودي روسي تَنَقَّل في بلاد الله وعمل صحافيا وناشرا باليديش في نيويورك. إنه إبراهام (آفروم) رايزن، المولود في روسيا، وأنهى حياته في نيويورك: (في الأصقاع النائية):

نحن أولئك الذين شُتّتوهم
في أشد الأصقاع بُعدا
كل منا مجرد حلقة
في سلسلة متجددة
ليس في بابل فحسب
لكن على ضفاف الأنهار
جئنا من كل مكان.. لنجلس
نبحث عن سقف لنا يُظلُّنا
وهكذا غَدَت الدنيا حبيبة إلينا
الدنيا بأسرها.. أحبّتْها قلوبنا
فعلى الضفاف البعيدة جدا
اتخذنا لنا دارًا وقرارا
والآن نحن نعتز... ونعشق..
نهر الفستولا.. كما نهوَى الراين..
والدنْيبرُ الهادر ملْءُ قلوبنا
يبوحَ بشكواه برفَق
وإلينا أشار نهر هدسون.. الحُرُّ
تموج تياراته بمشاعر الأخويّة
إذ من المسموح به على ضفافه
أن يجد الانسان الراحة.. أخيرا..
أية أغنية تطرق مسامعنا..
قد عرفنا لحنها من قبل!
وأي نهر يجري أمامنا..
يثير فينا عواطف الحنين!
أية راية تخفق فوقنا..
قد تعودنا على ندائها!
أية سفينة تمخر العباب..
تُلقي مراسيها في بلد صديق!

وأخيرا هذه شاعرة معاصرة، يهودية أمريكية، من مواليد فيلادلفيا عام ١٩٣٥م، هاجرت إلى إسرائيل، حيث تُقيم في (بيت ألْفا)، أسفل جبل (جلْبُوَعْ) إنها راحَيل فيشمان الفائزة بجائزة «تانجر» في الشعر اليديش، وهي بارعة في وصف طبيعة فلسطين: (النهار والليل):

أُسْرَعتْ الصحارى الليلية
التي تتفتح في سويداء قلبي
وقد سارتْ وأبعدتْ فيها
قوافل.. صامتة.. هزيلة..
كليلة..
أكاد أتذكرُ بصعوبة..
جُلجُلة تَرنُ..
ونجمة تختَفي..
ورنين..
ويرتفع أمْرٌ من مطلع الفجر..
للسماء..
بأن تفرش أديم الأرض المتوحش..
بالأحمر الوردي البريء!

وأكتفي من صاحبتنا بهذا القدر، فَشعْرُها الذي بدأت تقوله منذ أربعين عاما ساحرٌ بالصَور، والجرس أيضا، وإن كانت أوزان العروض الأمريكي الحديث لاتزال غريبة على أذني التي يحتلها البحتري وامرؤ القيس والخليل بن أحمد.

إن حديث لغة اليديش وأدبها شعرًا ونثرًا لايكاد ينتهي، وفيه نلمس الروح اليهودية الصادقة، أما أدب العبرية الصهيونية فنلمس فيه آلام الولادة العسيرة، وضغوط الصهيونية على أرواح اليهود.

اتجاهات التغريب في الأدب المعاصر



د. نعيم عطية

الهدف من هذه الدراسة هو رصد اتجاهات التغريب في الأدب المعاصر، واستجلاء جوانب الطرافة والندرة في النصوص الأدبية.

يقول هيجل عن الفن الرومانسي إنه تميز منذ البداية بفصله العميق بين الخارج والداخل، وبانطواء الداخل على نفسه. إن الداخل في الروابط بين الروح والحقيقة الموضوعية، يبدو غير مكترث بتلك الحقيقة الخارجية. على أن هذا التضاد بتطوره يفضي إلى تركيز كل قيمة للفن الرومانسي إمّا على الخارج العَرَضي، وإمّا على الذاتية التي لاتقل عرضية. ولكن التصور الذاتي للحقيقة الموضوعية مايلبث أن يؤدي إلى نوع من "السخرية" تهاجم الشيء والشكل الذي يضفيه عليه الانعكاس أو الانطباع الشخصي. وهكذا نجد أنفسنا إزاء نوع من السخرية الموضوعية أو الهزل الموضوعي من خلال وجود داخل الشيء نفسه. على أن هذا التغلغل في الشيء لايمكن إلا أن يكون جزئياً، فالمتغلغل لازال جزءاً من وسط أرحب من مجرد الشيء المتغلغل فيه. وهكذا فلئن تغلغل الفنان داخل الحقيقة الموضوعية إلا أنه لايتوصل إلى تجسيم الشيء إلا بأقواله وأفعاله هو . وبعبارة أخرى فإن "الموضوعي" لايعرب عنه إلا من خلال "الذاتي" بكل مايستتبعه ذلك من نتائج أخصُّها غلبة الذاتي على الموضوعي في التعبير الفني.. وقد التقط بريتون هذا الخيط الدقيق معلناً أن "الهيمور الموضوعي" هو عملية التوفيق بين محاكاة الطبيعة في صورها العارضة من ناحية وبين الانتصار لمبدأ المتعة على الأوضاع الواقعية من ناحية أخرى. ونلتقي بأصول «الهيمور الموضوعي» في انجلترا عند سويفت ولويس كارول، وفي فرنسا عند جاري وفاشيه وروسيل ودوشام وريجو. ويمكن القول بأن الهيمور هو المحرك الأساسي لأعمال الحركتين "المستقبلية" و "الدادية" وما شابههما.

اتجاهات التغريب في الأدب المعاصر

التهكم الأسود

إن الهيمور - على حد قول السريالي اليوغوسلافي ماركو ريستش - هو في جوهره نقد حدسي ورفض ضمني لعملية التفكير التقليدية، أو بعبارة أخرى هو قوة تخرج واقعة أو عدة وقائع من مجالها العادي لتدفع بها في لعبة (مدوخة) من الروابط غير المتوقعة وغير الواقعية. وبخلط للواقعي والجزافي خارج كل حدود الواقعية اليومية والمنطق العقلي، يتسنى للهيمور أن يُضفي على ماحوله جدة جهمة خشنة وطابعا وهميا موحيا بعدم الوجود، أو على الأقل بأهمية زائفة خداعة، وبموضوعية مشكوك فيها ومستحقة للازدراء.

إن هذا "الهيمور" أو "التهكم الأسود" هو التعبير الأقصى لعدم تلاؤم مع العالم الخارجي. وفي الحقيقة فإن التهكم الأسود نتاج حالة من المعاداة الجذرية للعالم الخارجي. وتستمد هذه الحالة جذورها من الإحساس الذي تثيره الذاتية في الأعماق على نحو لايمكن للتفاهة الإنسانية ورثاثة الحياة اليومية أن تدركه، ولكن في خضم هذه التفاهة والرثاثة يصبح هذا الجانب اللامعقول من الوجود الإنساني محمَّلاً بعبء الإبقاء على ماله هو وحده معنى في الحياة الإنسانية.

وهكذا يكون الهيمور الأسود قوة سلبية، وستارا يقف حائلاً بين العقل والنظام الذي استتب عليه وجود هذا العالم، فلا ينجذب إليه منخدعا به. ومثل هذا التهكم إنما يهدف إلى قطع الروابط بكل العادات المتولدة عن هذا الانجذاب، بل هو يحرر العقل من نفوذ هذا الخارج ويجعله متقبلاً لجاذبيات العقل الباطن أيضاً .. وهذا الهيمور الذي يوصف «بالهيمور الأسود» يختلف عن تهكمية رابليه، وعن انتقادية فولتير، وعن الهيمور الأحمر الصادر عن حناجر متورِّدي الخدود المتخمين بالصحة والرفاهية، وعن الهيمور الوردي الصادر عن نجوم الأناقة ورواد الصالونات المترفة. ويختلف حتى عن الضحك الأصفر حيث يضحك المرء رغما عنه، مع التظاهر بأنه لايضحك رغما عنه. إن الضحك الأسود ضحك صادر من الأعماق. صاحبه يعرف أنه منسحق، ولكنه يضحك من انسحاقه ذاته. إنه ضحك العجز والتحدي في آن واحد. وهو ضحك مختلف أيضاً عن ضحكة الرواقيين، وعن الضحكة البوذية أمام الفناء. إن المرء يحتفظ في الضحك الأسود لنفسه بسر ضحكته. وهي ضحكة لامعقولة، ضحكة من يكتشف بداخله قوة مبررة ومدمرة.

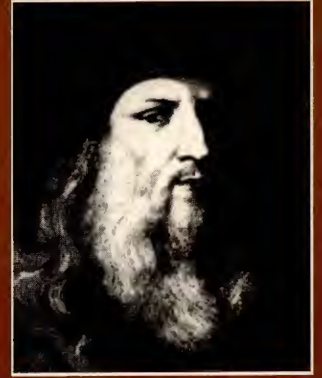
يصدق هذا مثلاً على "المخاتلة المشؤومة" عند الفرنسي المركيز دي ساد، وعلى الانجليزي جونثان سويفت مبتدع "الدعابة الوحشية الجهمة"، وعلى الشاعر الأمريكي إدجار آلن بو بحكاياته السوداوية، وعلى تريستان كوبير الذي يسمِّرُ ضفدعا محنَّطا على شرخ في مدفأته ويقول "هاهو قلبي"، ويلقي عند قدمي امرأة بقلب شاة حديثة الذبح لازال يقطر منه الدم ويقول لها "هاهو ذا حبي"، وعلى جيرمين نوفو الذي ساهم مع ريمبو وكروس في تغيير الذوق الشعري العام، ويصدق ذلك أيضاً على الفريد جاري الذي طلب منه الدكتور سلتاس على فراش الموت أن يدلي بأمنية تدخل عليه أكبر سعادة كي يحققها له، فقال له بكل هدوء "سواك أنظف به أسناني".

وتفسير مثل هذه الإفصاحات، أن الذات أو الأنا عند مثل هؤلاء تصد الهجوم عليها، وترفض أن تستسلم لعذابات الحقيقة الخارجية، وتأبى أن ترضخ لإرهاب العالم الخارجي، بل أكثر من ذلك فإن التهكم يمكِّن الواحد منهم أن يرى نفسه قادراً أن يجد في رفضه هذا فرصا للمتعة. إنه يُمكِّن المنسحق تحت نير الآلة الاجتماعية ووطأة الموت من أن يثبت ذاته على الرغم من كل شيء. إنه قد نفض عن كاهله كل أمل محتمل، ووجد في مذاق التهكم الأسود نوعا من التعويض الشهي. لأنه لايجد له متنفسا سوى التفخيم من يأسه، إنه يحقق بذلك غربته عن العالم وعن المجتمع وعن الذات العادية. وبهذا الانقسام يتخلى للعالم وللمجتمع وللجسد عن ذلك الجزء منه الذي يرتبط بهذه الثلاثية ارتباطاً لابرء منه، وينسحب منزوياً داخل ذاته الأشد خصوصية، منغمساً في خيالات لاسلطان لأحد عليها صاعداً إلى قمة لايلاحقه إليها أحد، ويمكنه منها إدانة العالم وإدانة ذاته المتخلي عنها بحرية.

غرابة النصوص السريالية

ويعجب الكثيرون من أن النصوص السريالية حافلة بغرابة فريدة، ومملوءة بتناقضات مذهلة أو غير مفهومة بفعل الانفصال التام بين الصور المحتواة. وهو مايقود البعض إلى القول بأن النصوص السريالية خادعة وتحكمية ومثيرة للرثاء. ولكن مثل هذا الحكم في الواقع حكم ظالم على السريالية، وينطوي على عدم تبين لمراميها. إن مافي النص السريالي من غرابة

وعدم تناسق وإفزاع وإبهام وتشويش ليس مجرد زخارف مضافة، بل هي المقومات الأصولية للشعر السريالي. وهي لاتبدو فيه بفضل منهج جمالي (إستطيقي) أو فكري مسبَّق، ولكن كمتطلبات للروح الشاعرة ذاتها. فليس بإمكان الشعر أن يعطي للعالم صورة سوية أو أن يقَوِّمه بطريقة متزنة. إن الصور التي يعكسها لايمكن إلا أن تكون وحشية شاطحة متهكمة ومقلقة. فالتعبير الشعري إنما ينتج من خليط متفَّجر من الذاتي والموضوعي، وليس بإمكان الشعر أن يصور الحقيقة الموضوعية على نحو مستقر ومشيد طبقاً لقوانين معترف بها عادة. وعندما يلمح


ليوناردو دافنشي

الشاعر مملكة "الميتامورفوز" أو "التحولات" - أعني تلك المناطق وتلك اللحظات التي تتولد فيها عمليات الجيشان والإلهام الإبداعي - تهاجمه بعنف أمواج من الصور اللامعقولة تترك فيه أشد الانطباعات ضراوة، وتغوص به أيضاً إلى أعماق الخيال الصاخبة. وبعبارة موجزة، فإن غير المألوف وحده هو القادر على أن يحقق تأثيراً شعريا، ولاتتولد نشوة الإبداع الشعري عند السيرياليين إلا بالانفصال عن العادات المألوفة.

ويمكننا أن نفهم بذلك ماقاله أندريه بريتون عن جورجيودي كيريكو من أنه ماكان بقادر أن يصور إلا "مأخوذا" ، وكذلك ماكس أرنيست الذي ماكان يصور إلا وقد استبدت به رؤى محمومة تحل عليه فجأة. ومن هنا جاءت الفكرة القائلة بأن الالتقاء بروح الشعر يكون عن طريق التزام منهج من إثارة الدهشة. وليس الأمر في هذا قاصرا على الشعر بل هو قاعدة أصولية في عملية الخيال ذاتها قُدِّرَ للسرياليين أن يستجلوها . وقد قال أندريه بريتون في كتابه «الحب المجنون» : لست أنا بل العلامة جوفيه هو الذي كتب عام ١٩٣٣ يقول: "إن تقدم العلوم الطبيعية إنما وجد مقوماته في الاندهاش الذي تثيره كل صورة جديدة أو علاقة جديدة بين الصور، مادامت الدهشة هي التي تؤجج المنطق الذي يتصف دوما بالبرود ويلزمه بأن يرسي قوانين جديدة" . ولهذا فإن الدهشة يجب أن تُطلَبَ أولا وآخرا، لذاتها، وبلا قيود. وإذا كان الإلهام الشعري يأتي بطوائف من الصور المدهشة التي تقلق أعماق الشاعر وتدفعه قدماً إلى آفاق أبعد من الحالة الشعورية، فإنه بالإمكان أن نقلب الإجراء، وان يُبْدأ بالإنتاج المنهجي لصور مثيرة للدهشة لذاتها.

ولاشك أن السريالية إنما تريد أن تجمع في قبضة واحدة أكثر الحقائق تناقضاً. وفي هذا المقام يقول الشاعر ريفيردي إن "الصورة هي إبداع معنوي بحت، وهي لايمكن أن تتولد من مجرد مقارنة بل بالتقريب بين حقيقتين متباعدتين. وكلما كانت الروابط بين الحقيقتين بعيدة المنال كانت الصورة أكثر قوة، وقدرتها الإيحائية أشد، ومن الحقيقة الشعرية أدنى" . ويشير بريتون إلى بعض الداديين في هذا المقام، ويقول على سبيل المثال إن "بيكابيا" كان أول من عرف أن كل تقريب بين الكلمات بلا استثناء أمر مشروع، وأن القيمة الشعرية لعملية التقارب هذه تكون أكبر كلما بدا التقارب أكثر عشوائية لدى النظرة الأولى. ومن الجدير بنا أن نقارن قول كل من ريفيردي وبيكابيا بالآخر لأن الانشغالات السريالية قد قامت إلى حد كبير على تحديد ما إذا كان التقارب بين الكلمات والصور يعني ضرورة وجود رابطة ولو دفينة بين الكلمات والصور المستخدمة، بحيث تبين هذه الرابطة آجلا وإن بدت منعدمة عند النظرة الأولى. وهذا مايجلب إلى الأذهان قول لوتريامون " جميلة مثل لقاء عارض بين آلة خياطة ومظلة على منضدة تشريح" فنحن نعرف أنه تحت هذه العلاقات الظاهرية فحسب اكتشف التحليل النفسي فيما بعد رموز السرير والرجولة والأنوثة. ويجب أن نشير إلى أن متعة النص الشعري لاتنتهي بانفضاح السر الذي ينطوي عليه، وذلك بخلاف الرواية البوليسية التي تستنفد متعتها بمجرد معرفة سر الجريمة المروي عنها. إن متعة المعرفة تحل جزئيا محل اللغز السريالي، ولكنه حلول جزئي على الدوام، لأن الرمز لايستنفد غموضه وسحره تماماً مهما تناوله الشرح والتفسير. بل إن المتعة التي يحققها اكتشاف جوانب السر تقترن بالدهشة التي يولدها اكتشاف أن لهذا السر ذاته جوانب أخرى لم تُسبَر أغوارها بعد، وأن كل إيضاح يجلب معه غموضاً جديداً.

وعلى هذا الأساس يعرف الشاعر والمصور ماكس ارنيست القانون الأساسي لبناء الصور السريالية بأنه "الربط بين حقيقتين لاترابط بينهما ظاهريا، وعلى أرضية لاتناسبهما بحسب الظاهر أيضاً ".

ويمضي النقاد الجادون ومحللو النصوص الأدبية في استنباط دلالات عميقة يكتشفونها

اتجاهات التغريب في الأدب المعاصر

وراء كثير من "التجارب الشعرية الحديثة" التي كـان لديها من الجرأة الأدبية ماجعلها توغل بعيدا عن إسار العقل وقيوده، معتمدة على ماأسماه الشاعر الانجليزي جون كيتس «القدرة السلبية» ، وهي القدرة التي لدى الشاعر على أن يحيا في حضن الاحتمالات والأوهام والشكوك دون أن يرغب بشكل مثير في أن يهرع بأي ثمن إلى أرض الواقع والمنطق. فمن الواضح أن روح النفي، وتعطّل المعاني، والدعابة السوداء ، وأسلوب المفاجأة، ليست قيما إبداعية حقا بالنسبة لمن لايملك الموهبة التي سماها كيتس "القدرة السلبية".

وتحتاج هذه القدرة السلبية إلى حس غريزي بالتوازن عند المغامرة بالدخول إلى اللامعقول بعيدًا عن التجربة المألوفة وعملية المَنْطَقَة . هذه القدرة تحتاج إلى موهبة ولاء ليقين حدسيٍّ، وحفاظ على نمط من التفكير لايمكن أن يوصف إلا بأنه مجافٍ لمدركات العقل وغير منطقي. ولكننا إذا تعمّقنا في الأمر أمكننا إثبات علويته العقلانية وتعديه للمنطقِ أسيرِ المعاني القالبية. وبالنسبة للشاعر وللفنان فإن هذه الموهبة أهم من كل مايمكن أن يسمى إحساساً أو فهماً للجمال. لأن هذه "القدرة السلبية" تجعل الشاعر صالحاً لأن يستشعر في خضم الظواهر المدوخة ماهو ذو قيمة حقا للبقاء، دون أن يكون هذا الذي استشعره قد أصبح بَعْدُ محددا ومفهومًا . إنه مجافٍ للذوق العادي، ولكنه في الحق يتلاقى مع الفهم الذي تخلّص من السطحية وقصر النظر، كي يسيطر على متناقضات الوجود في مساره دون أن يتردّى في الانبهار أو الضلالة.

الشاعر يجرع كل السموم

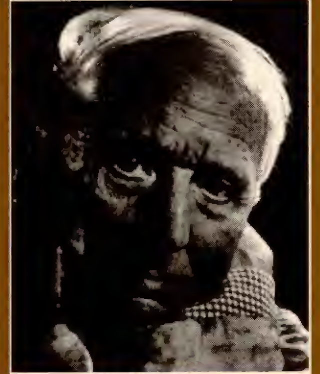
ويقول الشاعر آرثور ريمبو: " إن الشاعر يبلغ الرؤية عبر طريق طويل ومحكم من بلبلة كل المعاني. وكل أشكال الحب والعذاب والجنون يبحث عنها الشاعر بداخله، إنه يجرع كل السموم". ويتعلق الأمر في الحقيقة بكسر الأطر العادية للأحاسيس. ويقول ريمبو أيضاً : " إنني قد تعودت على الهلوسات البسيطة. كنت أرى معبدا مكان مصنع، عربة تجرها جياد تمضي في طريق السماء، غرفة استقبال في قاع بحيرة ".. وقد أصبحت هذه التجربة بالنسبة للشعر الحديث قانوناً أساسيا، فليست الرؤى الشعرية على أي حال منقطعة الصلة بالوضع العادي للحقيقة، فهي ليست اصطناعا بل هي انعكاس مباشر لاختلال الأحاسيس الحياتية في مخيِّلة الشاعر. إن الشعر باختصار هو "جنون منظَّم" أو هو "الجنونُ محكَمًا" .. ولكن يجب أن نلاحظ جيداً أن الأجدر ألا نقول إنه جنون بل هو اختيار للجنون. ولهذا فإن السريالية إنما تنادي بخلق أزمة أصولية في الأشياء، لأن المظهر الذي نسلم به للأشياء عادة ليس مطلقاً أو على الأقل ليس بالإطلاق الذي نتصوره عليه، وإن العلم لَيُثبِت لنا ذلك يوما بعد يوم، ولكنه ليس الوحيد الذي يثبت ذلك. إن الشعراء والفنانين واللاهوتيين والنفسانيين ومرضى العقول وأطباء الصحة النفسية دائبو البحث عن خط فاصل يُعتدُّ به يسمح بعزل الشيء الخيالي عن الشيء الحقيقي، مادامـا يتداخلان إلى أبعد الحدود.

إن الأمر، بعبارة أخرى، يتعلق بإعادة طرح السؤال عن الرابطة الحقة بين المدركات المقول بأنها عادية وبين غيرها. وتدب الشكوكُ في الأسس المألوفة للإحساس بالواقع، وتصبح محلَّ مراجعة. وصورة من صور هذه المشكلة يواجهها مارسيل بروست في عمله الروائي "الزمن المستعاد"، ففي اللحظة التي يضع قدمه على "رصيف جورمانت" يخطر على رصيف غير مستوٍ بميدان سان مارك في فينيسيا. فهل تتوقف "الحقيقة" مثلا على درجة " الآنية" أو "المزامنة" ؟ ولنلاحظ أن بروست ليس ضحية هلوساته. إنه يسيطر عليها في الوقت الذي يسيطر على الحقيقة الماثلة أمامه. ربما إلى الحد الذي يجري فيه مصالحة بينهما، ولكن بالأقل إلى حد الإدراك بأنه يستطيع أن يحتفظ بتوازنه عند همزة الوصل بين هاتين المنطقتين من الحقيقة اللتين تتداخل كل منهما في الأخرى.

ويبدو أن أندريه بريتون قد واجه صورة أخرى من صور هذه المشكلة عندما كتب "ليلة تورنيسول" ، ففي اللحظة التي كتب فيها أندريه بريتون مقطوعته هذه كان في تلك المنطقة التي يتبدى فيها المستقبل في الحاضر. والمهم في الأمر قبل كل شيء هو السيطرة على التعارض بين هذه الأوضاع المختلفة من إدراك (جيولوجية) الحقيقة. إذ يجب التوفيق جدليا (دياليكتيكيا) بين هاتين الكلمتين: "الإدراك" و"التصور"، وإلقاء جسر على الهوة التي تفصل بينهما، إذ إنهما في الأصل وجهان لحقيقة واحدة.

ويقول ريمبو: " لقد انتهى بي الأمر إلى أن أعتبر الفوضى الضاربة في أعماقي مقدَّسة".

وهذا يعني تأكيد إيمانه في القوة الكاشفة لما كان لايعدو في نظر الناس العاديين أن يكون مجرد هلوسة، فهل صار الشاعر قادراً على قراءة تلك الهيروغليفيات التي تخطها قوى خفية في أكثر مناطق الخيال عمقا؟ وإذا كان بريتون قد عوّل كثيرًا على "الكتابة التلقائية" فلأنها بدت له مصدرا أوليا للتعبير عن مثل هذه الهيروغليفيات المقدسة والقادرة على أن تفرض نفسها بقوة الوهم الذاتي. وقبل الإقدام على أية تفسيرات لنتاج هذه الكتابة فإن خاصية قلب الحقيقة وقلقلتها إنما هو أمر لافت للنظر. إن "الكتابة التلقائية" تفضي مباشرة إلى تحويل الواقع كله إلى أوهام وخيالات، مثل أن


ماكس أرنست

ترى في قاع بحيرةٍ غرفةَ استقبال. وإنَّ الشطحات المتولدة عن الكتابة التلقائية، والهيام على غير هدى في الشوارع في رواية اندريه بريتون: "نادجا"، لاتفسَّر إلا بافتراض جو داخلي معيَّن تجد الروح فيه نفسها مهيأةً لاكتشاف الكينونة المحتجبة وراء الظواهر العادية. وهذه خصيصة من خصائص "الكتابة التلقائية" تجعلها تتعدى حدود النص الأدبي لتلتقي بالحياة ذاتها. إنها تثير تحولا في الحسّ الجمالي، ووفرة في الخيالات قد تمضي إلى نوع من الرؤى الكاشفة.. ولايجدر أن يقال عن كل من منهجَي "الكتابة التلقائية" و "المصادمة الموضوعية" إنه ذو أثر تشتيتي، لأن هذين المنهجين إذا كانا يفضيان إلى تفكيك البنيان المألوف للعالم، فذلك من أجل إعادة تركيبه وتشييده على أرضية أكثر تماسكا واستحواذا على الحقيقة.

وكثيرا مالايبدو هذا المظهر التركيبي في اللحظة التي يخوض فيها الإنسان التجربة الأوتوماتية. ومصداقاً على ذلك فإن أندريه بريتون عندما كتب قصيدته المسماة "ترونيسول" بدت له أول الأمر غير مفهومة. وهنا تَبينُ أهمية "القدرة السلبية" التي تكلمنا عنها، القدرة على المضي في رفض الحقيقة المألوفة، والوقوف موقف عدم التسليم بالظواهر العادية للأشياء، وبالتالي المضي في الإيمان بما ربما لايكون سوى وهم. وهو مايدعو إليه بريتون قائلاً : «إنه يجب المضيّ في تغريب الإحساس، وتطويع الإرادة كي تقودنا إلى عالم آخر معط أو قابل لأن يعطي، حيث يمكن أن تؤخذ الفأس على أنها شمس غاربة» وليس هذا «التوهم الاختياري» بممكن للكتابة التلقائية فحسب، بل إن فن التصوير أيضاً يمكن أن يوصل إلى ذلك. ولنذكر قول ليوناردو دافنشي في هذا المقام: " بأنه ليس مستحقًا الازدراء، في نظري ، أن تكون قد وقفت معجبا ببعض البقع على حائط، أو ببعض الرماد في محرقة، أو ببعض السحب، أو بمياه جارية في جدول رقراق . ولو أنك تأملتها بأناة فسوف تكتشف ابتكارات جديرة بالإعجاب حقا، ويمكن لعبقرية الفنان أن تستشف منها مايصلح للإيحاء بمعارك بين الحيوان، أو الشياطين أو غير ذلك من الرؤى الخرافية التي ستجلب له المجد والتقدير".

ويشير ماكس أرنست إلى تجربة مماثلة مر بها بدوره في أعماله التصويرية، ويقرر أنه كان على الدوام يكبح جماح الفعل الإيجابي في تشييد لوحاته، حتى يوسع بذلك من الفرصة أمام قدراته الإيهامية والهلوسية في تسيير العمل الفني .

ولكن الأمر لايقتصر على دافنشي وأرنست فحسب، بل قد امتد إلى الشاعر القصاص الأمريكي إدجار آلن بو أيضًا. وفي قصته "بيرنيس" يتكلم بو عن الحالة التي أصابت بطله، ويصفها بأنها حساسية زائدة في القدرات الروحية رتبت إيقاظ صلاحية وساطة دفينة جعلته يغوص في تأمل أكثر الأشياء اعتيادًا في العالم المألوف، فيبقى بطل القصة الشاب مثلا مستغرقا الساعات الطوال في يوم من أيام الصيف يتأمل ظلاً غريب الشأن يتمدد متواريا على البساط أو على الأرضية الخشبية، هذا المشهد بادي البراءة، ولكن الشاعر اتخذه تُكَأَةً للغوص في عالم من الحلم والوهم عن طريق سلسلة من التداعيات في الصور والذكريات والمعاني، قريبة من نتاج التلقائيات الذاتية والموضوعية.

وليس الأمر قاصرا على فنان مثل دافنشي أو أديب مثل بو ، بل إن عالمًا مثل جيمس وات يحكي أنه كان يجلس في عتمة غرفته يتأمل المستقبل معجبا، من خلال الآلة البخارية التي عكف على اختراعها.

حقًا ، إن ماليس موجودًا الآن سيصبح له وجود في المستقبل، والسريالية أيضاً بحسب تعريف بريتون "هي ماسيكون"، ولهذا كانت تجربة الإبداع الأدبي والفني رحلة إلى المستقبل. ولهذا أيضاً كانت هذه الرحلة محاطة بما قد يعتبره القارىء العادي غموضًا وغرابة.

ذكرى شاعر الأطلال
ومرت في صمت حزين

إبراهيم ناجي.. واحدٌ من الأصوات الشعرية العذبة في قيثارة الشعر العربيّ الحديث، وليس ديوان ناجي هو الأثر الفنّي الوحيد الذي خلّفه، وكذلك ليست القصص القصيرة، والكتابات النفسية، وبعض الكتابات النقدية، هي كل ما خلّف ناجي.. لكن حياة ناجي نفسه (قصيدة) درامية حزينة.



د. طه وادي

فقد عاش عمره محروماً منذ الطفولة من حنان الأم. ثم قُدّر له أن يدرس غير ما يهوى، فقد أحبّ الأدب، لكن فرضت عليه الظروف أن يدرس الطب. وتزوّج ناجي وأنجب ثلاث بنات، لكن البيت والأسرة لم يحققا له ما كان يشتاق إليه من حنان عاطفي، ودفء (رومانسي). فظل طوال عمره - الإنساني والفني - يبحث عن الحب في دنيا «هجير كلها». وأخيراً، كان ناجي معذباً بين عيادات الطب والأطباء، ومجالس الشعر والشعراء؛ ومن هنا ابتعد عنه الأطباء بحجة أنه شاعر، وتجنبه بعض الأدباء بدعوى أنه طبيب. وهذا ما دفعه إلى أن يقول:

والناس تسأل والهواجس جمّة
طب وشعر كيف يتفقان ؟
الشعر مرحمة النفوس وسرّه
هبة السماء ومنحة الديّان
والطب مرحمة النفوس ونبعه
من ذلك الفيض العلي الشان
ومن الغمام ومن معين خلفه
يجدان إلهاماً ويستقيان

وقد مات ناجي بعد أن عانى عذاباته، ثم إحالته للتقاعد دون السن القانوني - في ٢٥ آذار (مارس) سنة ١٩٥٣م. وإذا كانت ذكراه قد مرت في صمت هذا العام، فإني أُذَكِّر بها - ولعل في الذكرى بعض ما ينفع المؤمنين - حتى نحتفي بذكرى رحيله في الأعوام القادمة، بما ينبغي له من التقدير والبحث؛ لأن الفرد العظيم، ابن لأمته جمعاء؛ وناجي - بكل المعايير - واحدٌ من الشعراء النابهين، الذين أثروا ديوان الشعر العربي الحديث. وقد تأثر به معظم شعراء (الرومانسية) الذين ظهروا حوله، أو من بعده في الأقطار العربية كافة.

سيرة ترسم صورة

تُشكِّل سيرة الأديب مفتاحاً ضرورياً لفهم الصورة الفنية لتراثه الأدبي. إذ ليس هناك نتاج أدبي بلا موقف، وسيرة الأديب هي التي تشكل ما يسمّى في أدبيات النقد المعاصر: «سياق الموقف»؛ لأن الأدب لا يأتي من فراغ، وإنما ردّ فعل لما يحدث في حياة الأديب، وفي واقعه. كما أنه من المعروف «أن لكل مقام مقالاً»، فهذه المقولة التي نادى بها البلاغيون والنقاد العرب القدماء، لا تزال سارية المفعول - نقدياً - حتى اليوم.

وُلد إبراهيم ناجي في ٣١ (كانون الأول) ديسمبر سنة ١٨٩٨م، أي إنه عاش في القرن الماضي (يوماً وعاماً) فقط، وكان أبوه أحمد ناجي شخصية مثقفة ثقافة أدبية رفيعة، فقد كان يمتلك مكتبة زاخرة، ويتقن الإنجليزية. ويبدو أنه تفرغ لرعاية ولده، الذي فقد الأم وهو في المهد صبياً، لذلك يقول ناجي عن والده إنه «أستاذه الأول» الذي عرّفه بالأدب، وقرأ معه الشعر،

وعلّمه الكثير، فكأنه صاحبُ الفضل الأول في إشعال جذوة الفنّ في نفس ولده.

وقد ولد ناجي في حيّ «شبرا».. ولنا أن نتخيل شبرا مصر في بداية هذا القرن، أي منذ حوالي تسعين سنة، إذ لم تكن المنطقة الآهلة بالسكان فيها آنذاك تتجاوز مسافة كيلو متر، أو تزيد قليلاً على منطقة «باب الحديد»، وكانت البيوت فيها تعدّ على الأصابع، أي إنها كانت ضاحية هادئة جميلة من ضواحي القاهرة، وكانت آنذاك - أيضاً - ضاحية ريفية، تعيش في أحضان الطبيعة الهادئة، والحدائق الجميلة، والمزارع الخضراء، أي إنها كانت بحقّ كما أسماها ناجي في أحد مؤلفاته «مدينة الأحلام».

وفي سنة ١٩٠٤م التحق الصبيّ بمدرسة من مدارس رياض الأطفال، ثم دخل مدرسة باب الشعرية الابتدائية في الفترة من ١٩٠٧إلى ١٩١١م. وكان أبوه - إلى جوار الدِّراسة - يقرأ له كثيراً من القصص والروايات ودواوين الشعر، ويشرح له المغزى والدلالة، ويشير إلى مواطن الجمال في النصوص التي يقرؤها، وتلك عادة لا نكاد نمارسها نحن الآباء المعاصرين مع أبنائنا كثيراً. وفي هذه المرحلة وما تلاها - مرحلة التعليم الثانوي في مدرسة التوفيقية الثانوية بالقاهرة (١٩١١ - ١٩١٧م) - كان الصبي يقرأ كثيراً لتشارلز ديكنز، وكونان دويل، وهارجارد، والشريف الرضي، والمتنبي، وأحمد شوقي، ومطران خليل مطران، وغيرهم.

بداية الانشطار

أول فَصْل في مأساة المحنة الخاصة بانشطار الذات في شخصية ناجي، كان توجهه لدراسة الطب بالرغم من ميوله الأدبية الواضحة، بل إنه كتب وهو في الثالثة عشرة من عمره مقطوعة صغيرة - مثبتة في ديوانه المنشور حالياً - لاتكاد تختلف كثيراً عن مجمل تجربته من حيث الموقف والأداة، وهو يقول في هذه المقطوعة، التي تعبّر عن آمال الصبا:

هل أنتِ سامعة أنيني
يا غايةَ القلبِ الحزينِ
يا قِبلَةَ الحبِّ الخفي
وكعبة الأمل الدفين
إني ذكرتُك باكيًا
والأفق مغبرُّ الجبين
والشمس تبدو وهي تغربُ
شبه دامعة العيـون
أمسيت أرقبها على
صخرٍ، وموجُ البحر دُوني
والبحر مجنون العُباب
يهيجُ ثائره جُنوني
ورضاكِ أنتِ وقايتي
فإذا غضبتِ فمن يَقيني؟

لقد دخل ناجي كلية الطبّ؛ لأن أستاذا للرياضيات من سورية، كان معجباً بذكائه، ووجهه إلى دراسة العلوم والرياضة. وهو يعترف بهذا قائلاً: «لقد كان تأثير هذا المعلم في مستقبلي كثيراً، فقد غيّرت التحاقي بالقسم الأدبي، والتحقت بالقسم العلمي، ولتقدّمي وتفوقي دخلتُ كلية الطب».

وهذه الفترة - فترة كلية الطبّ (١٩١٦ - ١٩٢٣م) - تمثل الفصل الأول في حياة ناجي المأساوية حيث بدأت تتشكل مرحلة «انشطار الذات» و«ازدواج الشخصية»؛ لأن ناجي كان يؤدي دورين - على المستويات كافة - في الحياة والعاطفة. فقد بدأ بعد ذلك يمارس مهنة الطب وهو يزاول هواية الأدب. ثم تزوّج،



ابراهيم ناجي شاعر الرقة العاطفية..

ولكن الزوجة لم تملأ الفراغ العاطفي في حياته. وحين صُدم من رأي بعض النقاد أمثال طه حُسين وعباس محمود العقاد في ديوانه الأول «وراء الغمام» الذي صدر سنة ١٩٣٤م، ترك الشعر عامداً، وبدأ يكتب القصص والمقالات، ويشرف على بعض المجلات.

كان إبراهيم ناجي «موظفاً» يعيش على ما يكاد يكفي الضروريات.. و«طبيباً» خاصاً، يُعالج الفقراء لا يريد منهم جزاء ولا شكوراً، وكل هذا - بالإضافة إلى الأرق والقلق والإفراط في التدخين - جعله مهموماً يبحث في الكون كله عن «ثقب من رجاء» فلا يجد، لذلك يقول:

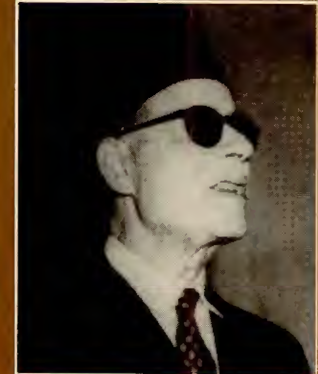
ألمح الدنيا بعيني سئم
وأرى حولي أشباح الملل
راقصات فوق أشلاء الهوى
معولات فوق أجداث الأمل

ومن العجيب أن ناجي وهو ينشد حباً روحياً، تعرّض لأكثر من تجربة، وعرف أكثر من امرأة. لكنه فيما يبدو - لفرط طيبته أو سذاجته أو خيبته - لم يُوفّق مع واحدة منهن،

ذكرى شاعر الأطلال

ولم يُكْمل معهن الرواية إلى أن تتم فصولاً، ومن العجيب أنه رغم الهجر والغدر، ظل وفياً مُلتزما، بل إنه حين يتذكر المأساة لينظمها شعراً جميلاً وفناً خالداً.. لم يحاول ألبتة أن يسيء إلى الذكرى أو إلى المحبوبة، من هنا كان يرى أن القدر هو سببُ مأساة البشر، ويرى أن القدر إن حَرَم مرة، فربّما يسمح أخرى باللقاء والهناء.. وهذا ما يعبّر عنه في قصيدة الأطلال:

يا حبيبي كل شيء بقضاء
ما بأيدينا خلقنا تعساء
ربّما تجمعنا أقدارنا
ذات يوم بعدما عزَّ اللقاء
فإذا أنكر خلٌّ خلّه
وتلاقينا لقاء الغرباء
ومضى كلٌّ إلى غايته
لا تقل شئنا، وقل: الحظ شاء


طه حسين

تراث ناجي الشعري

خلّف ناجي في مجال الشعر ديواناً من أربعة أجزاء، وهذه الأجزاء هي: وراء الغمام (١٩٣٤م)، ليالي القاهرة (١٩٤٤م)، في معبد الليل (١٩٤٦م)، الطائر الجريح (١٩٥٣م) وهذا الديوان الأخير يعدّ قصيدة واحدة، هي - في جوهرها - أغنية حزينة لحبيب رحل ومحبوب مضى وجمال تحوّل، فظل طوال عمره - الفني - يُبدع الشعر بإلهامه، ويشكل تجربته في انتظار عودته:

ولما لم تفُز بلقاك عيني
لمحتُك آتيًا بضمير قلبي
فأسمع وقع أقدام دوانٍ
وأنصتُ مصغيًا لخفيف ثوب
وأخلق مثل ما أهوى خيالاً
وأستدني الأماني والحبيبا
وأبدع مثل ما أهوى حديثًا
لناء صار من قلبي قريبًا

تنويعات على لحن واحد

الوفاء للحبّ والحبيبة - إذن - هو السمة المسيطرة على حبّ ناجي وشعره. وهكذا، فإن شعره كله يبدو متسقاً في إطاره ومكتملاً في دائرته.

إن ديوان ناجي كله يبدو تنويعات على لحنٍ واحد، وعناصر تنطوي تحت بنية متآلفة، تعكس رؤية روحية للحبّ، تستعذب المناجاة - حتى على البُعد -، وتتمسك بالمحبوب - بالرغم من الصدّ والهجر -.

إن ديوان ناجي كله تتشابه فيه - من حيث المضمون - معظم القصائد، وتتآزر معظم المعاني، ولهذا يتميّز شعره بوحدة فنية، توحّد بين كل نصوص تراثه، وهذه الوحدة هي التي تقرّبه أيضاً من وجدان قرائه، وتجعل شعره مثالاً رشيقاً للحب العاطفي الحالم، والأدب المثالي، الذي ينشدُ عالم الروح وسعادة القلب، موقنا أن: «وعشق الروح مالوش آخر لكن عشق الجسد فاني» كما تقول إحدى الأغنيات.. ومن هنا يرسم للحبيبة هذه الصورة الرشيقة:

أين من عيني حبيب ساحرٌ
فيه نبل وجلال وحياء
واثق الخطوة يمشي ملكًا
ظالم الحسن شهي الكبرياء
عَبِق السحر كأنفاس الربى
ساهم الطرف كأحلام المساء
مشرق الطلعة في منطقه
لغة النور وتعبير السماء

ملحمة السراب

إن حياة ناجي على كل المستويات الإنسانية كانت ملحمة سراب - كما يرى هو نفسه في إحدى قصائده [راجع قصيدة بهذا العنوان في ديوان «ليالي القاهرة» ص١١٨] -، فقد كان غير موفق في عمله، ولم يكن سعيداً في بيته، كما أن معظم من أحبّهن وأخلص لهن غدرن به وهجرنه هجراً غير جميل، من هنا ظل يدعو.. ولا حياة لمن ينادي:

أيا مصرُ ما فيك العشية سامرٌ
ولا فيك من مُصغٍ لشاعرك الفردِ
أهاجرتي طال النَّوى فارحمي الذي
تركت بديدَ الشمل منتثر العقدِ
فقدتك فقدان الربيع وطيبه
وَعدّت إلى الإعياء والسُّقم والوجدِ
وليس الذي ضيَّعتُ فيك بهيّن
ولا أنتِ في الغيّاب هينة الفقدِ

وهكذا مات شاعرنا يائساً من الحب والحياة في ٢٥ (آذار) مارس سنة ١٩٥٣م، ولسانُ حاله يقول: «وداعاً أيها الشعر.. وداعاً أيها الفن.. وداعا أيها الفكر.. وداعاً.. ودمعة مُرّة وابتسامة أمرّ»...

مشروعية الأدب في الإسلام
ودوره بخصائصه المميزة في معركة الدعوة

محمد مراح بن عبدالكريم

كُثْرٌ هم أولئك الذين يَهُولُهُم - وهم يقرؤون سورة الشعراء، أو ينظرون في بعض كتب الحديث - ما ذمّ الله به الشعر والشعراء، فيؤدي بهم هذا المسلك في الفهم إلى التطرّف، فإمّا أن يلعنوا الشعر والشعراء، وإمّا أن ينتهوا إلى أنّ الدّين شيء والشعر شيء آخر. فما للدين والشعر؟ وفي كلا الفهمين قصور عن إدراك حقيقة الدين وحقيقة موقفه من الشعر خاصة والفن عامة، فلو دققنا النظر في النصوص المتعلقة بهذه المسألة لانجلي لنا وجه الحق. لذا رأينا أن نقف بعض الوقت عند توجيه آية الشعراء، وموقف الإسلام من الشعر خاصة - لأنه الفنّ الغالب على أهل الجزيرة وقت البعثة المحمدية - والفنّ عامة، حتى ننطلق في هذا النشاط الإنساني الرحب الأرجاء من أساس شرعيّ متين نأمن حين نبدع ونبتكر فيه إلى أننا نستند إلى حجّة بالغة.

يقول تعالى: ﴿والشعراءُ يتّبِعُهُمْ الغَاوُونَ. ألَمْ تَرَ أنَّهُمْ في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وأنَّهُمْ يَقُـولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُون. إلاَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات، وَذَكَرُوا الله كَثِيرا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعد مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنقَلَب يَنْقَلِبُون﴾ (الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧).

يقـول صاحب «المغـنى» ردّا على الذين يعترضـون على الشعـر بهذه الآية: «أمّا الآيـة فالمراد بها من أسـرف وكذب بدليل وصفـه لهم بقوله ﴿ألم تَرَ أنّهم في كُلِّ وَادٍ يَهِيـمُون. وأنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُون﴾ ثم استثنى المؤمنين فقال: ﴿إلاّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَـمِلُوا الصَّالِحَات وَذَكَـرُوا الله كَثِيرا﴾. ولأن الغالب على الشـعراء قلّة الدّين والكذب وقـذف المحصنات وهجاء الأبرياء، سيما من كان في ابتداء الإسلام ممن يهجو المسلمين، ويهـجـو النبي صلى الله عـليه وسلم ويعـيب الإسـلام ويمدح الكفـار. فوقع الذم على الأغلب واستثنى منهج من لا يفعل الخصال المذمومة فالآية دليل على إباحته ومدح أهله المتصفين بالصفات الجميلة»(١).

وقد صدّر ابن قـدامة الفصل الذي بيّن فيـه حكم الشعر بقوله: «فـصل، والشعـر كالكلام حـسنه كحسنه وقـبيـحه كقبيحـه، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن من الشعر لحكما»(٢).

فآية الشعراء كمـا قال الأستـاذ سيد قطب - رحـمه الله تعالى - وردت «في مـعرض الكلام عـمّا اتّهم به المشـركون مـحمّـدا صلى الله عليه وسـلم من أنّه كاهن تارة ومـجنون أخرى، وشـاعـر ثالثـة وهكذا؛ فـجـاءت هذه الآية توضّح حقيقة كـلا الشخصين: حقيقة رجل النبوة، وحقيقة رجل الأدب والشعر، وخاصة على النحو الذي عرف عليه الأدب في تلك الـفـتـرة، وفي تلك البـيـئـة، فلكل مـن الرجلين منهجه»(٣).

لذا فلا مناص من توجيه الآية توجيهـا صحيحا كما أراد الحق تبـارك وتعالى، حـتى ينسـجم فهـمنا لهـا مع الفطرة، وحـتـى لا يصطدم - هذا الفـهـم - مع الحـقـائق والوقـائع التاريخية.

«صحيح أن سيـاق الآيات يوحي بأنّ الشعـراء الملعونين هم الأصل، والمسـتثنون هم القـلة، ولكن ذلك من ناحـيـة كـان يصدق علـى الشعـراء الموجـودين في الجزيـرة العربيـة يومئذ - وقد يصدق على كـثير من الشعراء في كل وقت -، ولكنه من ناحـية أخـرى لا يلعن الشعـر كشعـر، ولا يطلق اللعنة على الشعراء عامة؛ وإنما يَصِم سلوكا نفسيا معينا يتبعه

أولئك الشعراء، فمن خلص منه فلا تثريب عليه ولا على فنّه الذي يعبّر فيه عن مفاهيمه الإيمانية. الملعون - إذن - هو الكفر والمطلوب هو الإيمان. ولا على المؤمنين - حين يكونون شعراء - أن يقولوا الشعر في حدود تصورهم الإيماني ومفاهيمهم الإيمانية، وهم آمنون من اللعنة بل هم مثابون على قولهم بما ينال المؤمنين من الثواب»(٤).

أعتقد - والله أعلم - أن الإسلام أخذ من الشعر موقعه الحذر هذا - بوصف الشعر الفن الغالب آنئذ على جزيرة العرب - لما يشارك به الشعر من صنع للرأي العام، وماله من أثر بالغ في النفس العربية الشاعرة التي تثور لبيت وتسكن لآخر، ثم هو من أبلغ الأدوات في تشكيل التصورات، وما يترتب عنها من سلوك (سلبا أو إيجابا) ولا تزال تلك وظيفة الفن في الأمم الشاعرة، فقد تفعل رواية أو مقطوعة موسيقية أو قصيدة وغيرها من وسائل التعبير الفني ما يعجز عن فعله التخطيط الطويل المتأنّي لبلوغ غاية من الغايات أو تشكيل تصوّر ما حول مسألة ما.

لذا نرى الأمم ذات القدم الراسخة في الحضارة والمدنية تُحلُّ الفن محلا مرموقا وتحرص على أن يكون إفرازا طبيعيا لما بلغته من ازدهار وتقدم وقوة، وربما لم يَتَوَانَ بعضها عن توجيهه الوجهة التي تخدم توجهها الأيديولوجي. ثم إنّ الفن على وجه من وجوه حقيقته تعبير عن إحساس الإنسان بالجمال كما يجده في حسه وشعوره، والإسلام لم يأت لمصادمة الفطرة بل جاءت تعاليمه لموافقتها من جهة ولتهذيبها ممّا يمكن أن يعلق بها من أوضار حتى تتسق والمنهج الحق من جهة أخرى.

وقد وردت الأخبار في كتب التاريخ والسيَر عما قام به الشاعر المسلم في معركة الإسلام مع الجاهلية، نقتصر منها على ذكر ما ورد من أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يضع لحسان منبرا يقوم عليه فيهجو من هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يقول له: «اهجهم وروح القدس معك»، والأخبار كثيرة في هذا الباب يمكن تقصّيها في مظانّها، ممّا يكوّن للقارئ تصوراً عامّا عن الدور الرائد الذي قام به الشعر في معركة الإسلام مع الجاهلية(*).

مفهوم الأدب الإسلامي

إن للإسلام تصوراً عامّا يحكم اتجاه المجتمع المسلم، يصدر عنه أفراد هذا المجتمع في عقائدهم، في شعائرهم التعبدية، في معاملاتهم، في نشاطهم الفكري والفني، بل إن الإسلام يطلب من معتنقيه أن يتفاعلوا معه شعوريا وسلوكيا بعد أن يكون تصوره للكون والحياة والإنسان قد اتضح في العقول وتمكّن من النفوس.

مشروعية الأدب في الإسلام ودوره بخصائصه المميزة في معركة الدعوة

لذا فلا غرابة أن نحدّد مفهوما إسلاميا للأدب والفن عموما، يصدر عن شرعة الإسلام في الكون والحياة والإنسان، وهو فيما نحسب من أمارات تميُّز المجتمع المسلم وحضارة الإسلام التي يفترض فيها أن تكون الرائدة السائسة لغيرها لما خُوِّلته من شهادة على الناس نتيجة دورها الهادي في هذه الأرض ولعالمية رسالتها.

يقول الاستاذ سيد قطب - رحمه الله تعالى - موضحا هذه الحقيقة: «... الإسلام تصور معين للحياة، تنبثق منه قيم خاصة لها، فمن الطبيعي - إذن - أن يكون التعبير عن هذه القيم، أو عن وقعها في نفس الفنان ذا لون خاص، وأهم خاصية للإسلام أنه عقيدة ضخمة جادة فاعلة خالقة منشئة، تملأ فراغ النفس والحياة، وتستنفد الطاقة البشرية في الشعور والعمل، وفي الوجدان والحركة فلا تبقي فيها فراغا للقلق والحيرة ولا للتأمل الضائع الذي لا ينشئ سوى الصور والتأملات(٥).

ويعرف الأستاذ محمد قطب الأدب الاسلامي بقوله: «إنه التعبير الجميل عن حقائق الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود»(٦) والحق أننا لو أدركنا المفهوم الحقيقي لكلمة الدين لوجدناه أرحب من تصوّرنا القاصر المتأثر بتصورات لا صلة لها بالمفهوم القرآني للدين(*).

فهذا الدين «يرتكز بالدرجة الأولى على أعماق التجربة النفسية والوجدانية المنبثقة عن هذا التصور الإسلامي للوجود والعالم، فكل عنصر من عناصر الكون والحياة، وكل قيمة من قيمها، تحرّك الفنان المسلم سلبا وإيجابا، تهزّه من الأعماق، وتدفعه إلى التعبير عن تجربته وإلى القيام بمحاولات فنية جادة من أجل تعميق وإغناء التجربة الشعورية، وتفتح حسّه الجمالي على عوالم أعمق، وأبعد، لا تقف مشلولة أمام حدود الواقع الظاهر للعيان»(٧).

ولتوضيح الرؤية أكثر يقول الاستاذ محمد قطب: «الفن الإسلامي ليس بالضرورة هو الفن الذي يتحدّث عن الإسلام، وهو على وجه اليقين ليس الوعظ المباشر والحثّ على اتباع الفضائل، وليس هو كذلك حقائق العقيدة المجردة، مبلورة في صورة فلسفية فليس هذا أو ذاك فنّا على الإطلاق، إنما هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود، هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان، هو الفن الذي يهيئ اللّقاء الكامل بين «الجمال» و«الحق» فالجمال حقيقة في هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود»(٨).

لكن قد يرد اعتراض مفاده: أنه لا يعقل أن يكون المسلمون قد عاشوا الإسلام (عقيدة وشريعة) على مرّ القرون الماضية وبلغ فيه الكثير منهم درجات من التقوى والفهم والعمل، قد نفتقدها اليوم، ومع هذا كله لم يتفطّنوا إلى هذا المفهوم الذي تدعون، وبالصورة التي ترسمون وتقدمون.

فنجيب: هذا الاعتراض له وجاهته دون ريب، إلا أن دوافع الدهشة تزول حين نقول: بأنّ هذا المفهوم المطروح على هذا النّحو ما هو إلاّ جزء من إعادة صياغة جديدة للفكر الإسلامي في هذا العصر، هذه الصياغة التي جاءت ردّ فعل للمواجهة الفكرية والحضارية التي يعيشها الإسلام بعد فترة الجمود والركود والانحطاط التي عاشها الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية.

ثم إنّ الخصائص الحضارية التي تميز هذا العصر وما تفتق عنه ذهن الإنسان في عالم الأدب والفن حَرِيّة بأن تجعلنا - نحن المسلمين - نتفرّد بصياغة خاصة لمنهج أدبي ونقدي إسلاميين تغطّي كلّ مجالات الفن والأدب التي تتعارض - بوصفها فنّا وأدبا - مع شرعة الإسلام.

ونحن نقابل هذه الدهشة بدهشة أخرى: إذ كيف نستسيغ أن يكون للإسلام منهجه الخاص في الحكم، وحينما نأتي للأدب والفن تتخلّف هذه الخصوصية وهذا التفرد؟ ثم إنّ تراثنا الأدبي والفني عموما يوزن بميزان الإسلام ويضبط بالضوابط الشرعية، شأنه في ذلك شأن التراث الذي بين أيدينا، وهذا ما طرحه بعض المنظّرين المحدثين للأدب الإسلامي ضمن «قراءة اسلامية لتاريخ الأدب العربي والإسلامي» في إطار النظرية النقدية الإسلامية.

وقبل أن ننتقل إلى العنصر الموالي نشير إشارة خفيفة إلى كيفية تبلور هذا المفهوم، فالذي تبلور على يديه على هذا النحو هو الأستاذ سيد قطب؛ إذ كتب سنة ١٩٥٢ م عدة مقالات تحت عنوان «منهج للأدب»، ونشرت إحدى هذه

المقالات ضمن رسالة «في التاريخ فكرة ومنهاج». أما الذي وسع المفهوم وأعطاه أبعاده الفنية المنبثقة من التصور الإسلامي فهو أخوه الاستاذ محمد قطب، وذلك في كتابه «منهج الفن الإسلامي» الذي صدر في بداية الستينيات، وتوالت بعد ذلك الإصدارات في هذا المجال فكتب الدكتور نجيب الكيلاني كتابه «الإسلامية والمذاهب الأدبية»، وهكذا كانت بداية الانطلاقة وتوضيح الرؤية.

بعض خصائص الأدب الإسلامي

ما دمنا قد عرضنا مفهوما للأدب مغايرا لغيره من المفاهيم، يقتضينا هذا الطرح، وهذا العرض أن نبحث في ثنايا هذه النظرية وفي نتاجها - على قلته - عن خصائصه العامة، حتى إذا وقعنا على نص أدبي أمكننا أن نحكم بأنه استوفى خصائص الأدب الإسلامي كلها أو يلتقي معه في بعضها ويفترق عنه في بعضها الآخر.

١ - الأدب الإسلامي أدب موجه: الأديب في المجتمع الإسلامي له دوره الريادي، لما لأداته الفنية من أثر خطير حساس في التعبير عن أوضاع مجتمعه، والكشف عن مكنونات النفوس، ورسم آفاق المستقبل، وإزاحة الستر عن مناحي الضعف والخلل العقدي أو الخلقي أو السياسي التي لا يخلو منها تجمع إنساني، لكل هذا فالأديب المسلم له أكثر من وظيفة إذا قسناها بالوظائف الأخرى التي يشغلها غيره من أفراد المجتمع، فهو جندي حارس لحمى الإسلام، وعين يقظة لا يحركها النعاس ولا يأخذها الوسن، وهو محتسب يذرع أرجاء المجتمع يكشف عن الأخطاء ويذكّر بالعلاج الشافي، وهو طبيب نفساني يستبطن العلل ويخبر اختلال الأمزجة ليدل على العلاج. لهذا وغيره كان التوجيه أمرا ضروريا للأديب المسلم وللأدب الإسلامي وذلك «بحكم أنّ الإسلام حركة تطوير مستمر للحياة، فهو لا يرضى بالواقع في لحظة أو جيل ولا يبرره أو يزينه لمجرد أنه واقع، فمهمته الرئيسية هي تغيير هذا الواقع وتحسينه والإيحاء الدائم بالحركة الخالقة المنشئة لصور متجددة من الحياة»(٩).

المهم أن نقرر - كما يقول الاستاذ سيد قطب -: «أن الأدب أو الفن الإسلامي أدب أو فن موجه، موجه بطبيعة التصور الإسلامي للحياة وارتباطات الكائن البشري فيها، وموجه بطبيعة الفكرة الإسلامية ذاتها وهي طبيعة حركية دافعة للإنشاء والإبداع وللترقي والارتفاع»(١٠).

ولا يذهبنّ بك التفكير إلى أنّ هذا التوجيه يعني القسر والإجبار من الخارج؛ أي ممارسة الضغط الأيديولوجي كما يفعل أصحاب التفسير المادي للتاريخ، إنما الذي نعنيه «أن نكيّف النفس البشرية بالتصوّر الإسلامي للحياة، وهو وحده سيلهمها صورا من الفنون غير التي يلهمها إياها التصور المادي أو أي تصوّر آخر، لأن التعبير الفني لا يخرج عن كونه تعبيراً عن النفس كتعبيرها بالصلاة أو السلوك في الواقع والحياة»(١١).

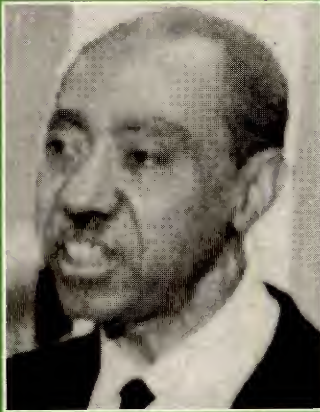
٢ - النظرة الإيجابية: الأدب المنبثق عن عقيدة الإسلام، عن شرعته الواضحة في الكون والحياة لا يمكن أن يكون سلبيا بشرط أن يعيش الأديب المسلم تجاربه بحسّه الإسلامي، إذا استوفى هذا الشرط الذي يستغرق تجاربه عفويا لا تصنعا، فإن نتاجه الأدبي لن تحكمه النظرة السلبية حتى في أدق الحالات حرجا. وله في ذلك خير متأسّى به، سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كانت قوى الشرك منه على مرمى خطوة ومع ذلك ظلّ قلبه ساكنا، لا يزايله وقاره وسكونه، ولا تفارقه رباطة جأشه، يطمئن أبا بكر «ما بالك باثنين الله ثالثهما؟» وقد سجّل الذكر الحكيم هذا الموقف الجليل في محكم الذكر، صورة متألقة، تندق دون بلوغها الأعناق، وتظلّ الأبصار تتشوّق إليها تقتبس من أنوارها الوضيئة ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾. (سورة التوبة: ٤٠).

«فالحياة في الأدب الإسلامي مشرقة، الكون فيها جميل حيّ متناسق متعاطف مع الإنسان، والمخلوقات كلّها أصدقاء للإنسان، والإنسان مكرم ذو إرادة وطاقة، والغاية واضحة، والحياة ممتدة، هذا كله يمنح الإنسان قوة دافعة، واستبشارا بالحياة، وإقبالا على العمل والنتاج، على النقيض من النظرات السود التي ترى في الحياة لعنة الوجود أو تراها خالية من الغاية تُملأ بانتهاب اللذات»(١٢).

٣ - الشمولية: وهي خصيصة من خصائص التصور الإسلامي والتشريع الإسلامي، ومطلب إسلامي من الإنسان المسلم، أي إنّها إحدى الخصائص الرئيسة التي تميّز الانسان المسلم في اعتقاده، في نظرته للكون والحياة، في تفاعله مع شريعة ربّه، فاقتضى ذلك كله أن يأتي العمل المثاليّ الذي يحلّ من المجتمع محلّ القدوة، شموليا، فيه من الكمال الإنساني أوفر حظّ، والعمل الأدبي الإسلامي أحد نشاطات الإنسان التي يتجلّى فيها هذا الشمول إذ يمثل «أوسع نظرة جمالية متفتحة على الإنسان والآفاق، لأن نظرة (الإسلامي) في جوهرها نظرة كونية، ولأن الإنسان المسلم إنسان كوني لا تحدّه حدود الإقليمية أو العنصرية أو حتى الأرضية، إنه يهفو لأن ينسجم ويتفاعل مع هذا الكون الذي هو بضعة منه، أن يتناغم معه في حركة دائبة هدفها التطور الدائم المتجه إلى الله العظيم»(١٣).

٤ - التفاؤل والبناء: الإسلام دين متفائل إلى أبعد حدّ، لأنه ينكر السلبية في سلوك الإنسان وفكره ومعتقده، وهو يقوم بمهمة الخلافة في الأرض، لذا فهو يشجبها - أي السلبية - لكنه لا يشتطّ في التفاؤل حتى يحول الحياة إلى نعيم لا ضنك فيها ولا كدر.

فالتوازن خصيصة من خصائص الإسلام، والذي يصطبغ تصوره بهذه الخصيصة لا يمكن - في حالاته السلوكية والفكرية السوية - أن يغلب عليه التفاؤل حتى ينسى الآلام والبقع السود التي تغطي مساحات شاسعة من واقع الإنسان والحياة، إنما التفاؤل لديه نظرة بناءة لأنها «لا تعتبر الشر عنصر أصيلا، وبناءة لأنها لا تؤمن بنزعة الهدم الكلي لمجرد


سيد قطب

الهدم والانتقام، بل تؤمن بالعلاج، والإصلاح، والمحافظة على كل عنصر. إن الوضع المقلوب يجب أن يصلح، وبثّ معنى إمكانية الإصلاح في النفوس له من النفع والإيجابية ما يقضي على كثير من نزعات السلبية والتهور واليأس. وما دام الشر مرضا فقد يكون من السهل القضاء على جرثومته»(١٤).

٥ - بين المحلية والعالمية: الأدب الإسلامي أدب عالمي، ما في ذلك شك إذا رفع لواءه أديب له من القدرة الإبداعية ما يرقى به إلى مستوى العالمية التي هي مكانه الطبيعي، الذي يجب أن يكون فيه، لعالمية مبادئه وشمولها بُعْدَي (الزمان والمكان)، ولمخاطبته فطرة الإنسان بوصفه الإنسان، دون أن يفرغ خطابه من الإيحاءات المستمدة من الوحي الإلهي، أي من شرعة الإسلام ومذهبيته الشاملة للكون والحياة والإنسان، فهذا الشمول والعموم يجعل الإسلامية - كما

مشروعية الأدب في الإسلام

ودوره بخصائصه المميزة في معركة الدعوة

يقول الدكتور نجيب الكيلاني: «أقرب إلى الكمال وأدعى إلى الاتباع أو الاعتناق، إن عدم ارتباطها ببقعة من الأرض جعلها ملكا للناس أجمعين، وعدم تشبثها بالنفوس المريضة المنحرفة وهبها صفة التعميم والمواءمة لبني البشر كلهم، وهي في نفس الوقت لا تمانع من أن يحبّ الإنسان موطنه ويخلص له، لكنها تقف في وجهه إذا تحول مجرّد الحب إلى عصبية عمياء تصادم المثل العليا والمبادئ الدينية المؤكدة، وهي أيضا لا تعادي النفس الإنسانية ولا تحتقر نزواتها وتحطم أشواقها وآمالها، ولكنها تعضدها وتأخذ بيدها إلى الطريق السوي، محاولة أن تهذّب من حيوانيتها وتشذب من غرائزها»(١٥).

٦ ـ الجمال: لا نحسب أثرا فنيا خلوا من عنصر الجمال أهلاً لأن ينتمي لأسرة الأدب. فالجمال في الأدب عنصر أصيل وشرط أساس؛ إذ النفوس السوية ميالة للجمال تنساق وراءه مشدوهة بألقه وسحره، فلكل منا حظه من حب الجمال دون تقدير لنسب التفاوت بين أعلى درجات الاهتزاز أمام وهجه الساطع وأقل الدرجات استجابة لذاك السحر الخلاب، ولا نحسب نفسا فقدت الإحساس بالجمال والشعور به يمكن عدّها في عداد الأحياء، فأصحاب الحسّ المتبلّد والشعور المتحجر لا حظّ لهم من الحياة إلا كحظّ أدنى الجمادات والحيوانات لأنهم فقدوا عنصرا مهمًا من عناصرها، فالجمال ـ إذن ـ حبيب إلى الإسلام يوسع له بين رحابه مجالا فسيحا واسعا، بل إنّ مسحة الجمال تكسو الإسلام في عقائده وتشريعاته ومنهج دعوته ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ﴾. (سورة النحل ١٢٥). «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ: إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ» (سورة فصّلت: ٣٣). «إن الله جميل يحب الجمال» فما الحكمة إلا جمال تألّقت به النفس المؤمنة ففاضت آثاره على سلوك المؤمن، وما القول الحسن إلا جمال يكسو الكلمة على اختلاف وسائل أدائها (مقروءة أو مسموعة)، فهي وسيلة التواصل بين الأفراد يتسلل المسلم بواسطتها إلى القلوب، تحفها هالة من الحسن والجمال والرواء فتصيب من تلك القلوب مرماها، فهي ريّ عذب يُسكب على الأرض الموات فينعشها فإذا هي حدائق مزهرة غنّاء فواحة بأريج الزهور يفيء إلى ظلال أفنانها الباسقة كل قلب مكدود هدّه الضنى وأنهكه المشي في التيه والجري وراء السراب، فالجمال ـ إذن ـ عنصر أصيل في الإسلام موزعةٌ مقاديره على شُعَبِه، كل وحظّه المقسوم له منه، فليس بدعًا أن يظفر الأدب الإسلامي بنصيب منه، فلا نعجب لأمر هذا الأدب إن أبعد عن مملكته كلّ عمل أدبي يغفل ـ عن قصد أو غير قصد ـ الجمال، إذ إنه بذلك يفقد الجانب المتألق الذي يلقى به حظوة حين طَرْقه مجالس الأدب والأدباء. والجمال قبل هذا كله عنصر أصيل في نظام الكون ومظاهره، وفي النفس الإنسانية، فلا تخطئه العين الباصرة في ذلك النظام وفي تلك المظاهر، كما يعزّ وجود النفس التي لا تهتز له، والأدب الإسلاميّ أدب تفرزه النفس المسلمة وقد سرت أشعة الجمال في الحنايا دون أن تصطدم أو تحاول التصادم مع ذاك النظام الكوني.

٧ ـ الالتزام: قال الروائي الامريكي «نورمان ميللر»: «إن الالتزام هو بمنزلة طوق النجاة في خضمّ القيم المتصادمة في عالم اليوم صداما أفضى إلى الفوضى» وبعد أن وضح وجهة نظره حول الالتزام قال: «بهذا يمكننا أن نتعلم شيئا، أن نقترب من إمكانية الرؤية الشاملة»(١٦).

لا غرابة أن يكون هذا موقف كاتب وروائيّ غربي، فإدراكه لطبيعة العصر حدد لديه هذا المفهوم، إذ الصراع الذي تقوده الأيديولوجيات السائدة في الأرض فرضت على الإنسان المعاصر الذي يعيش العصر أن يلتزم موقفا يصدر عنه في فكره وأدبه وفنه ـ عموما ـ، وقد تأكد هذا بعد أن صار مبدأ «الالتزام» أو «الإلزام» على وجه الدقة ميزة الأدب والفن المعبر عن وجهة النظر المادية التاريخية، وأخذ بعده السياسيّ في منظومة الحكم الشيوعي.

والإسلام بوصفه دينا في مستوى المواجهة الحضارية تميّز بهذا المبدأ لأنه من مميزات عقائده وتشريعاته الملزمة التي يصطبغ بها المسلم في تصوره وسلوكه، ليأتي بعد ذلك نتاجه في الفكر والأدب ترجمة طبيعية لذاك التصوّر، فالأمر على هذا مقرر إسلاميا، ولا يهمنا ـ بعد ذلك ـ أنّ الاسلام لم يعرف «الالتزام» بهذا المصطلح فلا مشاحة في الاصطلاح كما يقول الأصوليون.

والالتزام في الأدب الإسلامي موقف طبيعي لأنه إفراز طبيعي للنفس والفكر المصطبغين بالتصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأنه محكوم بمبدأ المسؤولية تجاه الفرد والمجتمع والمعتقد، أي إنه سوف يسأل عن أدبه ماذا عمل به، وعليه فإنّ الالتزام الأدبيّ في المفهوم الإسلاميّ «أن يملك الفنان ـ أولا ـ تصورا شاملا متكاملا صحيحا للكون والحياة والإنسان، يوازيه انفتاح وجداني دائم وتوتّر نفسي لا ينضب له معين إزاء الكون والحياة والإنسان، ومن بعد هذا يجيء الالتزام عفويا، متساوقا منسابا، علاقته بالعطاء الفني لا تقوم مطلقا على القسر والتكلّف والإكراه ولا تعترف أبدا بالمدرسية أو الوعظية أو المباشرة»(١٧).

ويوضّح الأستاذ محمد قطب مفهوم الالتزام بقوله: «إنه فنّ ملتزم، ولكن ليس بالمعنى الضيق للالتزام فهو لا يلتزم بمذهب معين، ولا هو كذلك فنّ وعظي يدعو إلى فكرة معينة بطريق الوعظ والدعاية المباشرة، إنما هو «يلتزم» فقط بمجاراة الناموس الكوني في جماله وتناسقه وتوازنه وطلاقته من الضرورة، ويهدف إلى إنشاء إنسان صالح، إنسان يتوافق مع ناموس الكون، ولا يشذّ عنه بطريق الانحراف، ويتخذ وسيلته إلى ذلك عرض «الجمال» و«القبح» بمعناهما الواسع ومجالاتهما الشاملة في المشاعر والأفكار والتصرفات والسلوك بحيث تشتاق النفس في النهاية إلى الجمال وتنفر من القبح دون أن تحس «ضغطا» في هذا الاتجاه أو ذاك ... ثم يبقى بعد ذلك مجال واسع جدا لتصوير الحياة البشرية في شتى حالاتها ومجالاتها وتصوير النفس البشرية في شتى حالاتها ومجالاتها وتصوير النفس البشرية في شتى انفعالاتها وتقلباتها وتصوير القيم الإنسانية في شتى مستوياتها ودلالاتها مقيسة كلها بنواميس الوجود، وبفكرة «الجمال» الأصيلة العميقة في بنية الكون والحياة والإنسان، مجال تلتقي فيه «الحقيقة» الكونية بالجمال الكوني بلا تعارض ولا اصطدام لأنه لا تعارض في فطرة الكون بين الحقيقة والجمال»(١٨).

الواقعية في الأدب الإسلامي

الواقعية خصيصة من خصائص الأدب الإسلامي، كما هي خصيصة من خصائص الإسلام: في تصوّره، في تشريعاته، في نظرته للإنسان، في سوْق الأمثلة والصور التي تأخذ الإنسان من كل جوانبه.

والذي دعانا لأن نفرد لها عنصرا مستقلا من عناصر بحثنا المتواضع، ما صار لها من شأن في الفكر الحديث

(الاجتماعي، والفلسفي، والعلمي، والاقتصادي) وما الفن والأدب إلا تصوير لأثر كل ذلك في حسّ الأديب والفنان، حتى صحّ القول عنها: إنها «تقليعة العصر» وسمته المميزة. والواقعية في الفكر الحديث جاءت ردّ فعل للمثالية التي عرفها تاريخ الغرب الفكري والعلمي والديني، فإذا كانت المثالية مغرقة مغالية في «مثاليتها» فردّ فعل «الواقعية» كان أعنف وأشدّ، بيان ذلك، أنها ـ على اختلاف مدارسها وتوجهاتها الفكرية والايديولوجية ـ التقت عند نقطة واحدة تمثل أساس الفكر الغربي، وهي «المادية» ونعني بها الجانب الأرضي الطيني في الإنسان من ضرورات تتجلّى في الاقتصاد والجنس والنفس.

ونحن لا نعرض «الواقعية» من المنظور الإسلامي على أنها ردّ فعل للواقعية الغربية، بل كل ما في الأمر أننا نقرر حقيقة ضخمة في ديننا (كتابا وسنة ووقائع تاريخية) نعرضها بصورة قد تكون فيها بعض الجدّة. وهذا لا يمنع أن يكون الأسلاف الأكرمون قد عبروا عنها بلغة عصورهم، وما هذا بمانع لنا أن نصوّرها ونعرضها في صورة معاصرة تمثل رصيدا ضخما لا تُقدَّر فداحة إهماله من طرف الفنان المسلم وهو يعالج قضايا الفن والأدب. في البدء نعرف طبيعة هذه الخصيصة في التصور الإسلامي، فهو «تصور يتعامل مع الحقائق الموضوعية، ذات الوجود الحقيقي المستيقن، والأثر الواقعي الإيجابي، لا مع تصورات عقلية مجردة، ولا مع «مثاليات» لا مقابل لها في عالم الواقع، أو لا وجود لها في عالم الواقع، ثم إنّ «التصميم» الذي يضعه للحياة البشرية يحمل طابع الواقعية كذلك، لأنه قابل للتحقق الواقعي في الحياة الإنسانية، ولكنها في الوقت ذاته واقعية مثالية، أو مثالية واقعية، لأنها تهدف إلى أرفع مستوى وأكمل نموذج تملك البشرية أن تصعد إليه»(١٩).

بهذه النظرة يعمل التصوّر الإسلاميّ على توجيه إدراك الإنسان إلى الكون، ذي الكينونة الواقعية والآثارالواقعية. والشأن نفسه حين يتعامل مع الانسان، يأخذه بضروراته وأشواقه، بتأثيره وتأثره، بعواطفه ونوازعه، يأخذه ـ هكذا ـ بتركيبته التي ركبه الله عز وجل عليها.

مجمل القول إن «الإسلام دين للواقع، دين للحياة، دين للحركة، دين للعمل والنتاج والنماء، دين تطابق تكاليفه للإنسان فطرة هذا الإنسان، بحيث تعمل جميع الطاقات الإنسانية عملها الذي خلقت من أجله، وفي الوقت ذاته يبلغ الإنسان أقصى كماله الإنساني المقدر له عن طريق العمل والحركة، وتلبية الطاقات والأشواق، لا كبتها أو كفها عن العمل ولا إهدار قيمتها واستقذار دوافعها، ومن ثم تتحقق صفة «الواقعية» للمنهج الإسلاميّ الموضوع للحياة البشرية، تحققها للتصور الإسلاميّ ذاته عن الله والكون والحياة والإنسان، ويتطابق التصور الاعتقادي والمنهج العملي في هذا الدين تطابقا لا تفاوت فيه»(٢٠).

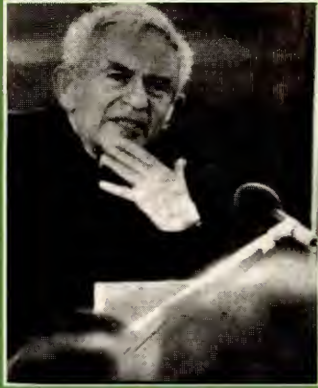
والآن نحاول أن نحدد معالم الواقعية مع الإشارة إلى مباينتها للواقعية في المنظور الغربي(*):

ينظر الإسلام في واقع الفرد وواقع الجماعة وواقع كل جيل، النظرة الشاملة للوجود الإنساني التي لا يمكن أن تُقرّ واقعا منحرفا لجيل منحرف على أنه واقع البشرية، ولنا على ذلك أمثلة الأمم والأجيال التي انحرفت عن فطرتها، عن منهج الله، فالقرآن لم يُقرّ واقعية ذاك الانحراف لكونه واقعا بل اعتبره واقعا منحرفا سعى لتغييره لأنه يمثل انتكاسا في الفطرة ومخالفة صريحة لنواميس الوجود، فإقراره على أنه واقع وقع فحسب مخالفة للحقيقة بكاملها، الحقيقة التي تمثل ما يجب أن يكون، فمهمة الإسلام أن يغير، أن يطوّر نحو المثل الأعلى.

ما يعرف بالأمر الواقع لا يفرض نفسه على الإسلام أبداً، فقد يكون هذا الأمر الواقع خطأ من أساسه، من بدايته إلى منتهاه، لذا فوقوعه لا يخوله حجيّة الوجود وأحقيته، بل تظلّ صفة «الخطأ» ملازمة له، لا تزول إلا بزواله، لذا فليس كل ما يصوره الفن على أنه واقع لا حيلة لنا في تغييره أو على الأقل التصريح أو الايحاء بأنه واقع منحرف لا يصوّر إلا جانبا واحدا من الحقيقة، إذ هناك جوانب أخرى من الحقيقة يمكن أن تظهر فتتحول إلى سلوك يكشف عن الحقيقة الكاملة، الصورة الكاملة للإنسان، ليس كل هذا الذي يصوره الفن هو الواقع الحتمي الوقوع الذي لا معدّى لنا عنه، وهذا يسلمنا إلى أن الإسلام لا يؤمن بالحتمية التي تعني السلبية تجاه قوى المادة والاقتصاد وغيرها.

طبيعة تصورها للإنسان وموقعه من الله والكون والحياة وأخيه الإنسان، فالإنسان في نظر الإسلام إنسان لا هو بالحيوان ولا هو بالملاك وهو يشتمل على شيء من طبيعة الحيوان ولكنه يتصرف فيه بطريقة الإنسان، كما يشتمل على شيء من طبيعة الملاك، ولكنه يتصرف فيه كذلك بطريقة الإنسان، فالإنسان ليس شرا محضا ولا خيرًا محضا، إنما فيه استعداد للخير وللشر، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس ٧ ـ ١٠).

«ومن ثم فالتصور الإسلامي ـ والفن الإسلامي ـ يصور الإنسان على هذه الصورة المزدوجة التي هي طبيعة الحقيقة»(٢١). وحين يصور الأدب الإسلامي لحظات الضعف البشريّ، يصورها من نواحيها جميعا بحكم الأمانة في النقل، لكن يصورها على أنها لحظة ضعف، لحظة سقوط، لا لحظة بطولة وانتصار تستحق الإعجاب «فالواقعية الإسلامية لا تحب أن ترسم صورة مزورة للبشرية، صورة بيضاء من كل سوء نقية من كل شائبة، سليمة من كل انحراف، كلا فما هكذا يقول القرآن ذاته الذي يدعو للرفعة الدائمة والمحاولة الدائبة للتغلب على الضعف، إنما يقول: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (سورة النساء: ٢٨). ويقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ



نورمان ميللر

وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ (سورةآل عمران: ١٤)، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (سورة المعارج: ١٩ ـ ٢١).وهي كلها آيات تصور «نقائص» الإنسان تصويرا صادقا بارعا عميقا واقعيا إلى أقصى حدود الواقعية، ولكنها تصورها على وضعها الطبيعي الحقيقي، وهي أنها نقائص ينبغي أن يرتفع عليها الإنسان وهنا مفرق الطريق»(٢٢).

أما لحظة الإفاقة من لحظة الضعف فيمثلها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ

مشروعية الأدب في الإسلام

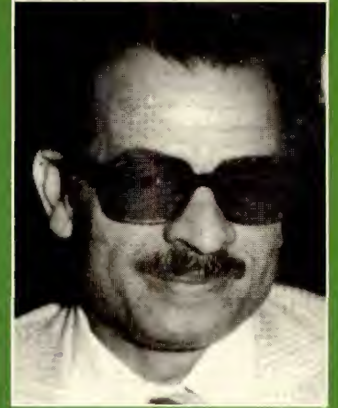
ودوره بخصائصه المميزة في معركة الدعوة

فِيْهَا وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِيْنَ﴾ (سورة آل عمران ١٣٤ - ١٣٦).

هذه - إذن - بعض ملامح الواقعية في التصور الإسلاميّ مع إشارات خفيفة عابرة للكيفية التي يمكن للأدب الإسلامي أن يسلكها، بالقدر الذي يجنبه مغبّة الجنوح نحو المثالية المفرطة أو الإغراق في وصف صور السقوط والعثار البشري، فتتمدد هذه الجزئية من الصورة أو تلك على باقي أجزاء الصورة البشرية.

الجنس والأدب الإسلامي

حق هذا العنصر أن يُدْرَج ضمن «الواقعية في الأدب الإسلامي» - وقد تمّت تلميحات إليه بالفعل - إلا أنّ الذي دعا إلى أن نفرده بالكلام ما للجنس من سطوة على الآداب التي تزحم الساحة الأدبية في الشرق والغرب، بلغ من هذه السطوة الجنسية أن تجمح وتحدث حركة انفصالية في



د. نجيب الكيلاني

جسم المملكة الأدبية لتخرج بمقاطعة «الأدب المكشوف». هذا اللون الرخيص الذي يزاوله أقل الكتاب موهبة وعبقرية فنية إذ لا مزية لكاتبيه إلا تعرية المستور المعلوم الذي لا يجهله أحد، وهذا اللون من الأدب لا يلقى الحظوة - حتى في أشدّ بلاد الله انعتاقا من الدين والخلق - في مجالس الأدب «المحترم»-، وهو أخطر من الأماكن التي تدار للاتجار بالأعراض - كما يقول الاستاذ الكبير العقاد رحمه الله تعالى - «لأن البيت الواحد مقصور على زُوّاره الباحثين عنه، ولكن الكتاب الذي تباع منه النسخ أو ألوفها خطر يقع فيه كل من يلقاه في طريقه إلى المكتبة أو الرصيف»(٢٣). وحتى إذا تجاوزنا هذا اللون الرديء الساقط من الأدب، لا نعدم إغراقا محموما في حمأة الجنس حتى في الأدب «المحترم» لأنه ينطلق من تصور للفن والحياة والإنسان، لا يرى بأسا من تصوير قدر من حالات الضعف البشري غير مأمونة عقبى تصويرها على النحو الذي تُصوّرُ به، وذلك في تصورنا الإسلامي، بل إنّ الأمر عندهم لا يعدو أن يكون تصويرا ووصفا «للواقع» لكن الأمر في الأدب الإسلامي غير ذلك فالإسلام لا ينكر الجنس ولا يستقذره لأنه حقيقة عميقة في حياة البشر بل في كل كيان الحياة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزواجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرضُ وَمِن أَنفُسِهِم وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يس: ٣٦).

«ومع ذلك فالجنس - على كل عمقه في كيان الحياة - ليس هو الحقيقة الوحيدة ولا الحقيقة الغالبة في البناء»(٢٤).

ثم إن الجنس في الإسلام لا يعدّ حاجة بيولوجية خالصة تُقضى لذاتها كما تصوره الفكرة الغربية المبنية على «حيوانية الإنسان»، فهذا الفهم - إذا استقر في اللاشعور، وفي الضمائر - يؤدي إلى أن يقع الإنسان كالبهيمة أنّى اتفق، مع أنّ بعض البهائم تتعفف - بحكم الغريزة - عن مثل هذا السلوك. وفكرة الإسلام هي أن يتم الأمر كما أمر الله تعالى، لا يخرج عن الإحسان الذي أمرنا به في كل شيء، وفي إطار النظافة التي أمرنا أن نتعامل بها في كل معاملاتنا. لكن هذا لا يعنى ألا يعرض الأدب الإسلامي إلا للحالات الشرعية وبالإشارة البعيدة ما أمكن - وهي ليست كل ما يقع في العلاقات بين الجنسين في الأرض -.

كلا ما إلى هذا أردنا، فالأدب الإسلامي مستعد لتناول أي موضوع في الحياة بشرط واحد، أن يصدر الأديب عن تصور إسلامي. «فالأدب الإسلامي يتحدث عن مجالات الجنس الهابطة المنحرفة عن السبيل، و«الواقعية» عرض للأبيض والأسود من باطن النفس وواقع الحياة»(٢٥). يعرض لذلك كله دون التذاذ ولا إثارة جنسية ولا إفساد، ثم إنه لا يترك فرصة تسنح بالدعوة للارتفاع دون أن يستغلها لهذا الغرض، لأنه - وفق تصوره - يعتبر الارتفاع لونا من ألوان تحقيق الإنسان إنسانيته.

ومن أراد أن يعرف طريقة تناول الإسلام لقصص الجنس فليراجع قصة يوسف - عليه السلام - في كتب التفسير، وهي خير رصيد، يستوحي منه الأديب المسلم إيحاءاته وتوجيهاته وهو يعالج مثل هذه الحالات.

الهوامش

(١) ابن قدامة: المغني ج ١٢ ص ٤٤ بيروت - دار الكتاب العربي (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م).

(٢) ابن قدامة: المرجع السابق، ص ٤٤ .

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٥.

(٤) محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، ص ١٣٩ - ١٤٠، ط ٦، بيروت - القاهرة، دار الشروق (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م).

(*) يمكن الرجوع في ذلك إلى: ١ - السيرة النبوية لابن هشام. ٢ - دور الشعر في معركة الدعوة الاسلامية لعبد الرحمن خليل إبراهيم.

(٥) سيد قطب: النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص ١٠١، ط ٥، القاهرة - بيروت، دار الشروق (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م).

(٦) محمد قطب: مرجع سابق، ص ١١٩.

(*) يمكن مراجعة مفهوم الدين في كتاب (المصطلحات الأربعة في القرآن) للمودودي.

(٧) د. عماد الدين خليل: في النقد الإسلامي المعاصر، ص٤٣ - ٤٤، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة (١٤٠١ هـ - ١٩٨١م).

(٨) محمد قطب: مرجع سابق، ص ٦.

(٩) سيد قطب: المرجع السابق، ص ١٠٣.

(١٠) سيد قطب: في التاريخ فكرة ومنهاج، ص٢٠، بيروت: دار الشروق.

(١١) سيد قطب: النقد الأدبي، ص ١٠٣.

(١٢) د. محمد عادل الهاشمي: في الأدب الإسلامي (تجارب ومواقف)، ص٤٠، ط١، دمشق - بيروت، دار القلم - دار المنارة (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م).

(١٣) د. عماد الدين خليل: المرجع السابق، ص ٣٩ - ٤٠.

(١٤) د. نجيب الكيلاني: الإسلامية والمذاهب الأدبية، ص٥١، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة (١٤٠١ هـ - ١٩٨١م).

(١٥) المرجع السابق، ص ٦٩ - ٧٠.

(١٦) د. نجيب الكيلاني: مرجع سابق، ص ٣٩.

(١٧) د. عماد الدين خليل: مرجع سابق، ص ١٧٩.

(١٨) محمد قطب: مرجع سابق، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(١٩) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي، ص ١٩٢ ط: دار الشروق.

(٢٠) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي، ص: ٢١٢.

(*) يراجع في هذا كتاب «منهج الفن الإسلامي».

(٢١) محمد قطب: المرجع السابق، ص ٦٨.

(٢٢) محمد قطب: المرجع السابق، ص ٥٤ - ٥٥.

(٢٣) عباس محمود العقاد: يوميات، ج ٢ ص ٤٢٨ ط ٢، مصر، دار المعارف ١٩٦٩ م.

(٢٤) محمد قطب: المرجع السابق، ص ٦٨.

(٢٥) محمد قطب: المرجع السابق، ص ٧٧.

تدمر

شعر: د. عارف تامر

لستُ أدري أيُّ شيءٍ أيقظَ الشـوقَ بنا
ودعـانا برواحٍ دونما أدنى عنا
في صباحٍ فاتن الطلعة وضّاح السنى
يا حبيبتي كل شيء يبسمُ اليوم لنا
عالمٌ يعبقُ بالطيبِ ويوحي بالمنى

* * *

وانطلقنا نقطع الأبعادَ ترباً ورمالا
في سهولٍ هوَّم الطلُّ عليها وتلالا
والربيعُ الغضُّ ينسابُ فتوناً ودلالا
ناشراً في صفحة الأفق غماماً وظلالا
جَنَّةٌ لم ينسها الله فوشَاها جمالا

* * *

وتهادى الحبُّ في البيدِ على غير اتفاقِ
والأماني طلعتْ تشدو بألحان التلاقي
ورفاق البدر يهفون إلى علٍ وساقي
يا رسولَ الحب هل تشعرُ مثلي بالفراق ؟
أنا ما زلتُ على عهدي، فهل عهدُكَ باقي ؟

* * *

وتراءتْ تدمرُ التاريخ ترنو من بعيدِ
كعروسٍ أسفرت تزهو بنهدين وجيد
مرحباً بالنجمة الزهراء بالفجر الوليد
بالمغاني الخضرِ تختالُ دلالاً بالورودِ
أنت يا تدمرُ في القلب فَغنِّي واستعيدي

* * *

ومشينا في مغانيها وغنَّينا طويلا
ورشفناها عبيراً وارتضيناها مقيلا
وأجبنا دعوةَ القلب وأكرمنا النزيلا
وعشقنا كل ما كان تراثاً وأصيلا
وانتسبنا للمروءات ولم نرضَ بديلا

* * *

والعذارى مائسات القدِّ في الدرب حيارى
سحرتهنّ أغاني الفجر شوقاً واذّكارا
وبراهن هوى الأمس وقد هبَّ وثارا
إنهنَّ اليوم في عرسٍ ويرقصنَ جهارا
يا عذارى البيد لا تنأين عني يا عذارى

* * *

أنا يا ملهمتي أصبحتُ في الدنيا غريبا
أرسل الشكوى ولا ألقى على الأرض مجيبا
أغنياتي لم تزل تهوى الصحارى والسهوبا
وفؤادي ملأ الدنيا هديلاً ونحيبا
حَبذا لو يرجع الأمس ويوليني نصيبا

* * *

ههنا الأطلال يا تدمر تبدو للعيان
ربضتْ فوق رمال البيد تروي للزمان
قصصَ النصر حداء الغيد أصداء الأغاني
ايه يا معبد بعل ليت لي فيك ثواني
أتملّى .. أتجلّى وأغنّي للحسان

* * *

زينب يا أم وهب اللاّت يا زينَ النساءِ
يا حُداء الفتح في البيد وينبوعَ العطاء
حَبذا لو أن هذا الفجر يصغي لندائي
ليته يحمل نجوايَ وحبي وولائي
للّتي دوَّختِ الروم ونادت بالجلاء

* * *

أنت يا زينب ما أنت سوى شمس نهار
أشرقتْ في مفرق الشام وفي دنيا الفخار
أمس أعلامك في البر تهادت والبحار
فمضى القيصرُ مذعوراً ينادي بالفرار
وارتدت تدمرُ ثوباً من رياحين وغار

* * *

زينبٌ والاسم لا يبرح يوماً من ضمير
ردّدت أصداؤه الدنيا على مرّ العصور
لا تراعي، هكذا الأقدار تودي بالكبير
مرّة تلقاه بالحزنِ وأخرى بالسرور
غير أن المجد والعلياء تبقى للنسور

* * *

وطني يا شامة الدنيا محضناك السلاما
ورفعناك إلى السدرة صرحاً يتسامى
ووفينا لك عهداً ويميناً وذماما
ودمانا ما ادّخرناها فهل نلقى ملاما
أن ملأناك ودادًا وإخاءً ووئاما

* * *

لا تلمنا إن زرعناك نضالاً وكفاحا
وشدونا في مغانيك مساءً وصباحا
أمس في الحومة لم نهزم ولم نُلق السلاحا
وعبرنا الحدَّ فتحًا واقتحاماً واجتياحا
كيف نرضاكَ سليباً بعد هذا ومباحا ؟

* * *

أيها التاريخ يا حامل أسرار الحياة
في مغانيك مناجاتي وحبي وحياتي
ههنا في دمية الصحراء عاشت أمنياتي
في ظلال الشيح والقيصوم رَفّتْ ذكرياتي
أيها السامرُ في دنياكَ طابت أغنياتي

* * *

من ملامح الأسلوب القصصي في شعر ابن مشرَّف والحفظي



د. عبد الله بن محمد أبو داهش

عرفت بعض بيئات الأدب بجزيرة العرب في العصر الحديث الشعر القصصي، وبخاصة في بيئتي: نجد، وعسير، حيث أسهم بعض شعرائها بشيء من هذا النتاج الأدبي المعهود، ولعل: ابن مشرَّف (- ١٢٨٥هـ) ، وأحمد ابن عبدالخالق الحفظي (١٢٥٠-١٣١٧هـ) خيرُ من يمثل هاتين البيئتين اللتين تعدّان من المراكز الأدبية المعروفة. وتأتي هذه اليقظة الأدبية في نجد بحكم قيام الدولة السعودية الأولى سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م، ومانهضت به من تأييد سلفي جاد، إذ أضحت الدرعية مهوى الأدباء ومنهم ابن مشرف نفسه. على حين قبست عسير من هذا الاتجاه الإصلاحي فغدت صورة للبيئة الأدبية النجدية يومئذ، وذلك حين نصرت بلدانها هذه الدولة وقامت بتأييدها، وهذا يدعو للقول بأن الحفظي قد تأثر بابن مشرَّف في هذا الأسلوب الشعري.

أما الشاعر الأول أحمد بن علي بن مشرف، فقد ضمّ ديوانه قدراً مناسباً من هذا الشعر القصصي الذي يدل على سبقه في هذا الميدان، وعلو كعبه فيه، ومن أمثلة ذلك حكايته الشعرية في: «الفأر والحمامة»(١)، وملخصها: "أن سرْباً من الطيور أبصر حبّا منثوراً - وكان جائعاً - فأراد أكْلَه ، فقام منهم ناصح لحجزهم عن هذا الحبِّ الذي لم يُنْثَر في الفلاة إلا لأمر [مهم]، وقال لهم: إن مكابدة الجوع حتى تتبينوا الأمر خير من المخاطرة، لكن الطيور لم تصغ لنصحه، وسارعت لالتقاط الحب فلفتها الشباك، فندمت وعادت إلى ذلك الناصح تضرع إليه في تخليصها، فأمدها برأيه الصائب، وهو أن تنهض مَرَّةً واحدة فتقتلع الشبكة وتطير بها، ففعلت، فأبصرها الصياد - وقد ارتفعت بها - فأخذ يعدو لاهثاً وراءها حتى اختفت. فقادها ذلك الناصح إلى واد، وأمرها أن تقع فيه، ثم نادى صديقه الفأر، فقرض الحبال فتمزقت الشبكة، وخَلَصَتْ الطيور من ذلك الأسر، وأقامت في ضيافة الفأر ثلاثة أيام"(٢)، ومنها:

فأبصروا على الثرى
حبًّا مُنقَّى نُثرا
فأحمدوا الصباحا
واستيقنوا النجاحا
فأسرعوا إليه
وأقبلوا عليه
حتى إذا مااصطفوا
حذاءَه أسفُّوا
فصاح منهم حازمُ
لنصحهم ملازم
مهلاً فكم من عجله
أدْنَتْ لحيٍّ أجله
تمهلوا لاتقعوا
وأنصتوا لي واسمعوا
آليتكم بالرَّبِّ
ما نثرُ هذا الحَب
في هذه الفلاة
إلا لخطب عاتي
إني أرى حبالا
قد ضُمِّنت وبالا
وهذه الشباك
في ضمنها هلاك
فكابدوا المجاعه
وانتظروني ساعه
حتى أرى وأختبرْ
والفوز حظ المصطبر
فأعرضوا عن قوله
واستضحكوا من حوله
قالوا وقد خط القدر
للسمع منه والبصر
ليس على الحق مِرَا
حبٌّ مُعَدٌّ للقِرى
ألقي على التراب
للأجر والثواب
مافيه من محذور
لجائع مضرور
أغدوا على الغِذاء
فالجوع شَرُّ داء

فسقطوا جميعاً

لِلَقْطِه سريعاً

فوقعوا في الشبكهْ

وأيقنوا بالهلكَهْ(٣).

أما أحمد بن عبدالخالق الحفظي فإن شيئًا من ملامح هذا الأسلوب القصصي الشعري قد تبين في إحدى قصائده، التي أنشأها حين كان منفياً بتركيا أواخر القرن الثالث عشر الهجري. وذلك حينما قص فيها: «خبر اعتقاله ووصف رحلته الشاقة المضنية منذ اعتقله جنود الترك في رجال ألمع حتى وصل المنفى في تركيا(٤)، ولعل المقام العصيب الذي قاساه في تركيا حينئذ قد ألهمه قصيدة أخرى، إذ تخيل في لحظة من لحظات التأمل أن: حمامة قد وقعت في شرك أحد الصيادين، وأن أحد رفاقه في الأسر قد أدرك معه حال هذه الورقاء، حين طفقت تهدل وتسجع معتقدة بأنهما يستطيعان إنقاذها مما وقعت فيه، إذ لم تعلم أنهما مثلها في الأسر»(٥)، حيث قال:

مطوقة غنَّت بأحسن نغمة

وقد حجبت عن أهلها والعشيرة

رأتنا فحن الشوقِ منها لعلها

تجد مُخلِّصاً من دار حزن وكربة

ولم تدر بنت الأرقمين بأننا

سواء على الأحوال في دار غربة(٦)

ولقد أنشأ الشاعر: "بعد ذلك حوارًا قصصيًا ماتعًا حاول فيه أن يبين حقيقة أسره هو وزميله، وأن يبدي عجب الحمامة من أسرهما، إذ هما في عينيها كبيران لايقاس حجمهما بجسمها الصغير، ويتخلص الشاعر إلى موقف قصصي آخر فيقيم حوارًا جادًا يستوضح من خلاله أمر الحمامة، ويشير إلى شيء من أخباره، ثم ينهي هذا الموقف بقوله مصوراً حال الحمامة"(٧)

عراني جوع والقفار تغيرت

لما حلَّ في الأمصار من كل ريبة

وقد جاع أولادي وماوجدوا لهم

متاعًا فأقبلنا نسير بسرعة

وقد طرحوا بالأرض حبًا منثرًا

هويت ولم أدر بهذي الخديعة(٨)

وعندئذ تطلب الحمامة حَكَمًا يفصل في أمرهم، إذ وافق الأسيران، وأخذ الجميع يبحثون عن حكم تُرْضَى حكومته:

فقام من الأتراك شهم مجرب

وأقبل يأتينا بوافي المروءة

وعندما حضر الحكم بدأ الشاعر موقفاً ثالثاً صوّر من خلاله مادار بين يدي الحكم من الحوار والحديث ، ولكن الحكم سرعان ماأجابهم بقوله:

فقال لنا القاضي : أفيقوا فإنني

أنا القاضي المخصوم بين الخليقة

أخذت وإخواني ومالي وأسرتي

وشردت في هم عظيم وكربة

وحينئذ يتساوى الجميع. ويزداد تعاطف الحكم مع الأسيرين والحمامة، إذ امتزجت نفسه بالألم، وأخذ يطلب من الورقاء أن تغني لهم علها تستطيع أن تُذهب ماعلق بفؤاده من الحسرة والضنى:

فغن لنا ياطير جوزيت بالرضا

أجاوبك لحنا من فؤادي بحسرة

ويلح الجميع بعد ذلك على أن يصدر الحكم حكماً عادلاً يفصل في أمرهم ولايدع القضية معلقة، فقال بعد لأى:

وإني أنا المخصوم لكن هاكم

جواباً ينبئكم بأحلى مسرة

ألا إنها الأقدار جاءت على القضا

وماكان ماقد كان إلا بقدرةِ

وعند ذلك يرضون بقدر الله تعالى، ويدركون حكمه، حيث رفعوا أكفهم في ابتهال عميق أن يفرج كربهم، ويزيل غمتهم، وأن تتداركهم رحمة منه ورضوان، إذ قال:

فمدوا أكفًا للدعاء معجلاً

عسى فرج يأتي لتفريج كربةِ(٩)

"وفي الحقيقة أن النسج الفني لهذه القصيدة قد أتى ضعيفاً لايفي بغرض الحوار القصصي، ولايساعد على بلورة المضمون الفكري .. كما أن إلحاح الشاعر على إنهاء قصته التخيلية في هذه القصيدة قد أفقدها شيئاً من قيمتها الأدبية والفنية، ولعل عذر الشاعر في ذلك يعود إلى أنه قد نظم هذه القصيدة - كما قال - مرتجلاً(١٠)، وأنه لم يألف مثل هذا اللون الشعري من قبل"(١١)، وإذا كان أحد الباحثين المعاصرين(١٢) قد ظنّ أن ابن مشرف إنما أثر في شوقي حينما كتب شعراً على ألسن الطير، لانتقال كتب ابن مشرف إلى مصر في حياة شوقي(١٣)، فإن الصواب تأثير ابن مشرف في الحفظي لمعاصرته له، ولأنه ممن تأثر بشعراء نجد واتجاههم السلفي الإصلاحي(١٤).

الهوامش والتعليقات:

(١) ديوانه ١٠٩، ط ٥، نشر مكتبة الفلاح، الأحساء (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

(٢) محمد بن سعد بن حسين، «الأدب الحديث في نجد» ٢٤٣، ٢٤٤، تحقيق عبدالسلام سرحان، ط١، مط الفجالة، مصر، دون تاريخ.

(٣) المصدر نفسه، وانظر ديوان الشاعر ١٠٩.

(٤) كان ذلك في سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م، والقصيدة مطلعها:

شكاية مشتاق لدار ومعقل

وأهل وإخوان وخل ومنزل

«نفحات من عسير» ١٥٢، مطابع مازن، أبها، (١٣٩٣هـ/١٩٧٤م).

انظر : خطبة الشيخ أحمد عبدالخالق الحفظي في حضرة السلطان العثماني ١٣، تحقيق عبدالله أبو داهش، ط١، مط مازن، أبها، دون تاريخ.

(٥) عبدالله أبو داهش، "الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية" ٣٧٥، ط١، نشر دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

(٦) توجد هذه القصيدة مخطوطة لدى الباحث.

(٧) عبدالله أبو داهش، الحياة الفكرية والأدبية: ٣٧٦.

(٨) القصيدة المخطوطة نفسها.

(٩) عبدالله أبو داهش، الحياة الفكرية والأدبية: ٣٧٧،٣٧٦.

(١٠) مقدمة هذه القصيدة نفسها.

(١١) عبدالله أبو داهش، "الحياة الفكرية والأدبية": ٣٧٨.

(١٢) شيخنا الأستاذ الدكتور محمد بن سعد بن حسين.

(١٣) محمد بن سعد بن حسين، الأدب الحديث في نجد، ٢٤٥.

(١٤) انظر: "أثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الفكر والأدب بجنوبي الجزيرة العربية" ط١، مط الشريف، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

أثــــر المــذهــب الواقــعي الفــرنسي والــروسي

في روايات جورج جسنج وجورج مور

د. عبيد خيري

يستخدم مصطلح الـواقعية في أكثر من سياق، ولعل هذا هو السبب الـذي يجعله يفتقر إلى الدقة عند استـخدامه في النقد الأدبيّ. وخـلافًا للرومانسية التي كـانت ذاتية وتميل إلى الإفراط في العواطف، فإن الواقعية كنظرية على النقيض من ذلك في المناقشات النقدية التي كانت تجري في القرن التاسع عـشر. فقـد حاول أنصار المدرسـة الفكرية الواقعـية وصف الواقع وصفًا دقـيقًا، وانصب التركيز على الدراسـة التحليلية للشخصيـة، كما انصب على الطبيعة العلمـية والتجريبية لمشـاهداتهم في الحياة. وبصريح العبارة فإن الـواقعية تعني رسم العالم الـواقعيّ كمـا هو، يضاف إلى ذلك أن أنصـارها يسعـون إلى وصف الحياة بـأبعادها المختلفة بكامل واقعيتها، إلاّ أن مفهوم الواقعية المطلقة كان مثار جدل بين الأدباء والمفكرين، ومن هؤلاء الروائيّ الفرنسيّ جي دو موباسان الذي كتب قائلاً: «إن من السخف بمكان أن نعـتمد عـلى الواقع في الوقت الذي يحمل كل مـنا حقيقتـه الخاصـة في ذهنه وجـسده، فاختـلاف أعيننا وآذاننا وحـاسـة شمنا وحـاسة ذوقنا ينجم عنه العـديد من الحقـائق ما دام هنالك أناس يعيشون على كوكبنا هذا، وعليه فإن كلاًّ منا يشكل أوهامه الخاصة حول هذا العالم، وتقتصر مهمـة الكاتب على تصوير هذه الأوهام بكل أمانة وصدق، وبكل ما أوتي من ملكة أدبية، والعظماء من الأدباء هم الذين يرغموننا على تقبل أوهامهم هذه»(١).

ومـعلوم أن المذهب الـواقـعيّ يشك في مـقـدرة الفرد في تحديـد وجوده في هذا العـالم الرحـيب، حيث إن المجتـمع قـد أصبح مـعـقدًا وآليًا بشكل مطّرد، وعليـه فقـد أصبح الإنسـان فريسة لـعوامل خـارجيـة مناوئة، ونـتيـجـة لذلك أصبـح الكاتب الواقعيّ في شك وريبة من المجتمع الذي يعيش فيه، وأحس في قرارة نفسه بأن واجبه هو تصوير الواقع عن الحـياة تصويـرًا حيًّا مـلموسًا دون الإغـراق في المثاليـات أو الجنوح نحو الخيال. وهذه هي فلسـفة أوجـست كونت الوضـعيـة التي ترفض رفضًـا باتًا الظواهر الغـيبية، وتعـتمد اعـتماداً كليًا على نتائج العلوم الطبيعيـة الحديثة، كما تركز اهتمـامها البالغ على ظواهر عـالمنا الحيّ الملمـوس، وتعلل الأشـيـاء بالمشاهـدة والتجارب تأيـيدًا تامًا للفـروض، وتعلن بأن التـطور العــقلـي هو العــامل الـرئيس للـتطور الاجتماعيّ، وكان أوجست كونت يرمي من وراء ذلك إلى إصـلاح المجـتـمع ليـعـيش الناس في وئام وألفة وتوافق وانسجام.

رؤى متباينة

هذه هي السمـة البارزة لوجـهة النظر العلمـية، فالواقـعيّ، كالعالم، كـان مولعًا بتـصوير الحقيـقة دون الإشارة إلى أفكار سابقة. هذا بالإضافة إلى: «أن المعرفة المثمرة هي معرفة الحقائق وحدها، وأن العلوم التجـريبية هي التي تمدنا بالمعارف اليـقينية، وأن الفكر الإنسـاني لا يسـتطيع أن يعـتـصـم من الخطأ ـ فـي الفلسـفــة وفي العلـم ـ إلاّ بعكوفــه الدائب على التجربة، وبتـخليه عن أفكاره الذاتية السابقة»(٢).

أما الـناقد الفـرنسيّ هيبـوليت أدولف تين فقـد حاول أن يطبق المنهج العـلميّ على النقد الأدبيّ. ومن آرائه التي كـان لـهـا أثر واضح في المدرسـة الطبيعية أن الإنسـان صنع الوراثة والبيئة والزمان، وبالتـالي فـإن الفن هو عبـارة عن صـورة واقـعيـة دقـيقـة للجنس والزمان والمكان أكـثر منه صـورة للفـرد. ولقـد كـان تين في واقع الأمـر مـدينًا في كثير من آرائه هذه للفلسفـة الوضعية التي سادت في عصـره، فهـو يرى: «أن الطبيـعة ـ بما تحتوي عليـه من دوافع مـلازمـة لهـا ـ تـتـحكم في تطور الإنسان بسلسلة من الأحداث تؤثر تأثيرًا مزدوجًا في نواحي تكوينه: النفـسية والجـسمية معًـا. أما

الناحية النفسية في الإنسان فهي مرتبطة بالأحاسيس العميقة. وهذه الأحاسيس ـ بما تثيره من صور ـ هي التي تكوّن الأفكار، على حين ترتبط الناحية الجسمية بالمظاهر الخارجية للأحاسيس. وبهذا يمكن أن تشرح جوانب الشخصية الإنسانية، ويمكن أن يتنبأ المرء بما ستكون عليه، طبقًا للوقائع في علاقاتها المتبادلة بعضها مع بعض...»(٣).

الطبيعيون الفرنسيون

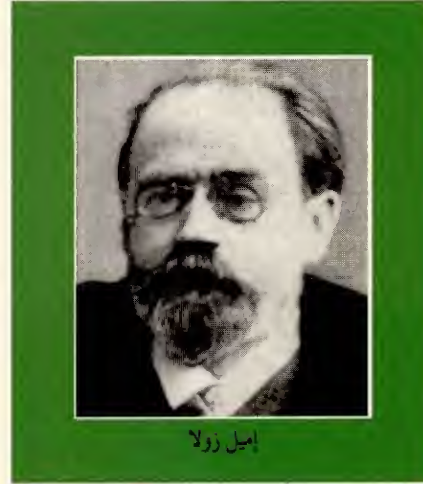
لقد أسهم الطبيعيون الفرنسيون إسهامًا كبيرًا في تطوير فن الرواية الواقعية، حيث ترجع قوانينها ودعائمها بلا شك إلى ممارستهم الجادة لهذا الفرع من فروع الأدب. فبلزاك، الروائيّ الفرنسيّ الشهير، اتسمت قصصه بعمق الملاحظة وسعة الخيال والجنوح إلى السخرية اللاذعة. وعلى الرغم من أنه كان رومانسيّ النزعة إلاّ أنه طوّر دراسة الإنسان وعلاقته بالبيئة المحيطة به. ونحن نلمس في الشخصيات، التي ساقها أبطالاً لقصصه، ملامح تأثير البيئة والمجتمع والوراثة في حركاتها وسكناتها، والمتأمل في قصصه يلاحظ على الفور أن الكاتب قد عايش هذه الشخصيات وعاش الأحداث معها وسبر غورها. ومثال ذلك قصته «الكوميديا الإنسانية» التي يصف فيها المجتمع الفرنسيّ بكل قطاعاته ومختلف مهنهم وحرفهم في أسلوب يتسم بالدقة وبعد الإشارة.

أما ستندال ـ وهو الاسم المستعار للروائيّ الفرنسيّ ماري هنري بيل ـ فقد اهتم بالتحليل والاستنباط، وقد أشار أولاً إلى الأسباب الرئيسية للجنسية والمناخ والسجية، وباختصار فإنه عالج العواطف كما يجب أن تعالج بطريقة رواد المذهب الطبيعيّ وفلاسفته. ومن أروع رواياته «الأحمر والأسود» التي وصف فيها بدقة متناهية مأساة شاب قتل عشيقته.

الواقعيون الفرنسيون

أما جوستاف فلوبير فقد اعتبره بعض النقاد رائد الواقعية في الأدب الحديث، فقد اتسمت كتاباته بالأسلوب الدقيق واللفظ المناسب والعبارة الملائمة. كان يعتقد بأن الأدب الرفيع لا بد أن يكون علميًا وليس ذاتيًا، كما يجب على الكاتب أن يتقمص شخصياته ولا يجعلها تدور في فلكه. وفي الواقع فقد انطلق فلوبير من مذكرات استطاع هو نفسه التحقق من صحتها، وإنْ شاء وَصْفَ منظر انتقل إلى مسرحه وعاش فيه، وكل جزئية كانت حلقة اهتمام متواصل من الحقيقة، ويبدو أنه لا يطلق العنان لخياله. وعندما يكتب فإنه يزن كل كلمة بتجرد تام ويبدو أنه يعرف مواطئ أقدامه ويتحرك في نطاق ما يعرف. ومن هذا المنطلق فقد كانت أعماله: «... بحثًا مجهريًا دقيقًا وملاحظة أدق، إذ أخضع سائر أعماله لتحليل دقيق للحبكة، ولكل ما يتطلبه الأسلوب البعيد عن الفردية... وبذا أسهمت واقعيته ووضوحه بالكثير في سبيل تخليص القرن من شعور الطبقة البرجوازية بالرضا والانغماس في العواطف»(٤).

وتعتبر روايته «مدام بوفاري» من أروع ما


إميل زولا

كتب، وعدّها كثير من النقاد الفرنسيين عملاً ذا أهمية كبرى، ولكن واقعية الرواية المفعمة بالشك والريبة كانت سلاحًا ذا حدين، فهي تسخر من الأوهام الرومانسية عن الحب لدى البطلة وأيضًا من كآبة الريف الفرنسيّ.

وتتميز روايات إميل زولا بالاهتمام الخاص بواقع الحياة والوصف الدقيق للبيئة الاجتماعية لأحداث الرواية، هذا بالإضافة إلى تطبيق نظريات كلود برنارد في فن القصة، ويرى: «... أن من واجب الرواية أن تدرس الطباع الإنسانية والتكيفات العميقة الأثر للعضوية البشرية تحت ضغوط البيئة والأحداث»(٥). كما فرق بين القصة التجريبية والعلم التجريبيّ، وكان في واقع الأمر يدعو: «... إلى الاستقصاء في الملاحظة التي تتوّجها التجربة ويرفض... أن يكون القاص مصورًا لا غير، إذ يستحيل على الكاتب أن يقتصر على التصوير دون التأويل. والحيدة في الفن مستحيلة، إذ لا بد للكاتب من التجربة أي إخضاع الحقائق لقانونها المتحكم فيها»(٦).

وهكذا نادى إميل زولا بوجوب قيام القصة على التفكير العلميّ والوصف الدقيق، ومن بين قصصه العديدة قصة أسرة «روجون ماكار» التي تصف بدقة بالغة انهيار تلك الأسرة نتيجة لتأثير الوراثة والبيئة، وبخاصة الإسراف في ملذات الحياة والانحلال الخلقيّ. وكان يرمي من وراء ذلك إلى رغبة إنسانية ملحة بغرض إصلاح وتغيير الأحوال الاجتماعية السائدة، ولذا فإن مذهبه الطبيعيّ ما هو إلاّ نوع من المثالية، وبالتالي فإن معرفته بالنظرية الحتمية لم تقده إلى التشاؤم بل ظل متفائلاً ومتمسكًا بالتطور الاجتماعيّ.

أما جي دو موباسّان فيعتبر رائد الأقصوصة الفرنسية الأول، فقد عرفت كتاباته بالبساطة الفنية للمواضيع التي تناولها والموضوعية التي اجترها من فلوبير، أما الأخوان جونكور وإميل زولا فقد طوّروا التحقق العلميّ ووسعوا فكرة التوثيق وألّفوا رواياتهم من المذكرات. وثمة نتيجة واحدة لذلك وهي نمو الاتجاه نحو الأدب الفاضح والمكشوف الذي أثار الأدب الفيكتوريّ ووسم الواقعية بسمتها السيئة.

الواقعيون الروس

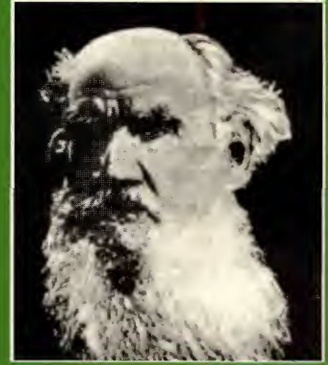
ومن جهة أخرى فقد عنيت معظم كتابات الواقعيين الروس بالصراع بين الأفكار السياسية والفلسفية الغربية والمذاهب والمعتقدات والتقاليد الروسية، فإيفان تورجنيف قد عد نفسه واقعيًا همّه الأول الوصول إلى الحقيقة، فقد كتب قائلاً: «إن الحقيقة هي بمثابة الهواء الذي لا يمكننا الاستغناء عنه إذا ما أردنا الحياة، والأدب نبتة

أثــر المــذهــب الواقــعي الفــرنسي والــــروســــي فــــي روايــــات جــــورج جـــسنـــج وجــــورج مــــور

تنمو وتنضج في هذا الهواء».(٧) وفي الحقيقة عُرف تورجنيف بنزعته التحررية، فمعظم رواياته تعالج المشكلات الاجتماعية، وتتسم بواقعيتها وتحليلها للحركة الثورية الروسية، ونذكر على سبيل المثال رواياته «الدخان» و«الأرض البكر» و«عش للنبلاء» و«الآباء والأبناء».

أما دستويفسكي فلقد كان له الأثر الكبير في الحركة الفكرية الروسية، فقد اهتم بتصوير آفات المجتمع الروسيّ وأمراضه بأمانة ودقة، وامتازت رواياته بالتحليل النفسيّ العميق، وبمشكلات الخطيئة والعقاب وبمحبته وعطفه على جميع البشر. ومن رواياته «الجريمة والعقاب» و«بيت الموتى» و«الإخوة كرامازوف» و«الأبله» و«الفقراء» وغيرها.

وهناك كاتب آخر هو ليوتولستوي الذي اتسمت رواياته برسم الصراع الباطن في الشخصيات، ومثال ذلك روايته «أنّا كارنينا»،



تولستوي

أما روايته «الحرب والسلام» فتدور أحداثها حول حروب نابليون، وفيها عرض فلسفته في التاريخ، كما صوّر الصراع الطبقيّ والتطور الاقتصاديّ للمجتمعات. وهكذا فقد اتجه المذهب الواقعيّ الروسيّ نحو تفسير الحياة وفقًا للنظرية المادية الجدلية التي ترتكز دعائمها على الصراع الطبقيّ الذي يكيّف الحوادث ويبرز الأبطال ثم يبيدهم.

مبعث التشاؤم عند جسنج

وفي انجلترا فإن سمة التشاؤم والعبث تتضح في التحليل المركب للشخصيات العُصابية والمضطربة التي تميزت بها روايات جورج جسنج. وثمة ملمح آخر في أعماله وهو النقد اللاذع والاحتجاج المرير عند الأديب المرهف لمساوئ حضارة القرن التاسع عشر. فلقد تميزت رواياته بنظرتها المتشائمة وتحليلها للخواء الفكريّ لحياة الطبقة الوسطى، وإن تجربته الذاتية جعلته ينصرف بكلياته نحو الفقر المدقع وأثره القياسي في الشخصية، وكثيرًا ما تتضمن رواياته شخصيات تبرز شخصيته وتطلعاته، كما يظهر تشاؤمه في الصراع بين الشخصية والأحوال الاجتماعية، ولكن هذه الفلسفة المتشائمة لم تكن وليدة شك في حسن الدوافع البشرية، ولم تكن متبناة نتيجة لشجبه ونقده اللاذع للجنس البشريّ، بيد أنه اكتسبها بممارسة حتمية ومحبطة كانت نتيجة لبؤسه وشقائه وتعاسته. ونظرة متأنية لأعمال جسنج تظهر بجلاء أنه طوّر موضوعية الطبيعيين الفرنسيين، وفي رسالة لأخيه كتب قائلاً: «إن العالم بالنسبة لي مجموعة من الظواهر التي يجب دراستها وإعادة صياغتها فنيًا... وفي خضم سوء الطالع اليائس يمكن أن أتوقف قليلاً لتدوين ملاحظاتي لاستخدامها مستقبلاً، ومصائب الآخرين في نظري مادة خصبة للملاحظة والتأمل»(٨).

ومما تقدم يتضح لنا رغبة جسنج الأكيدة في أن يكون كاتبًا واقعيًا يرفض التنظير في أعماله، وهو في حقيقة الأمر كان منجذبًا نحو المذهب الوضعيّ مما يرضي عقليته العلمية القائمة على الشك، فهو يقول: «لقد وجه كل من شوبنهاور وكونت وشيلي نمو حياتي الخلقية. أما شوبنهاور فقد علمني نسيان ذاتي والعيش في الآخرين. وأما كونت فقد كشف لي مغاليق أسرار الكون... وأخيرًا فإن شيلي قد نفث في العظام النخرة النظرية العلمية، وحوّل الاقتناع إلى عاطفة، وأضاء آفاق المستقبل بإشعاعات متألقة رائعة تحاول العين جاهدة التطلع إليها، كما قوّى الفؤاد بحماسة كدرع متين»(٩).

وكشأن شوبنهاور فإن جسنج يؤكد الفكرة القائلة بأن قوى خارجية معادية تتحكم في مصير الفرد، وفي روايته «حي الغراب الجديد» يُعَدّ ألفريد يوول ضحية لذلك. ومما لا شك فيه أن فلسفة شوبنهاور تنعكس في معظم شخصيات جسنج المشهورة في رواياته. على أن شخصيات جسنج رغم التشابه، لها هوياتها القائمة بذاتها وليست صورة طبق الأصل له، وحتى في «مذكرات هنري رايكروفت الخاصة» فإن البطل ليس جسنج نفسه، ولكنه شخصية أقل تعقيدًا وأدنى أهمية منه. وحقًا تعطي واقعية جسنج الانطباع بأنها نتيجة لمثالية محبطة حيث يسود الإحساس بالإحباط في وصفه الدقيق للحياة الانجليزية المعاصرة، غير أن هنالك ومضات من الحيوية والخيال عند جسنج حيث تعطي كتاباته أدلة مادية لمواهب متغايرة أكثر من نجاحه في تحقيق واقعية فنية متكاملة.

وفي حقيقة الأمر فإن روايات جسنج مثل حيّ لواقع ملموس لتأثير المذهب الطبيعيّ الفرنسيّ في الرواية الانجليزية، ورغم ذلك يجب ألا ننسى أنها تندرج في إطار الرواية الفيكتورية بحبكتها المركبة وشخصياتها العديدة، ونذكر على سبيل المثال رواياته «النساء غريبات الأطوار» و«مولود في المنفى» و«العاملون في الفجر» و«العالم السفليّ».

الإنسان ابن بيئته

وكان أقرب المعاصرين لجورج جسنج، جورج مور الذي بدأ حياته بنظم الشعر ثم دلف إلى كتابة القصة، كما كتب ترجمتين لحياته هما «اعترافات شاب» و«سلام ووداع». لقد تأثر جورج مور مباشرة بالمذهب الطبيعيّ الفرنسيّ، وفي بواكير حياته الأدبية أظهر إعجابًا متناميًا بمن سبقه من الأدباء الواقعيين، وهذا مثبت في سيرته الذاتية «اعترافات شاب». أضف إلى ذلك أنه أثنى على الرمزيين بالقدر نفسه من الثناء الذي أبداه نحو الواقعيين الفرنسيين. وفي إعجابه هذا

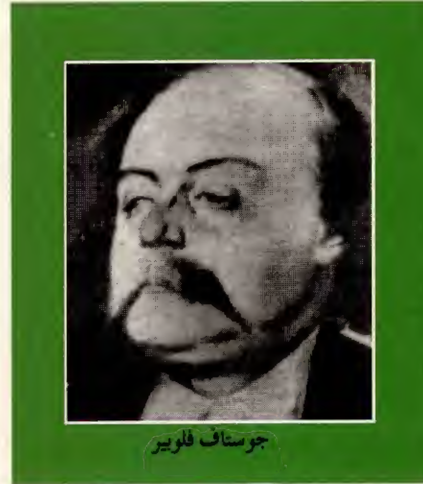
فهو قريب من رأي آرثر سايمونز الذي كان يعتقد بأن الرمزية هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع الفنان من خلالها نقل إدراكه للواقعية غير المرئية بصورة واضحة جلية. والرمزيون ثائرون بطبيعتهم، وضيقهم بمحدودية اللغة ما هو إلاّ عرض لشيء أكثر عمقًا، وهو الاعتقاد بأن الأشياء ليست كما تبدو، والذي يهم في نظرهم هو الواقع الذي يخفيه المظهر. وجدير بالملاحظة أن جورج مور قد أبدى إعجابه بالكثير من الكتاب الرمزيين خلال حياته الأدبية، ويذكرنا هذا بارتيابه فيما يتعلق بالنظريات الأدبية في سيرته الذاتية قائلاً: «إن بلزاك لم يدع عاطفة إلاّ وطرقها، والأكثر روعة أنه رسم كل عاطفة كما تبدو في الطبيعة تمامًا، وتعاطفه الشديد للحياة البشرية وما يتعلق بها مكّنه من أن يحيط الموضوعات المتواضعة بمزيج من الهيبة والاحترام وتوّجها بمسحة من التراجيديا والمأساة»(١٠).

وفي كتاباته الأولى كان جورج مور معجبًا بجوستاف فلوبير، وعندما اشتد عوده أدار ظهره كلية لأستاذه القديم. والجدير بالذكر أن اهتمامه بالمناهج الواقعية كان أكثر من اهتمامه بالبحث العلمي، شأنه في ذلك شأن جي دو موباسّان. وفي تجربته مع الطبيعيين الفرنسيين كتب العديد من الروايات الواقعية المحضة التي تميزت بالاهتمام الخاص بواقع الحياة والوصف الدقيق للبيئة الاجتماعية لأحداث الرواية، فقد شارك الواقعيين في الاعتقاد بقيمة التوثيق، كما أيد رأيهم بأن الانسان ابن بيئته.

وتتميز روايته «زوجة الممثل» بحسن السبك الفنّي الذي اتّسم به المذهب الطبيعيّ، فالوصف المتأني لبيئة ارتكز على البحث الدقيق والتأكيد على العوامل البيئية، وجورج مور في روايته هذه أشبه ما يكون بآلة التصوير التي تسجل المواقف كما هي بمقدرة خيالية فائقة، أما روايته «استر ووترز» فقد جاءت بالجديد في طريقة عرضها لواقعية الطبقة الدنيا، فهي تحكي قصة خادمة أمٍّ غير متزوجة لطفل غير شرعيّ واجهت الفقر والاضطهاد بقوة بطولية، وفي نهاية المطاف وجدت نوعًا من الأمان والهدوء والراحة. ومن بين الروايات الطبيعية الانجليزية، فإن هذه الرواية تحقق متطلبات جي دو موباسّان بصورة كاملة دقيقة.

ولما تقدّمتْ به السن، وجه جورج مور اهتمامه نحو الكتابات الرومانسية متحللاً من التأثر بجوستاف فلوبير. وتجدر الإشارة هنا بأن إميل زولا خاطبه قائلاً: «لقد أقررت في كتابك أنك مدين لي بإلهامك الأول، وأنا فخور بهذا، وأشكرك على إثباته، ويؤسفني أنك قد بدّلت أفكارك، وعلى كلٍ فهذا هو القانون الأزليّ بأن الأبناء يلتهمون آباءهم، ولا حيلة لي في هذا لأن القدر أراد ذلك»(١١).

ورغم أن جورج مور اجتهد في أن ينحو منحًى واقعيًا، إلاّ أنه يتأرجح أحيانًا ويظهر عودة لا تخطئها العين إلى محكات واهتمامات المذهب الرومانسيّ. وباختصار فإنه استطاع أن يوفق بين الرومانسية والواقعية، وقد ظلت الأخيرة حية نابضة في صورة بلزاك، ولكن نظرته للأدب كانت مختلفة تمامًا عن نظرة الطبيعيين أنفسهم.


جوستاف فلوبير

وفي الواقع فإن جورج جسنج وجورج مور قد غرسا الرواية الواقعية الفرنسية في التربة البريطانية في أسلوب مميز وخاص بهما، غير أن للمؤثرات الفرنسية بصماتها الواضحة على الأسلوب الذي اتسم بسلاسة اللغة وسلامة التراكيب في وصف الحياة بأبعادها المختلفة.

نظرة يرفضها الإسلام

وبعد، فهذه لمحات من المذهب الواقعيّ الفرنسيّ والروسيّ، عرضناها كما وردت عند كُتّابها، وبيّنا أثرها الواضح في الرواية الانجليزية، ونحن نرى أن هذين المذهبين الفرنسيّ والروسيّ يتعارضان في كثير من الجوانب مع التعاليم الإسلامية، فمثلاً نجد المذهب الفرنسيّ يجعل من الإنسان آلة تحركها يد ضخمة هي يد الطبيعة، وهذه نظرة يرفضها الإسلام جملة وتفصيلاً، لأن الإسلام يأمر الإنسان باتباع الخير وينهاه عن اتباع الشر، والقرآن الكريم يقرر ذلك في كثير من آياته البينات كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (سورة الزلزلة ٧، ٨).

كما نجد المذهب الروسيّ يفسر الحياة وفقًا للنظرية المادية الجدلية، وهذا أيضًا مرفوض من وجهة النظر الإسلامية رفضًا باتًا، لأن الإسلام قرر أن الإنسان جسد وروح، فهو مأمور بالعناية بالجانب الماديّ وبالجانب الروحيّ معًا. ونحن إذ نعرض هذه الأفكار إنما نرمي من وراء ذلك إلى تمهيد السبيل للدارسين للرواية الانجليزية التي تأثرت تأثرًا كبيرًا بهذه الأفكار في أوائل القرن العشرين كما رأينا في روايات جورج جسنج وجورج مور، آملين أن تقتصر دراساتهم لهذه المذاهب على ما يعين منها على فهم تأثر الأدب الانجليزيّ بها دون التأثر بما فيها من زيف وحجج باطلة، والله المستعان، وإليه ترجع الأمور.

الهوامش

(1) Quoted by Damian Grant, Realism (London, 1970), p. 51.

(٢) الدكتور محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، بيروت، دار العودة، ١٩٨٣م، ص ٣٨٨.

(٣) المرجع السابق: ص ٥٥ - ٥٦.

(٤) تاريخ الأدب الغربي: تأليف نخبة من الأساتذة المختصين، دمشق، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الجزء الثاني، (١٩٨٤ م) ص ٥٩٦.

(٥) المرجع السابق: ص ٥٩٧.

(٦) الدكتور محمد غنيمي هلال: مرجع سابق، ص ٣٩٥.

(7) Quoted by Gilbert Phelps, The Russian Novel in English Fiction (London, 1956), p. 55.

(8) George Gissing, Letters (London, 1927), pp. 128-129.

(9) Quoted by Frank Swinnerton, George Gissing: A Critical Study (London, 1912), pp. 21-22.

(10) George Moore, Confessions of a Young Man (London, 1926), p. 66.

(11) Ibid., p. 205.

صداع العقول

مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ



أبو عبد الرحمن
ابن عقيل الظاهري

في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من عَشِقَ فَعَفَّ وكتم ومات مات شهيداً».

والصواب أنه موقوف، وهو من كلام ابن عباس رضي الله عنهما وفتواه.. قَاسَ قتيل العشق العفيف الصابر على أحد الشهداء، والقياس يصيب ويخطئ، ثم رُفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وَهْمًا لا عن تعمد كذب.

والحكم في هذا الحديث عند العلماء رباعي:

فمنهم من صححه.

ومنهم مَن حَسَّنه.

ومنهم مَن ضَعَّفه.

ومنهم من جعله موضوعًا.

والذين لم يُحسنوه ولم يصححوه اختلفوا:

فمنهم من صحح معناه كشيخ الإسلام ابن تيمية، ومنهم من حكم بفساد معناه كابن قيم الجوزية.

والصواب صحة بعض معناه، وهو أن العاشق العفيف الصابر يؤجر، ويتضاعف أجره بقدر نيته في تركه الإثم خوفًا من الله، يدل على ذلك الحديث الصحيح عن الثلاثة أصحاب الغار في خبر من كان قبلنا.

قال أبو عبد الرحمن: وقد أَلَّفْتُ جزءًا في هذا الحديث. إلا أنه يهم منه الآن جانب صداع العقول في محاكمة صراع القوم.

وممن صححه لفظًا ومعنى مُغَلْطَاي في كتابه عن المحبين، والزركشي في اللآلئ المنثورة، والسخاوي في المقاصد، والبقاعي في أسواق العشاق.

وحجة من صححه اتصال السند، وثقة الناقل خلال سلسلة الإسناد، وعدالته.

قال أبو عبد الرحمن: التصحيح دعوى خرقاء تنافي أصول المصطلح، لأن أحد أسانيده غير مُسَلَّم باتصاله وهو إسناد الخرائطي إذ ورد عنده بإسقاط أبي حازم والرواية مباشرة عن يعقوب وهو لم يدركه.

والإسناد الثاني مداره على سويد، وعلى التسليم بصدقة في ذاته فإن الرجحان على أن هذا من أوهامه، ولا يعني روايةُ الأكابر عنه نفيَ وهمه، لأنه أغرب في أحاديث رواها عنه الأكابر.

وأما من حسنه فلم أجد غير الزرقاني في مختصر المقاصد الحسنة (١).

قال أبو عبد الرحمن: وتُخَرَّج حجته بناء على واقع روايات الحديث وأصول المصطلح في التحسين بكون راويه غير متهم بالكذب، وإنما الأمر يتعلق بالوهم لسوء حفظ، أو آفة عمى تمنع من صيانة الكتاب عن الدس فيه، لأن سويدًا كان ضريرًا وقد زال الوهم بشواهد أخرى، كما أن هذا الحديث معمول به لأن كثيرين من العلماء قبلوه في شعرهم..

قال الإمام أبو محمد ابن حزم:

فإن أهلك هوى أهلك شهيدًا
وإن تمنن بقيت قريرَ عينِ
روى هذا لنا قوم ثقات
نأوا بالصدق عن كذب ومين

وقال محمد بن محمد الصايغ:

سأكتم ما ألقاه يا نور ناظري
من الوجد كيلا يذهب الأجر باطلا
فقد جاءنا عن سيد الخلق أحمد
ومن كان برًّا بالعباد وواصلا
بأن من يمت في الحب يكتم وجده
يموت شهيدًا في الفراديس نازلا
رواه سويد: عن علي بن مسهر
فما فيه من شك لمن كان عاقلا
وما ذا كثير للذي مات مفردًا
سقيما عليلا بالهوى متشاغلا

وقال أبو الوليد الباجي:

إذا مات المحب جوى وعشقا
فتلك شهادة يا صاح حقا
رواه لنا ثقات عن ثقات
إلى الحبر ابن عباس ترقّى

وقال عبد الكريم بن هوازن القشيري:

إن المحب إذا تُوفي صابرًا
كانت منازله مع الشهداء
يرويه أقوام غدوا في صدقهم
علماء ناهيك بهذا الداء

وقال عبد الله بن المبارك الإمام:

حدثنا سفيان عن خالد
عن خالد عن سهل الساعدي
يرفعه من مات عشقًا فقد
استوجب العشق من الماجد

وقال ابن الربيع:

تعفف إذا ما تَخْلُ بالخلِّ عالما
يكون إلهي ناظرًا وشهيدا
ففي خبر المختار من عف كاتما
هواه إذا مامات مات شهيدا

وقال عبد الغني النابلسي:

يا من يحب حبيبه
اترك جميع العيوب
وأقدم بنفس منيبة
واشرب بألطف كوب
ولا تخف شر ريبة
من جاهل محجوب
روى الثقات غريبة
للديلمي المرغوب
في ذي المعاني نسيبه
فردوسه المطلوب
قد قال من بث طيبه
طه شفا للقلوب
العشق من غير ريبة
كفارة للذنوب

قال أبو عبد الرحمن : أما رواية أبي نواس في شعره فلا عبرة بها.

قال أبو عبد الرحمن: التحسين ها هنا منهج خاطئ، لأن شواهد هذا الحديث نوعان:

صحيح غير مرفوع فَيُحمل ما لم يَصح على ما صحّ.

وغير صحيح لوهم أو اتهام بالكذب، فيبقى الشاهد معلولاً في ذاته، فلا يتقوى به إسناد آخرُ معلول من وجه آخر بعلّة تتعلق بالوهم.

وأما أقوال العلماء فَلَيست كلها نصًا في التحسين، بل تذكر الورود بمعنى أنه روي، وليس كل مروي يكون صحيحًا أو حسنًا.

كما أن الفتوى هاهنا غرض شعري، ومجاراةٌ مبناها على التسامح لا سيما أن لمدلول الحديث معنى صحّحه ابن عباس قياسًا لا نصًا.

ولو صح أن أحد هؤلاء العلماء صححه أو حسنه لكان ذلك رأيًا يُرَدُّ إلى الأصول.

قال أبو عبد الرحمن: وهناك من ضَعَّفه ولم يبين درجة ضعفه حسب اصطلاح معين: أهو من الضعيف الراجح بطلانه، أم الضعيف الذي لم تقم شواهد صحته، فيكون محتمل الطرفين حكمه التوقف؟.

(٢)

قال أبو عبد الرحمن: قام البرهان على أنه حديث بَاطلٌ رَفْعُهُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو صحيح الإسناد إلى ابن عباس رضي الله عنهما من قوله موقوفًا عليه.

ومنهم من حكم بوضعه (٣).

وممن بالغ في الحكم بوضعه ابن قيم الجوزية في عدد من كتبه.

وفي هذا الحكم إجحاف، لأنه يعني تعمد الكذب، وقد قام البرهان على أنه محمول على الوهم لا تعمد الكذب، وما كان هكذا يكون ضعيفًا لا موضوعًا.

ويكون من الضعيف المردود الذي نُسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهمًا لا وضعًا.

قال ابن قيم الجوزية: «هذا حديث باطل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعًا لا يشبه كلامه، وقد صح عنه أنه عدّ الشهداء ستة فلم يذكر فيهم قتيل العشق شهيدًا، ولا يمكن أن يكون كل قتيل بالعشق شهيدًا، فإنه قد يعشق عشقًا يستحق عليه العقوبة».(٤).

وقال: «ومما يوضح ذلك: أن النبي صلى الله عليه وسلم عد الشهداء في الصحيح، فذكر المقتول في الجهاد، والمبطون، والحرق، والنفساء، يقتلها ولدها، والغرق، وصاحبَ ذات الجنب، ولم يذكر منهم من يقتله العشق.

وحسبُ قتيل العشق أن يصح له هذا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما، على أنه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله، ويعف لله، ويكتم لله، لكنّ العاشق إذا صبر وعفّ وكتم مع قدرته على معشوقه، وآثر محبة الله وخوفه ورضاه، هذا من أحقّ مَن دخل تحت قوله تعالى: ﴿وأما مَن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى﴾ (سورة النازعات: ٤٠ - ٤١)، وتحت قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ (سورة الرحمن: ٤٦).

فنسأل الله العظيم، رب العرش الكريم أن يجعلنا ممن آثر حبه على هواه، وابتغى بذلك قربه ورضاه» (٥).

«فإن هذا الحديث لايصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز أن يكون من كلامه، فإن الشهادة درجة عالية عند الله، مقرونة بدرجة الصديقية، ولها أعمال وأحوال.. هي شرط في حصولها، وهي

مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ

نوعان:

عامة وخاصة، فالخاصة الشهادة في سبيل الله.

والعامة خمس مذكورة في الصحيح ليس العشق واحدًا منها.

وكيف يكون العشق الذي هو شرك في المحبة، وفراغ القلب عن الله، وتمليك القلب والروح، والحب لغيره تُنال به درجة الشهادة؟.

هذا من المحال، فإن إفساد الصور للقلب فوق كل إفساد، بل هو خمر الروح الذي يسكرها، ويصدها عن ذكر الله وحبه والتلذذ بمناجاته، والأنس به، ويوجب عبودية القلب لغيره، فإن قلب العاشق متعبد لمعشوقة، بل العشق لب العبودية، فإنها كمال الذل، والحب والخضوع والتعظيم، فكيف يكون تَعبُّد القلب لغير الله مما تُنال به درجة أفاضل الموحدين وساداتهم، وخواص الأولياء؟.

فلو كان إسناد هذا الحديث كالشمس لكان غلطًا ووهمًا لأنه لم يُحفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظ العشق في حديث صحيح البتة.

ثم إنّ العشق منه حلال، ومنه حرام، فكيف يُظن بالنبي صلى الله عليه وسلم أنه يحكم على كل عاشق يكتم ويعف بأنه شهيد؟.

أفترى من يعشق امرأة غيره، أو يعشق المردان والبغايا ينال بعشقه درجة الشهداء؟

وهل هذا إلاّ خلاف المعلوم من دينه صلى الله عليه وسلم بالضرورة؟.

كيف والعشق مرض من الأمراض التي جعل الله سبحانه لها الأدوية شرعًا وقدرًا، والتداوي منه إما مستحب، وإما واجب إن كان عشقًا حرامًا.

وأنت إذا تأملت الأمراض والآفات التي حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابها بالشهادة، وجدتها من الأمراض التي لاعلاج لها، كالمطعون، والمبطون، والمجنون، والحريق، والغريق، وموت المرأة يقتلها ولدها في بطنها، فإن هذه بلايا من الله لاصنع للعبد فيها، ولا علاج لها، وليست أسبابها محرمة، ولا يترتب عليها من فساد القلب وتعبده لغير الله ما يترتب على العشق» (٦).

قال أبو عبد الرحمن: ورود حديث عن الشهداء لم يَذْكُر العاشق العفيف الصابر لا يعني أن حديث شهادة العاشق باطل، لأن الأحكام لا تؤخذ من نَصٍ واحد، ولأن حديث الشهداء لم يرد بصيغة الحصر.

ودفعي للاحتجاج بحديث الشهداء إسقاط للحجة، وليس إسقاطًا لدعوى أن حديث من عشق فعف غير ثابت.

قال أبو عبد الرحمن: ولا نكارة في معنى الحديث جملة، ولكن الذي يُنْسَبُ إلى الشرع بعض معناه.

وبيان ذلك: أن فيه تبشير العاشق الصابر، لأنه حكم له بالشهادة، والجنة دار الشهداء.

وفيه الحكم بأنه شهيد.

فأما مدح العاشق الصابر وتبشيره فذلك معنى شرعي بمقتضى نصوص العفة والصبر، وبمقتضى حديث أصحاب الغار.

وأما الحكم بشهادته فذلك زيادة شرع لاتجوز إلا بنَصٍ، وهو ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله وفتواه، ولا محمل له إلا على القياس، فأثبت ابن عباس الحكم اجتهادًا.

والتداوي من العشق واجب على كل تقدير.

ولا معنى لإنكار ابن قيم الجوزية مشروعية العشق، لأن الأجر والشهادة للعفة والكتم والصبر لا للعشق، والله المستعان.

الحواشي:

(١) قال ابن قيم الجوزية في الجواب الكافي ص ٢٥٧: «وكلام حفاظ الإسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان، وإليهم يرجع في هذا الشأن، ولا صححه ولا حسنه أحد يُعَولُ في علم الحديث عليه، ويرجع في التصحيح إليه، ولا من عادته التسامح والتساهل، فإنه لم يصف نفسه.[قال أبو عبد الرحمن: العبارة ها هنا قلقة]، ويكفي أن ابن طاهر الذي يتساهل في أحاديث التصوف ويروي منها الغث والسمين قد أنكره وشهد ببطلانه».

وقال في زاد المعاد ٢٧٦/٤: «فقلد أئمة الحديث العاملين به وبعلله، فإنه لا يُحْفَظ عن إمام واحد منهم قط أنه شهد له بصحة، بل ولا بحسن، كيف وقد أنكروا على سويد هذا الحديث، ورموه لأجله بالعظائم، واستحل بعضهم غزوه لأجله؟».

قال أبو عبد الرحمن: وذكر الشيخ حمدي عبد المجيد محقق خلاصة البدر المنير ٢٦٢/١ أن للشيخ أحمد بن محمد الصديق الغماري رسالة في درء الضعف عن حديث من عشق فعف، ووعد بنشره.

(٢) حققت مثل هذا التفريق الضروري في كتبي الثلاثة: تضعيف حديث دخول الجنة بجواز من الرحمان، وقيء المغتاب، والبرهان على تحسين حديث سلمان في خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان.

وممن ضَعَّفَ حديث: «من عشق» المناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير ٤٣١/٢.

وبعضهم اكتفى بالقول بأن فيه مقالاً، أو نظرًا، أو لخص إعلال الأئمة له كابن الملقن في خلاصة البدر المنير ٢٦٢/١.

(٣) ممن حكم بوضعه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ٤٠٢/١.

ومن أورده في الكتب الخاصة بالموضوعات فقد حكم بوضعه كالشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص ٢٥٥، وابن قيم الجوزية في المنار المنيف ص١٤١، رقم ٣٢١، وتبعه الصباغ في تحقيقه لمختصر المقاصد ص ١٩٦.

وهناك كتب جمعت بين الضعيف والموضوع، ولكن سياق المؤلف يُوحي بأنه أراد التضعيف مثل كتاب الكشف الإلهي للطرابلسي ٧٠٣/٢، قال: حكم ابن القيم بوضعه، وانتصر له الزركشي بتقويته بتعدد طرقه.

(٤) روضة المحبين ص ١٧٩.

(٥) الجواب الكافي ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٦) زاد المعاد ٣٧٦/٤ - ٣٧٨.

المالديف
١٢٠٠ جزيرة مهددة بالغرق

عواطف شلبي



عندما تدور الطائرة فوق المالديف يشعر الراكب ـ وهو يشاهد العديد من الجزر الصغيرة التي تبدو نقطا خضراء اللون مترامية في مياه المحيط ـ يشعر الراكب كما لو كان قائد الطائرة يبحث عن جزيرة كبيرة نوعا ليهبط فوقها.

جاءت تسمية المالديف من الكلمة السنسكريتية مالودهيب Malodheep، والتي تعني باقة من الزهور أو أوراق الشجر، والكلمة بالتأكيد مناسبة تمامًا لوصف تلك المجموعة الرائعة من الجزر الصغيرة (١٢٠٠ جزيرة) الواقعة في المحيط الهندي جنوب غربي سريلانكا، والمترامية حتى خط الاستواء على مسافة قدرها ٨٢٠ كيلومترا من الشمال إلى الجنوب، و١٣٠ كيلومترا من الشرق إلى الغرب. فالمالديف عبارة عن أرخبيل مستطيل الشكل في سلسلة من الجزر المرجانية موزعة بين ١٩ إقليمًا «مجموعة جزرية».



موقع المالديف

وتتنوع طبيعة الجزر من الشواطئ الرملية الناعمة، والنتوءات الصخرية، إلى الجزر المرجانية الكاملة، ولا يزيد طول بعض الجزر على ميل واحد، في حين يبلغ امتداد أطولها حوالي أربعة أميال ونصف.

مطار على الماء!

بالنسبة لمناخ أرخبيل المالديف، ليس هنالك فارق كبير في الطقس أو المناخ بين شهور السنة، حيث يبلغ الفارق بين أعلى درجة حرارة في العاصمة وأدناها (٢٣ - ١٣)، ونظرًا لموقع المالديف على خط الاستواء فإن شهر يوليو هو أشد الفصول حرارة، وشهر يناير هو الأكثر برودة، وذروة سقوط الأمطار هي يونيو ويوليو.. ويتيح هذا المناخ الاستوائي الفرصة لنمو غطاء نباتي كثيف.. فتكثر في المنطقة أشجار الموز والمانجو والجميز.

من نافذة الطائرة تبدو الجزر، التي تغطيها الأشجار الاستوائية الكثيفة، كأنها مجموعة من الزهور الخضراء المنتظمة على شكل باقة، ثم تهبط الطائرة في مطار هولول Hulule، وهولول هي الجزيرة التي استصلحت أرضها وسويت منذ أواخر السبعينيات لتصبح مطارا للمالديف. يشعر الراكب بادئ الأمر كما لو كانت الطائرة تهبط في الماء ثم يتأكد له بعد ذلك أنها هبطت على ممر أرضي

طفل يحمل صيده الثمين

منظر طبيعي ومسكن من ....

صغير محاط بمياه المحيط من الجانبين.

٦٤ جزيرة سياحية

في مطار المالديف تُمنح تأشيرات الدخول وإقامة لمدة شهر للسائحين كافة ما عدا السريلانكيين الذين يلزم لدخولهم الحصول على تأشيرة دخول من سفارة المالديف بكولومبو، وهي التمثيل الخارجي الوحيد للمالديف بالإضافة إلى بعثتها في الأمم المتحدة في نيويورك.

عندما ينتهي السائح من الإجراءات الجمركية الدقيقة ويخرج من المطار، يجد القوارب - وهي وسيلة الانتقال في المالديف - مصطفة لتوصيل السياح إلى جزرهم، ويبلغ عدد الجزر المعدّة، لاستقبال السياح ٦٤ جزيرة كل منها عبارة عن كبائن على طول الشاطئ ومطعم وصالات استقبال مزودة بكافة التسهيلات اللازمة للإقامة المريحة، وهناك بعض الجزر ذات المظهر المميز مثل جزيرة فادو Vadoo، التي أقامتها إحدى الشركات اليابانية على شكل كبائن داخل مياه المحيط، وهي ذات أرضية زجاجية ومزودة بأنوار من أسفل لتجذب الأسماك إليها بحيث يشعر المقيم فيها كما لو أنه يغوص في مياه المحيط محاطًا بالأسماك ذات الألوان

المرجان الكلسي يصنعون منه الجبس



الحياة تحت مياه الجزر



جدار بيت مالديفي يبدو عليه المرجان الأحمر والجبس الأبيض

الجذابة البراقة.

سبل كسب العيش

بالرغم من أن المالديف تشغل مساحة ٩٠ ألف كيلومتراً مربعًا من المحيط الهندي إلا أن مجموع مساحة أراضي الدولة هي ٢٩٨ كيلومترا مربعا فقط، أما باقي المساحة فمياه المحيط التي تتناثر فيها الجزر. وحسب آخر تعداد للسكان عام ١٩٩٠م، يبلغ عددهم ٢١٤ ألف نسمة، ويعيش ربع هذا العدد في العاصمة «ماليه» Male، أما الباقون فإنهم متبعثرون في ٢٠٠ جزيرة، و٩٠٪ من تلك الجزر لا يصل عدد سكان الواحدة منها إلى ١٠٠٠ شخص. وسكان المالديف قصار القامة سمر البشرة يتميزون بالشعر الأسود الداكن الغزير المسترسل، ويتحدثون اللغة الدهيفية التي يرجع أصلها إلى اللغة السنسكريتية.

وصيد السمك دعامة الاقتصاد المالديفي، ويشتغل بهذه المهنة حوالي نصف عدد القوى العاملة. والمالديف غنية





وجهان من المالديف

بأنواع السمك المختلفة، وتشتهر بسمك التونة، الذي يمثل الانتاج الرئيس الذي يتم تصديره إلى اليابان وسيريلانكا.

المركز الحضري

العاصمة «ماليه» هي أكبر الجزر، وتبلغ مساحتها حوالي ٢٠ كيلومترًا مربعًا، وجزيرة «ماليه» هي المجتمع الحضري الوحيد بين جزر المالديف. وتوجد فيها رئاسة الدولة والدواوين الحكومية، ومقر المركز الإسلامي الذي أُنشئ عام ١٩٧٠م. وماليه هي الجزيرة الوحيدة التي يُسمح للأجانب بالإقامة فيها، فباقي الجزر التي يعيش فيها المالديفيون لا يصرح للأجانب بالإقامة، ويسمح لهم فقط بالزيارة، وهو إجراء تهدف الحكومة من ورائه إلى تقليل اختلاط أهالي البلاد بالأجانب، حرصًا على العادات والتقاليد المالديفية المتوارثة. والمالديف من الدول التي تحرص على تطبيق تعاليم الإسلام، لذلك فإن الزائر لجزر المالديف يجد نفسه مُلزمًا بالاحتشام في الملبس، وهناك حد أدنى للملبس المسموح به للسياح عند زيارة الجزر المأهولة بالسكان المالديفيين. وتَفْصِلُ الجزر عن بعضها قنوات مائية عميقة تصعب الملاحة في بعضها حيث تكثر الشعاب المرجانية التي تحتم على ملاّحي القوارب توخي الحرص الشديد عند المرور بالقرب منها، وأماكنها معروفة لدى السكان المحليين، ولذلك فإن الأجنبي يحتاج دائما لأن يتنقل في القارب بصحبة أحد البحارة.

السياحة في قوارب زجاجية

ويُمضي السياح وقتهم بجزر المالديف في الصيد وفي الغوص في مياه المحيط حيث تبدو الأسماك المختلفة الألوان وهي تتراقص تحت الماء كما لو كنت تشاهد قوس قزح يلمع في السماء بألوانه الزاهية المتداخلة، وحتى دون الغوص تحت الماء تستطيع - وأنت على الشاطئ أو وأنت تستقل مركبا زجاجيا، - أن ترى من خلال مياه البحيرات الشفافة كالبللور، أنواعا من الأسماك بأحجام مختلفة وألوان عجيبة ساحرة، فنجد الأسماك المخططة والمنقطة بألوان زاهية لامعة، ومع ضوء الشمس الساطعة ولون الرمال البيضاء الناعمة يكتمل جمال المنظر وروعته فلا تملك إلا أن تهتف: سبحان الله .

وبعد قضاء يوم ممتع وسط عجائب الطبيعة من الأسماك والنباتات والأحياء المائية تكون النزهة المائية الوحيدة هي زيارة جزيرة «ماليه» العاصمة



أشجار جوز الهند تنتشر في الشواطيء المالديفية

حيث تشاهد القوارب القادمة من كافة الجزر قاصدة «ماليه».

انتشار الإسلام

عندما كان القارب الذي أقلّنا يتقدم نحو العاصمة سمعت صوت المؤذن ينادي لصلاة المغرب بالآذان الشرعي. كانت سعادتي لا توصف وأنا أسمع اسم الله ورسوله في عرض المحيط الهندي، وحمدت الله الذي أوصل الدين الحنيف إلى تلك المناطق النائية.

تاريخيا لا يوجد سجل حول أول المستوطنين في جزر المالديف، ولا يعرف على وجه اليقين من هم سكانها الأوائل، ولكن المعتقد أن بعض سكان المالديف الأصليين من العنصر الدرافيدي Dravidians الذين هاجروا من جنوب الهند ووصلوا إلى جزر المالديف في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد، ثم أتت موجة ثانية من

المهاجرين بعد ذلك وكلهم من الآريين Arians الذين كانوا قد استوطنوا الهند وسيلان قبل ذلك بعدة قرون. وكانت البوذية هي الديانة السائدة قبل انتشار الإسلام في المالديف، ومازالت هنالك، في بعض الجزر بقايا لمعابد بوذية. وفي عام ١١٥٣م اهتدى ملك المالديف إلى الإسلام، فانتشر الدين الحق في ذلك الأرخبيل، الذي أصبح جزءاً من العالم الإسلامي.

فمن الثابت أن شعب المالديف اهتدى إلى الإسلام في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي في عهد «ماهاكا لامينجا» الذي اتخذ فيما بعد اسم (محمد). وسجل التاريخ أن الذي قام بجهود نشر الإسلام هناك داعية إسلامي اسمه (أبو البركات يوسف البربري)، الذي قدم من البربر القاطنين في شمال أفريقيا.. ولا يزال المالديفيون بأجمعهم يعتنقون الإسلام، وهم يتبعون المذهب الشافعي.

التزاوج بين «٦» لغات

لغة المالديف الحالية (الدهيفية Dhivehi) هي لغة هندو - آرية Indo-Aryan، وفي الماضي كانت لغة (الأيلو)، وهو اللفظ الذي كانت تعرف به اللغة السنهالية القديمة، أي لغة شعب سيريلانكا. ومع دخول الإسلام تأثرت اللغة المالديفية باللغتين العربية والفارسية، وهناك مؤشرات على أنها تأثرت نوعًا باللغات الملاوية والملاجاشية والسواحيلية (لغة شرق أفريقيا)، نتيجة للعلاقات التجارية التي كانت قائمة مع هذه المناطق من العالم.

تُكتب اللغة المالديفية من اليمين إلى اليسار بطريقة تسمى (تانا)، وقد كانت قديمًا تكتب من اليسار إلى اليمين بطريقة تشبه إلى حد كبير الكتابة السنهالية، وبرغم أن اللغة الدهيفية هي اللغة الرسمية للدولة، فإن المالديفيين يستخدمون اللغة الانجليزية على نطاق واسع، إذ تعد اللغة الثانية بعد الدهيفية، إلى جانب كونها لغة تعليم في المؤسسات التعليمية الحكومية.

تجربة مع الاستعمار

وقد خضعت المالديف لفترتين استعماريتين، الفترة الأولى استمرت ١٧ عامًا تحت سيطرة الاستعمار البرتغالي ابتداء من عام ١٥٥٨م، حيث كانت المالديف تابعة للحاكم البرتغالي المقيم في القاعدة البرتغالية في «جوا» بالهند، وقد تصدى «محمد تاكوروفان» للمُستَعمِر، وقاد المالديفيين سنة ١٥٧٤ م في كفاح تُوِّج بطرد البرتغاليين. وفي عام ١٧٥٢ م قدم غزاة من شاطئ «مالابار» بجنوب الهند، واحتلوا العاصمة لمدة أربعة أشهر، وتصدى لهم شعب المالديف، وطردهم، بقيادة حسن «فانيكو فان» الذي أصبح في ما بعد ملكًا باسم «السلطان حسن عز الدين». وفي عام ١٨٨٧م أصبحت المالديف محمية بريطانيا وظل الشعب المالديفي يقاوم السيطرة البريطانية حتى أجبرها على الرحيل، مع الاحتفاظ بقاعدة للسلاح الجوي الملكي البريطاني في جزيرة Gan. وقد استمر نزاع المالديفيين مع بريطانيا خلال الفترة من عام ١٩٥٧م حتى ١٩٦٥م حول استئجار تلك الجزيرة، وفي يوم ١٩٦٥/٧/٢٦م وافقت بريطانيا على استئجار الجزيرة وبذلك حصل المالديفيون على استقلالهم التام، واعتبر ذلك التاريخ عيداً قوميًا للمالديف، وفي نفس العام (١٩٦٥م) انضمت المالديف للأمم المتحدة، وفي عام ١٩٦٦ م أنهت بريطانيا من جانبها عقد إيجار جزيرة جان Gan، ورحلت قوات السلاح الجوي البريطاني عن الجزيرة.

حكم السلاطين جزر



تباعد الجزر وصعوبة المواصلات عقبة أمام تطور التعليم وغيره من الخدمات

المالديف بطريقة غاشمة حتى عام ١٩٣٢ م عندما أجبرهم الشعب على وضع دستور للبلاد يمنع تسلطهم ويحظر عليهم التمتع بسلطات مطلقة، وقد أقيمت أول جمهورية في المالديف عام ١٩٥٣ م عندما أصبح أمين ديدي أول رئيس جمهورية لها، وقام بأول حركة إصلاحية لتحديث المالديف، إلا أن حكمه لم يدم طويلا،


بعض السياح الأجانب يمارسون رياضة الغوص

فقد حدث انقلاب ضده بعد عام واحد، أعاد المالديف لحكم السلاطين. وكان آخرهم السلطان محمد فريد ديدي. إلا أن اسم السلطان أصبح لقبا فقط، بينما كان إبراهيم ناصر رئيس الوزراء منذ عام ١٩٥٧م - والذي أصبح رئيسا للجمهورية فيما بعد - هو الحاكم الفعلي ومهندس تحديث المالديف. وفي أواخر عام ١٩٧٨م، بعد ٢١ عامًا، فاجأ إبراهيم ناصر الشعب المالديفي برغبته في اعتزال الحكم، وانتُخبَ مأمون عبد القيوم رئيسًا للجمهورية خلفا لناصر، وتم تجديد رئاسة عبد القيوم لفترة رابعة.

تأثيرات ثقب الأوزون

المالديف من أكثر بلاد العالم تأثرا بالتغييرات المناخية التي حدثت نتيجة لثقب طبقة الأوزون وارتفاع درجة الحرارة الذي يهدد بذوبان الجليد من منطقة القطبين، مما يترتب عليه ارتفاع مستوى مياه المحيطات، وهو ما يعني تعرض هذه الجزر الخضراء للغرق، وقد أدرك العالم خطورة وضع المالديف واستجاب لنداءاتها، وبدأت منذ أوائل الثمانينيات جهود دولية لوضع الخطط، وجمع المعونات لمواجهة ذلك الخطر المحدق بالمالديف، ولإنقاذ الجنة الساحرة، فتم إنشاء مكتب لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية في المالديف بهدف التنسيق بين المنظمات الدولية لحماية الجزر والنهوض بها، ومن ثم بدأت فكرة عقد اجتماع المائدة المستديرة الخاصة بالمالديف، وتم حتى الآن تنظيم أربعة اجتماعات، كان آخرها الاجتماع الذي عقد في واشنطن (أكتوبر١٩٩١م). كما تعقد اجتماعات دورية سنوية بالعاصمة السريلانكية كولومبو لمتابعة ما يتم من نشاطات لحماية جزر المالديف من الأخطار البيئية، وقد أسفرت الجهود الدولية المكثفة عن إنشاء مَصَدَّات للأمواج حول بعض الجزر وما زالت أعمال البناء والتشييد تجري لحماية الجزر من خطر الغرق.

مشكلة الخلخلة السكانية

تواجه المالديف مشكلة أخرى لا تقل خطورة عن مشكلة البيئة، وهي مشكلة تنمية الموارد البشرية وتحتاج لتعاون دولي مخلص لمواجهة هذه المشكلة.

قال لي الوزير إسماعيل شفيع وزير التخطيط والبيئة - أثناء حضورنا اجتماع المائدة المستديرة بكولومبو المخصص لمشكلات المالديف - : إن المشكلات السكانية بالمالديف صعبة ومعقدة، ولن يتسنى حلها إلا بتكاتف دولي. فمجموع سكان المالديف يقل عن ربع مليون نسمة، ويعيش ربع هذا العدد في جزيرة «ماليه» العاصمة، والباقون موزعون على ٢٠٠ جزيرة تقع على مساحة ٩٠ ألف كيلومتر مربع، وتعتبر مشكلة تبعثر السكان على هذا النحو في جزر متباعدة وبأعداد قليلة، إحدى أكبر المشكلات التي تتسبب في صعوبة تقديم الخدمات العامة وارتفاع تكلفة توصيلها إلى سكان بعض الجزر البعيدة، التي يقل تعداد سكان بعضها عن ألف نسمة، ومن ثم أصبح من الصعوبة بمكان توصيل الخدمات التعليمية والصحية إليهم، فضلاً عن صعوبة انتقال السكان إلى الجزر الكبيرة لتلقي الخدمات، فقطع المسافات الطويلة للوصول إلى بعض الجزر يستغرق أحيانًا عشر ساعات بالقوارب السريعة.

إن ما تطمح إليه جمهورية جزر المالديف - هذه الدولة الإسلامية الصغيرة المهددة بالأخطار والتي لا مورد لها إلا الثروة السمكية ودخل السياحة - هو التعاون الدولي وتقديم المساعدات لحماية شواطئها من زحف مياه البحر، وكذلك تقديم المنح الثقافية التعليمية والتدريبية المهنية لأبنائها ليستطيعوا القيام بدورهم في النهضة الاجتماعية والاقتصادية.

مخطوطات جديرة بالدراسة والنشر (١١)



حلقات يكتبها: حمد الجاسر

كتاب النسبة إلى المواضع والبلدان (٢)

وها هي مقتطفات مما ورد في الكتاب :

١ - قال في رسم (التَّريْمي : نسبةً إلى تَرِيْم - بالفتح وكسر الراء، وسكون التحتانية، ثم ميم - : مَدينَة قديمة بأرض حضرموت. قال القاضي مسعود (١) - رحمه الله تعالى - يُقال : إنّ أول من عمرها تَرِيْم بنُ حضرموت بن سبإِ الأصغر، فَسُمِّيت باسمه، وقد خرج منها علماء فقهاء فضلاء ومشائخ أجلاء منهم الفقيه يحيى بن سالم (٢)والفقيه علي بن أحمد ابن بكير. وتوفيا سنة سبع وسبعين وخمس مئة كذا قال القاضي مسعود، وأظنهما قُتلاَ في تلك السنة في فتنة عثمان الزنجيلي(٣) الأمير الذي كان بعدن، فلما علم بوصول السلطان طُغْتُكين بن أيوب من مصر واستيلائه على زَبِيد وأعمالها، هربَ خوفاً منه إلى حضرموت، فقتَل بها جمعًا من العلماء والفضلاء، قال القاضي مسعود: ومنهم الفقيه سالم با فضل صاحب «الذيل على تفسير القشيري»، والفقيه شرف الدين ابن أحمد بن محمد بن صمعج والد السبئي (٤)صاحب «شرح التنبيه»، والفقيه أحمد ابن فضل، والفقيه الصالح الزاهد علي بن محمد بن علي بن يحيى بن حاتم، والفقيه علي بن أحمد بامروان، والفقيه الشيخ جمال الدين محمد بن علي باعلوي، والفقيه عبد الله بن عبد الرحمن باعبيد، صاحب «الإكمال»، والفقيه محمد بن أحمد بن أبي الحب توفي سنة اثنتي عشرة وست مئة قال: وفي تَرِيْم علماءٌ وزهاد وعباد، لا يُحْصَون، ومقبرتها مشهورة البركة، ومدفون في جبّانة تَريم أربعون من أهل بدر (٥) انتهى كلام القاضي مسعود - رحمه الله - وفيها جَمْعٌ من السادة الأشراف (آل باعلوي) كالشيخ عبد الرحمن وأولاده وحفدته وغيرهم خلق لا يُحْصَون، ولما زار الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن أسعد مشايخ اليمن، ووصل إلى حضرموت، ورأى ما فيها من الصالحين الأحياء والأموات، أنشد رحمه الله تعالى ونفع به آمين :

مَرَرْتُ بوادي حَضْرَمَوت مُسَلِّما
فَأَلفيتُهُ بالبِشْرِ مُتَسمًا رَحْبًا
وأُلْفِيتُ فيه منْ جَهَابذة العُلَى
أئمةً لايُلْفَونَ شَرقًا ولاغَرْبًا

وممن يُنسب إليها من فضلاءالمتأخرين إمَام وَقْتنا وبَهْجةُ عصرنا شَيْخي الإمام جمال الدين بن محمد بن أحمد با فضل التَّريمي وتلميذه شيخي الإمَام عفيف الدين عبد الله ابن عبد الرحمن بافضل التَّريْمي رحمهما الله وأدام النفع بذريتهما.

وأمَّا تَرْيَمُ: بالفتح وسكون الراء وفتح التحتانية ثم ميم - كَجذْيَمَ - فَواد بين المضايف ووادي يَنْبُع، قال كُثَيِّر:

أَقُولُ وقَدْ جَاوَزْتُ منْ صَدْرِ رَابغ
مَهَامِهَ غُبْراً يَرْفَعُ الأكمَ آلُها

كتاب «النِّسبة إلى المواضع والبلدان» (٢)

أ ألحيُّ أم صيرانُ دَوْمٍ تناوحَتْ
بتريم قصراً واستحثت شمالها».

٢ ـ وقال في رسم (الشِّحْرِيّ ـ بالكسر وسكون الحاء المهملة ثم راء ـ : نسبة إلى الشِّحْر البلد المعروفة باليمن، سُميتْ بذالك لأن سكانها كانوا جيْلاً من الْمَهَرَة يُسمُّون (الشَّحْرا) (٧) بالفتح، وسكون الحاء وفتح الراء ثم ألف، فحذفوا الألف وكسروا الشين، ومنهم من لم يكسر الحاء والكسر أكثر، وتسمى (الأشحار) أيضا كالجمع، وتسمى (الأشْغَا) ـ بفتح الهمزة وسكون الشين وفتح الغين المعجمتين ثم ألف، لأنه كان بها واد يسمى (الأشْغَا) وكان كثير الشجر، وكان فيه آبار ونخيل، وكانت البلاد حوله من الجانب الشرقي، والمقبرة القديمة في جانبه الغربي، وتسمى أيضا (سَمْعُون) ـ بفتح السين المهملة، وسكون الميم، وضم العين المهملة وسكون الواو ثم نون ـ لأن بها وادي (سَمْعُون) والمدينة من حوله من الشرق والغرب، وشُرْبُ أهلها من آبار في سَمْعُون، وتسمى (الأحْقَاف) والأحْقَافُ الرِّمَال واحدها حقْفٌ، والشِّحْرُ كثيرة الرمال. قال ابن الجوزي : واختلفوا في الأحقاف في أي موضع هو، على أقوال أصحها الشِّحْرُ وذلك قوله تعالى : ﴿واذْكُرْ أخَا عاد إذْ أنذَرَ قَوْمَهُ بالأحقاف﴾ وقد ذكر هذه الأسماء أبو نبقة (٨) واسمه أحمد، كان من أولاد تجار عدن، ثم صار نقيباً لفقراء زاوية الشيخ جوهر، ثم عزم الشِّحْرَ وامتدح سلطانها عبد الرحمن بن راشد، بأشعار كثيرة معظمها على «البال بال(٩)» فقال رداً لمن عاتبه في اختياره الإقامة بالشِّحْرِ من عدن :

قَنَفُوني وقالوا : أطلْتَ التغرّبْ
وأوحشت الوطن
وتعوضت عن (صيرة) بـ (غبغب)
واعتضت (الأشْغَا) من (عدن)
و (سمعون) و (الصرحة) بـ (باب
حقّات) و(الخان) الحسن
والقصور التي تبتدر منها
البدور التي صُبغَتْ فتَنْ
قلت قد غاب عنكم أمْرٌ
ما يفهمه غير أرباب الفطن
ورضيْتُ ابنَ راشد عبد الرحمن
عن كل ما هو في اليمن

وخرج من الشِّحْر جماعة من العلماء الفضلاء كآل أبي شُكَيْلٍ وآل السبتي، وآل ابن حاتم وغيرهم، وإليها ينسب خلق كثير منهم محمد بن معاذ الشِّحْرِي، سمع من أبي عبد الله الفزاري، والجمال محمد بن عمر بن الأصفر الشِّحْرِي الشاعر سمع منه الفرضي بمَارِدِيْنَ سنةَ ست مئة وثمانين.

والشِّحْرِيَ أيضاً نسبة إلى شِحْرِ عُمَانَ منه عمرو بن أبي عمرو الشِّحْرِي.

٣ ـ وقال في رسم (الظَّفَارِي ـ نسبة إلى ظفار بفتح الراء ثم ألفٌ ثم راء . قال ياقوت: إن ظفار مبنيٌّ على الكسر قال : وهي مدينة بأقصى اليمن، على ساحل بحر الهند، قريبة من الشِّحْر. انتهى). وهي فوق الشِّحْر إلى جهة الهند، وبها عيون وغيول وأشجار كثيرة، وينسب إليها القسْط (١٠) لأنه يُجلب إليها من الهند، وتعرف بظَفَار الْحَبُوضي، باسم واليها كان، وإليها ينسب جماعة، ومنها خرج جمع من الفضلاء الصالحين، منهم الخطيب أبو جعفر حمدي ابن جعفر بن فارس المعتز القحطاني، وابنه الخطيب عمر، وحفيده المقرئ محمد بن عمر، كان صديقا لأبي العلاء الفرضي وغيرهم.

وظَفَار اسم لحصْنَيْنِ في اليمن قرب صنعاء، بين كل واحد منهما وبين وصنعاء مرحلتين، أحدهما في بلاد مُرَاد، يمانيّ صنعاء، ويسمى ظفار الواديَيْن، والآخر شامي صنعاء ويسمى ظفار الظاهر، وإلى أحدهما ينسب الْجزْعُ الظَّفَاري.

ومما أضيف في الهامش على كلمة (ظفار الحَبُوضي) : «أحدثها أحمد بن محمد الحَبُوضي ـ بفتح الحاء المهملة، وضم الموحدة ـ أول ملوكهم، وقيل أحدثها أبوه محمد، وكان إحداثها لبضع وعشرين وست مئة، وكان منها إبراهيم بن أبي (.......)(١١) بن يحيى بن فضل (أبا ماجد) الحضرمي، ولي قضاء مرباط ثم قضى (........)(١١) ثم توفي بها، وله ابن أخ اسمه أبو بكر، ومنها يحيى بن أبي قصير، كان فاضلاً أخذ عن الظلعي، ومنها سعد بن سعيد بن مسعود المنحوي مولاهم، تفقه بأبي بكر (أبا ماجد) مقدم الذكر، كان فقيها صالحاً، خطيباً مصْقَعًا، شاعراً مفلقًا، محببا إلى الحبوضيين، وزر لأحمد، ثم لابنه إدريس، وخرج إلى مكة، ثم الشام، يُقال : إنه توفي بدمشق وله مقامات خمسة وعشرون، وصفها بعض الفضلاء». انتهى، من تاريخ ابن أبي الخل، وذكر جماعةً آخرين خرجوا منها.

لا أُطيلُ بنقل مقتطفات من الكتاب لا توجد في غيره، وبالإجمال فهو كثيراً ما

الصفحة (٨٥) من مخطوطة المدرسة المحمودية

يتحدث عن مواضع في جنوب الجزيرة في حضرموت وغيرها فيورد في أحاديثه ما لا يوجد في مؤلفات كتب النسبة المعروفة، ولهذا يُعَوِّل على كتابه كثير من المتأخرين من علماء الجنوب.

ومما تجدر الإشارة إليه أن مؤلفه الشيخ عبدالله الطيب بن عبد الله بامخرمة (٨٧٠ - ٩٤٧هـ) عاش في عصر ساد فيه الجمود، وخَيَّمَ على العالم الإسلامي فيه من سحب الخرافات والتقليد ما شوه معالم الإسلام، فأثر في أفكار ومعتقدات وعبادات كثير من المسلمين وبخاصة ما يتعلق بالأولياء والصالحين، أو من يُعتقد فيهم الصلاح فبالغوا في تكريمهم إلى حد تجاوز ما هو مشروع في ذلك، مثل حبهم وطاعتهم في الأفعال الحسنة، والتأسي بصالح أعمالهم، بل تعدّى ذلك التكريم إلى الاعتقاد بأن لهم من التصرف في شؤون الكون ما هو خاصٌ بالله سبحانه وتعالى مما لا يقدر عليه غيره، ونشأ عن ذلك الاعتقاد صرفُ بعض أنواع العبادة لهم. والعبادة لايجوز صرف نوع من أنواعها إلا لله كالدعاء والاستغاثة ونحوهما.

وقد تأثرت مؤلفات أهل ذلك العصر وهو القرن التاسع الهجري وما حوله - إلا من عصم الله - بكثير من تلك الآراء، ووقعت في هذا الكتاب إشارات ولمحات لا بُدّ من إدراكها، وهي مما لا يتعلق بموضوعه، ولا يمس جوهره، ولا ينبغي أن تكون صارفة عن الاستفادة منه، فالمؤمن يأخذ الحكمة حيث وجدها، ولكن الحقيقة تقضي بالإشارة إلى هذا وتوجب التنبيه إلى ما يحاذر منه.

وما تقدم لا يحول دون الاستفادة مما في هذا الكتاب من العلم في موضوعه، مع التنبيه على ما وقع فيه، مما لا يتفق مع المنهج القويم، ومن هنا فإن نشره سيكون ذا فائدتين: إحداهما: الاستفادة مما فيه من معلومات لا توجد في غيره.

والأخرى: تصحيح ما ينبغي تصحيحه، مما وقع فيه من الأوهام - على قلتها -. فالكتاب ذو شهرةٍ لدى علماء جنوب الجزيرة، ومؤلِّفه عالم جليل، له منزلة سامية في نفوس كثير منهم، ولو لم يكن له من الآثار العلمية سوى هذا الكتاب، وكتابه في «تاريخ عدن» الذي يُعَدّ فَرْداً في موضوعه لكفى لإبراز فضله، ومن المدرك - بداهة - أنه قلّ أن يخلو أيّ مؤلَّف لعَالِم من العلماء مما يُؤخذ عليه، لأنّ الله سبحانه وتعالى هو المتفرد بالكمال وحده، وهو الذي اختص رسله بالعصمة. فقال جلّ ذكره ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾ «النساء: ٨٢»

الهوامش

(١) القاضي مسعود أحد أجداد المؤلف من قبل أمه، تقدم ذكره وتكرر النقل عنه في هذا الكتاب، وفي «تاريخ ثغر عدن».

(٢) كلمة لم تتضح في الصورة.

(٣) الزنجيلي هو : عثمان بن علي الزنجيلي نسبه إلى زنجيلة قرية من قرى دمشق، كان من أمراء توران شاه بن أيوب، ولما رجع استنابه على عدن، وقد غزا حضرموت فقتل عالما عظيما من فقهائها، وصفه الجَنَديُّ بأنه من الذين سعوا في الأرض فساداً، ومع ذلك فله خيرات كثيرة، وله مسجد بعدن ومدرسة ورباط بمكة ، وتوفي سنة ٥٨٣هـ في عدن. ملخص من «تاريخ ثغر عدن» لبامخرمة ص ١٣١.

(٤) كلمة غير واضحة، وقد تُقرأ السبْني.

(٥) لعل هذا من هفوات القاضي مسعود بن أبي شُكَيْل، فمتقدّمو العلماء الذين ألفوا عن أهل بدر لم أر منهم من سمّى أحدا ممن دفن في مقبرة ترِيم.

(٦)الصواب: بكسر التاء كما في «معجم البلدان» وهو ما نقل عنه المؤلف، وترِيمُ هذا واد لايزال معروفا في شمال الحجاز في بلاد مَديَن، ينحدر من جبال حِسْمَى متجها صوب الغرب، حتى يصب في البحر فيما بين بلدتي المويلح وحَقْل بقرب خط الطول : ٢٠َ / ٣٥ْ وخط العرض : ٥٩ / ٢٧ْ وفي هذا الوادي قرية مسكونة باسم ترِيَم.

(٧) لعل الصواب (العكس) إذ وجود المكان يسبق وجود ساكنه.

(٨) (أبو نبقة) غير واضحة في الأصل المصور.

(٩) (البال بال) نوع من الزجل العامي معروف.

(١٠) القسط : عقار يتبخر به، وقد يستعمل دواء.

(١١) كلمة لم تتضح في التصوير.

الشعراء الصهاينة
واستثمار القصص والأساطير اليهودية

د. سعيد عبد السلام العكش

من الصفات البارزة للعنصرية الأوربية خلال القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين التعلق (بالتّلد) مما يترتب عليه النظرة الوراثية إلى الماضي. فبعد انتهاء القرون الوسطى التي كانت بمثابة انفصال عن الماضي القديم، جاء عصر النهضة الذي عدّه الأوربيون عودة إلى الينابيع اليونانية والرومانية القديمة، ووَصْلاً لما انفصل من علاقات خلال القرون الوسطى. وهكذا أخذ كل شعب أوربي يربط حاضره بماضٍ بعيد، ويردُّ أصله إلى مجتمع قديم معين لكي يضفي على نفسه خصوصية معينة، مع استمرارية ارتباطه بذلك المجتمع الذي يعود عهده إلى ما قبل القرون الوسطى(١).

وما كان يجري من التّلدية في ذلك الوقت لقي صداه الواسع تحت ظل الصهيونية، فقد اعتمدت الحركة الصهيونية في بنيتها العقدية (الأيديولوجية) على قصص ورموز التراث الديني اليهودي والأساطير القديمة. ويمكننا أن نتلمس ذلك في اللغة الجغرافية والتاريخية التي يستعملها الصهاينة إلى درجة تحيلها لغة غير مفهومة كلية لغير المطّلع على التراث العبري.

فنرى زعماء الصهاينة يستخدمون العبارات التوراتية في أية محاجّة سياسية، سواء أكانوا يؤمنون دينيا بالتوراة أم لم يؤمنوا. والواقع أن اعتماد الصهاينة الملحدين واللادينيين على النصوص الدينية في كتاباتهم السياسية هو أمر جدير بالنظر. ويمكننا أن نشير هنا - على سبيل المثال - إلى الزعيم الصهيوني بن جوريون (١٨٨٦ - ١٩٧٣ م) وتعلقه المطلق بالتّلد. لقد أعلن بن جوريون في عام ١٩٦٣ م عن قيام ما أسماه «مملكة إسرائيل الثالثة». كانت المملكة الأولى هي مملكة داود، أما المملكة الثانية فهي التي أُقيمت بعد ثورة المكابيين(٢) في عام ١٦٧ ق. م ضد خلفاء الإسكندر(٣).

التراث اليهودي مصدر الإلهام

ومن الجدير بالذكر أن بن جوريون - أول رئيس وزراء لدولة اسرائيل - بذل جهودًا شاقة من أجل وضع التراث اليهودي القديم في مركز الوعي كمصدر للإلهام، وكأداة حيوية للتوحيد القومي. لقد قام بقفزة كبرى إلى الوراء، إلى ألفي سنة خلت، وحفّز ملايين اليهود على القيام بهذه القفزة نفسها.

وكان لهذا التركيز من جانب زعماء الصهاينة على التراث اليهودي القديم أسبابه الواضحة، فلقد وصل اليهود الأوائل إلى فلسطين ومعهم تنوع هائل من الشحنات الثقافية والاجتماعية والتربوية، وكان هنالك سبيل واحد لتحقيق مزيج صالح للحياة بإعطاء كل هؤلاء المهاجرين نقطة مرجعية واحدة، ولغة مشتركة. أما النقطة المرجعية فكانت الماضي البعيد، وأما اللغة فكانت العبرية. وبهذه الطريقة أُنتجت عقيدة

(أيديولوجية) جديدة لتجاوزالخلفيات الجغرافية والتاريخية المختلفة للمستوطنين(٤).

وقد سبقت الحركة الصهيونية السياسية الصهيونية الأدبية بهذا الاتجاه، فقد ارتبط الشعر العبري خاصة - والأدب العبري عامة - بالقيم الروحية الميتافيزيقية ارتباطا عضويا، ففي قصيدة «إن شئت أن تعلم» يتحدث الشاعر الصهيوني بياليك(٥) عن كتب التراث والقصص القديمة باعتبارها مصدر القوة للعالم اليهودي، ويؤكد أن «بيت همدراش»(٦) كان بمثابة البؤرة التي حفظت التراث الروحي لليهود، وشكلت في الوقت نفسه همزة الوصل بين ماضي اليهود وحاضرهم فيقول:

إن شئت أن تعلم النبع
الذي استمد إخوتك الذين قتلوا
أيام بؤسهم، قوتهم وبأسهم
فسر إلى «بيت همدراش» القاهر للدهور
وسترى بعض يهود متجهمين،
وجوههم ضامرة، معقودة الجبين
هم يهود المهجر الذين يحملون نيره الثقيل
يحاولون أن ينسوا عذابهم في صفحة بالية من الجمارا(٧)
يحاولون أن ينسوا فاقتهم في قصص قديمة يروونها
ويطردون همومهم بترانيم المزامير(٨).

الوجود البطولي الخارق

وقد بحث الشعراء الصهاينة عن صور الحياة في الماضي اليهودي، وانطلقوا من مجموعة من أساطير وتصورات ربما لا وجود لها إلا في مخيلتهم، فأقاموا في قصائدهم الوجود «البطولي الخارق» الذي نسبوه إلى اليهود في عصر التوراة، ففي قصيدة «ويدا موسى ثقيلتان» التي استلهمها الشاعر ش. شالوم(٩) من قصة الصراع الذي دار بين الإسرائيليين وعماليق (أحد الشعوب القديمة الواردة في سفر الخروج) (١٠) ينظر الشاعر إلى الإسرائيليين نظرة بطولية خارقة، ويرى أنهم يمثلون النور والنظرة إلى المستقبل، بينما يمثل عماليق التاريخَ الماضي وصوت الأغوار المظلمة في نفس الإنسان، فيقول مصوراً انتصار الإسرائيليين على عماليق:

فيرفع موسى يديه إلى السماء وهو يقول:
ضرب العدو
تراجع ولم يعد
نام معسكر إسرائيل بعد التعب
موسى الراعي وحده
سامع ويقظ
انسدل الستار على حكم عماليق(١١).

وعماليق في الكتابات الصهيونية رمز لكل من يعلن الحرب على «شعب إسرائيل»، فقد كتب الربى يسرائيل هيس مقالاً تحت عنوان «شريعة الجهاد في التوراة» أوضح فيه الأمر الذي يشير إلى محور ذكر عماليق، وقال: «إنه ليس المقصود بذلك مجرد «نزاع بين شعبين» لأن الرب شخصيا مجند في هذه الحرب؛ لأن له مصلحة شخصية في الموضوع». وقد يعتقد القارئ لمقال يسرائيل هيس أنه يعالج موضوعا متصلاً بتفسير بعض إصحاحات «العهد القديم» (الكتاب المقدس اليهودي)، ولكنه في الواقع كان يعالج الوضع الراهن المتصل بعلاقة إسرائيل بالشعوب الأخرى، وبخاصة الشعوب العربية. وقد ختم مقاله بما لا يدع مجالاً للبس بقوله: «سوف يقترب اليوم الذي نُدْعَى فيه جميعا لشريعة الحرب المقدسة؛ هذا من أجل إبادة عماليق»(١٢).

ومن الملاحظ هنا أن الصهاينة حولوا القصة التوراتية إلى برنامج سياسي، على الرغم من أن التاريخ الذي أتى في «العهد القديم» تاريخ ذو مغزى أخلاقي، يجب أن

كلمة «اسرائيل» تعني الاستمرارية عند الصهاينة لذلك اختاروها اسمًا لدولتهم حين احتلوا فلسطين

الشعراء الصهاينة

واستثمار القصص والأساطير اليهودية

يستخلص منه المؤمن العبر، لهذا لا يصلح مثل هذا التاريخ أساسًا لبرنامج سياسي، لأن الرؤية السياسية أكثر تركيبًا من الرؤية الأخلاقية الدينية الصافية، بل هي مختلفة عنها، أحيانا تمام الاختلاف. وإلى جانب هذا فإن كثيرًا من القصص التي وردت في «العهد القديم» والتي تَدَّعِي لنفسها التاريخية، لا يمكن إثباتها بالعودة للتاريخ نفسه، وتظل قصصًا دينية يختلف المفسرون في معناها.

وقد استثمر الشاعر بياليك بعض قصص «العهد القديم» في قصائده الشعرية وحولها إلى برنامج سياسي لخدمة الأغراض الصهيونية، ففي قصيدة «موتى الصحراء الأخيرون» تناول بياليك القصة الواردة في التوراة عن جيل الصحراء، جيل المشتكين والمتذمرين، الذين اختبروا الرب عشرات المرات، وما إن سمعوا من الجواسيس عن سكان أرض كنعان، أنهم أقوياء وضخام الاجسام، وأن مدنهم قوية، حتى رفعوا أصواتهم بالبكاء والعويل(١٣).ولذلك فقد حكم الرب عليهم بأن تسقط جثثهم في القفر(١٤). وقد تناول بياليك هذه الأسطورة، فَصَوَّر «يشوع بن نون» القائد العسكري لعملية غزو أرض كنعان بعد موت النبي موسى وذلك وفق رواية «العهد القديم» ، وقد وقف على قمة تل يهدر بصوته في مواجهة جيشه من اليهود وهو يستعد لغزو أرض كنعان. ويستثمر الشاعر القصة، ويرى أن الانتشار اليهودي الحالي في بلدان العالم مثل الصحراء التي تاه فيها اليهود وماتوا، لذا فهو يدعو الجيل اليهودي إلى الاستيقاظ، ويطلب منه أن يمتثل لصوت«يشوع بن نون» ـ الذي صار بطلاً إسرائيليا معاصرًا ـ ويسير إلى «أرض الآباء» لإعداد مملكة بيت داود(١٥) كسابق عهدها. ولم يكن دافع بياليك من وراء هذه القصيدة إلا الفخر والتغني بالماضي، وإثارة الحماسة بين جموع اليهود للتمسك بفكرة «الوطن القومي» في فلسطين فيقول:

صوته يخرج كالسهم مليئا بالقوة والبأس
وكلمته تشتعل كالشعلة، كالنار
حتى الصحراء المخيفة، الصحراء الخالية
تردد وراءه: «قم إسرائيل، قم أيها المسكين»(١٦).

مصطلحات ومفاهيم تعبر عن الديمومة

ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أن الشعراء والكتاب الصهاينة يستخدمون في قصائدهم وكتاباتهم بعض المصطلحات والمفاهيم التي تعبر عن الديمومة والثبات في تاريخ تطور اليهود، فكلمة «إسرائيل» كما وردت في القصائد السابقة استُعملت لتوحي بالاستمرارية التي لم تنقطع وبالتوارث المتواصل، ولهذا السبب نفسه نجد أن الصهيونية عندما أعلنت عن قيام دولتها في فلسطين عام ١٩٤٨م أطلقت عليها ـ كما نعلم ـ «إسرائيل»، مفضلة ذلك على الاسم الذي كان هرتزل قد اختاره وهو «دولة اليهود»، وكأن الصهاينة حرصوا على تأكيد انتماء هذه الأرض إلى من يزعمون أنهم أسلافهم الأول وهم أبناء يعقوب أو بنو إسرائيل(١٧).

وكما توجد لدى الألمان أسطورة أن الملك الشجاع «فريدريك باربروس» المحبب إلى خيال الشعب لم يمت بل نائم في «كيبهايزر»، كذلك اليهود لا يستطيعون الإيمان بأن الملك داود توفي كأي شخص آخر، بل هو مقيد بقيود من ذهب في انتظار ساعة الخلاص. وإذ ذاك سينهض، ويستيقظ بصفته الملك ـ المسيح ـ الذي يرتقب مجيئه «مشردو إسرائيل» في بلاد شتاتهم(١٨). وهذه الأسطورة هي التي نظمها الشاعر شابيرا (١٩) بعنوان «من رؤيا بت عمي» عام ١٨٨٥م، فهي تعبر عن روح ذلك العصر، وتشتمل على شوق عظيم إلى الخلاص، وعلى حب مستعر للأساطير الشعبية(٢٠).

وكثيرا ما يستثمر بياليك هذه الأسطورة الدينية اليهودية، أسطورة الماشيح «المسيح المخَلِّص»، وحينما كان يُعبِّر عن هذه الفكرة في قصائده، فإنه كان يقصد الخلاص من «عبودية المنفى» وإعداد «مملكة

إسرائيل». بالإضافة إلى أنه بيّن، وأكد أن الخلاص الكوني الإنساني العام هو رهن بمجيء هذا المخلص، وتحقيق مثاليات «الشعب اليهودي». وقد عَبَّرَ بياليك عن هذه الرغبة في الخلاص بصورة مباشرة وصريحة في قصيدته «آثار المسيح». وهذه القصيدة يستهلها الشاعر بالتعبير عن فقدان الأمل في الخلاص لتأخر «الماشيح». في المجيء فيقول:

لم يأت الماشيح بعد ولم يقترب يوم خلاصنا

ولم يسحب كبش الضأن بعد على قمة جبل الزيتون

لقد نفد الدرهم الأخير من جيبنا
ونفدت أنفاسنا وصرنا جميعا أمواتا
لقد تحققت كل النبوءات
التي نطق بها الحكماء وتنبأ بها الأنبياء
هل تحدثوا بالباطل وبثوا الأكاذيب
وإلا فلم إذن تأخر قدوم الماشيح؟(٢١)

إن «ماشيح» بياليك المخلص لا يختلف كثيراً عن «ماشيح» الروايات اليهودية الأسطورية، بوصفه أداة الربِّ في «الخلاص»، ولكن بياليك يستثمر هذه الأسطورة ويدعو اليهود إلى أن يأخذوا زمام المبادرة ويقوموا هم بدور «الماشيح المُنْتَظَر»، وأن يحاولوا تحقيق «الخلاص» بأنفسهم. من هنا فإنه إذا كان المخلص التقليدي مجرد فكرة أخلاقية أو حلم بالعصر الذهبي، فإن مخلص بياليك والصهاينة عامة هو فكرة مثالية تحولت إلى برنامج سياسي يحاول أن يفرض نفسه على الزمان والتاريخ، ولو أدى ذلك إلى الدمار والخراب. وهذا ما يؤكده الزعيم الصهيوني ماكس نوردو (١٨٤٩ - ١٩٢٣ م) بقوله: «إن الصهيونية السياسية غير مرتبطة «بالرؤى الماشيحانية» ولا تتوقع العودة إلى فلسطين بمعجزة بل ترغب في إعداد طريق العودة بجهودها الخاصة»(٢٢).

توظيف أسطورة أرض الميعاد

وقد تناول العديد من الشعراء الصهاينة أسطورة العودة وأرض الميعاد، تلك الأسطورة التي ورد ذكرها في التوراة، فيتحدث سفر التكوين في (١٥/١٨) عن مقابلة إبراهيم لربه، وإلى أن الله وعد إبراهيم بأرض فلسطين قائلا له: «لِنَسْلِكَ أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات». وعلى الرغم من عدم تسليم بعض الصهاينة العلمانيين بحقيقة القصة، إلا أنهم يعمدون باستمرار إلى الربط بين فكرة «الحقوق التاريخية» وفكرة «أرض الميعاد» التي يستمد منها اليهود «الحق الإلهي» في امتلاك فلسطين والتسلط عليها. فيقول الزعيم الصهيوني بن جوريون: «لا يهم إن كانت هذه القصة تسجيلاً حقيقيا لحادثة تاريخية أو لا، المهم هو أن هذه الفكرة مغروسة في الوجدان اليهودي، لذا يجب أن تبقى سارية المفعول حتى بعد أن يثبت أن الوعد المقطوع هو مجرد أسطورة شعبية ليس لها أي مصدر إلهي»(٢٣).

ومن الشعراء الذين استثمروا هذه الأسطورة في قصائدهم الشعرية، الشاعر أمبار(٢٤) الذي تغنى بالعودة إلى فلسطين، وعدّها أرض الآباء، فيقول في قصيدة «الأمل»:

لم نفقد أملنا بعد
ذلك الأمل العريق في القدم
بأن نعود إلى بلاد آبائنا
وإلى المدينة التي عسكر فيها داود(٢٥).

الصهيونية استقت رموزها وأفكارها من التراث اليهودي، ونقلتها من مجالها الديني إلى المجال السياسي

ويتناول الشاعر أمير جلبوع(٢٦) في قصيدة «إسحاق» الكارثة اليهودية التي سببتها النازية. وترتبط القصيدة بقصة التضحية بإسحاق(٢٧) على يد والده إبراهيم (عليه السلام) التي وردت في التوراة. ويستثمر الشاعر القصة ويرى أنه

الشعراء الصهاينة

واستثمار القصص والأساطير اليهودية

على الرغم من نجاة إسحاق إلا أن السكين بقيت معلقة فوق الأبناء، إشارة إلى ضحايا الكارثة النازية من اليهود، اعتقادا منه أن هؤلاء الضحايا من اليهود المعاصرين هم من نسل إسحاق بن إبراهيم فيقول الشاعر:

قبل الصبح تجولت الشمس في الغابة
سوية معي ومع أبي
ويميني بيسراه
كالبرق تلألأت بين الأشجار السكين
فما أشد خوفي إزاء الدماء على أوراق الشجر
وأبتاه، أسرع وأنقذ إسحاق
كي لا ينقص أحد عند وجبة الغداء
أنذا المذبوح، يابني
ودمي هو ذا الموجـــــود على أوراق الشجر(٢٨).

من خلال النماذج الشعرية التي استعرضناها يتضح أن الصهاينة استمدوا من القصص والأساطير الواردة في كتب التراث اليهودي القديم، ونسجوا أساطير التمجيد والبطولة حول الشخصيات القديمة في صور أدبية حديثة، وصاغوا أحداث الحياة اليهودية الحديثة في إطار تاريخي قديم وذلك لتحريك النوازع «القومية» لدى اليهود في العالم لتدعيم الارتباط المزعوم بأرض فلسطين.

ومن هنا يمكننا القول إن الصهيونية استقت رموزها «القومية» وأفكارها ذاتها من التراث اليهودي، ثم فَرَّغت هذه الرموز والأفكار من محتواها الروحي والأخلاقي ونقلتها من مجالها الديني إلى المجال السياسي. وتودّ الصهيونية بهذا، كأي عقيدة (إيديولوجية)، أن تكتسب شرعية، وأن تجند الجماهير وراءها، فتستغل قصص التراث والأساطير اليهودية لتضفي على نفسها صبغة دينية تحبب الجماهير فيها، وتظهر الصهيونية كما لو كانت امتداداً لليهودية وليست نقيضها.

الهوامش والمراجع:

(١) غاي باحويت، الصهيونية والإمبريالية، مقال ضمن أبحاث ندوة طرابلس حول «الصهيونية والعنصرية»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩ م، ص ١٤٢.

(٢) أسرة من الكهنة/ الملوك حكمت اليهود في فلسطين بعد تمردهم على الملك السلوقي انطيوخوس ايفان حاكم سوريا الهيليني. وينتسب المكابيون إلى يهوذا المكابي الذي قاد الثورة اليهودية عام ١٦١ ق. م ضد النفوذ الثقافي الإغريقي. وقد حكم المكابيون حتى دخل القائد الروماني بومبي فلسطين.

(٣) روجيه جارودي، عن الذرائع الدينية والتاريخية للصهيونية، مقال في المجلد الأول من «الصهيونية والعنصرية»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٧م، ص ٣٧.

(٤) د. رشاد الشامي، الشخصية اليهودية، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٦م، ص ١٧٦.

(٥) حاييم نحمان بياليك، شاعر روسي يهودي (١٨٧٣ م - ١٩٣٤ م) يعد أمير الشعراء العبريين المحدثين.

(٦) بيت همدراش هو دار الدراسة، كان يجتمع فيه الدارسون للمناقشة والتدارس والصلاة وعادة ما كان يلحق بالمعبد اليهودي.

(٧) الجمارا كلمة آرامية تعني «الإكمال» أو «دراسة» وهي عبارة عن التعليقات والشروح والتفسيرات التي وضعها على المشنا (الشريعة الشفوية) الحاخامات اليهود.

(٨) كل أشعار حاييم نحمان بياليك، دار نشر «دفير»، تل أبيب، ١٩٤٤ م، ص٢١١.

(٩) ش. شالوم هو الاسم المختصر للأديب اليهودي شالوم يوسف شابيرا. ولد في بولندا عام ١٩٠٤م.

(١٠) سفر الخروج ١٧/٨ - ١٤ «وأتى عماليق وحارب إسرائيل في رفيديم.....».

(١١) نافذة على الأدب العبري الحديث، ص ٦٩.

(١٢) د. رشاد الشامي، الشخصية اليهودية، ص ١٧٧.

(١٣) سفر العدد ١/١٤ - ٣.

(١٤) سفر العدد ٢٩/١٤ - ٣٥: «في هذا القفر يفنون وفيه يموتون».

(١٥) داود هو أكبر ملوك بني إسرائيل قدراً، وقد استمر حكمه أربعين عاما (١٠١٠ - ٩٧٠ ق. م).

(١٦) كل أشعار حاييم نحمان بياليك، ص ٥٧.

(١٧) راجع مقالنا عن نسب اليهود المعاصرين في مجلة الفيصل العدد ٢٠٣.

(١٨) تثير ذكرى الملك داود في نفوس اليهود آمال التحرر والخلاص، ذلك أن اليهود يؤمنون بأن سلالة الملك داود لم تندثر، وأن ملكا من ذريته سيظهر في آخر الأيام، وهو المنقذ الذي ينتظر اليهود مجيئه.

(١٩) ق. أ. شابيرا شاعر يهودي ولد عام ١٨٤١ م، وتوفي عام ١٩٠٠ م.

(٢٠) يوسف كلوزنر، الموجز في تاريخ الأدب العبري الحديث ١٧٨١ - ١٩٢٩م، عكا، ١٩٨٦م، ص ٨٤.

(٢١) د. عبد الوهاب المسيري، اليهودية والصهيونية وإسرائيل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٥م، ص ٢١.

(٢٢) د. عبد الوهاب المسيري، الإيديولوجية الصهيونية، القسم الأول، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٢م، ص ٢٢١.

(٢٣) المصدر السابق، ص ١١٨.

(٢٤) نفتالي هيرتس امبار شاعر يهودي، ولد في جاليسيا عام ١٨٥٦ م، وتوفي في نيويورك عام ١٩٠٩م.

(٢٥) الموجز في تاريخ الأدب العبري الحديث، ص ٨٧.

(٢٦) أمير جلبوع شاعر يهودي ولد في فيلنا عام ١٩١٧ وهاجر إلى فلسطين عام ١٩٣٧ م.

(٢٧) من الشائع عند اليهود طبقا لما ورد في التوراة (سفر التكوين) أن إسحاق بن إبراهيم هو الذي كان سيضحي به أبوه حسبما أمره ربه، وهذا يتنافى مع الحقيقة التي وردت في القرآن الكريم.

(٢٨) نافذة على الأدب العبري الحديث، ص ٧٧.

حوار مع:

د. ظهور أحمد أظهر

أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية بجامعة البنجاب، ورئيس المجمع العربي الباكستاني

اللغة العربية في باكستان: الماضي والحاضر

أجراه: علاء حسني المزين

هو رجل وقف حياته لخدمة لغة القرآن الكريم في هذا الجزء العزيز من وطننا الإسلامي، الذي لم يحظ ـ للأسف ـ بعناية الباحثين العرب في تاريخه وآدابه، بمثل ما حظيت به الأندلس على تشابه ما بينهما.

إذا رأيته في مكتبه المتواضع بالمبنى العتيق للكلية الشرقية بجامعة البنجاب بلاهور، تعود إلى ذاكرتك صور هؤلاء الأفذاذ الأوائل الذين وطدوا ـ بجهود جبارة ـ للضاد في هذه الأصقاع. وفي تواضع جم، وإنكار للذات، ومغالبة لعوامل الإحباط المحيطة ـ وما أكثرها ـ تنوعت إسهاماته في الميدان، فشملت الدراسات الأدبية واللغوية، والترجمة، وتحقيق النصوص، بالإضافة إلى التدريس والمحاضرة وكتابة المقالات، وقد توج جهوده مؤخرًا بتأسيس المجمع العربي الباكستاني.

تجربته مع اللغة العربية فريدة، وإن لم تكن وحيدة في هذه البلاد، إذ أتقنها في بيئته الأعجمية بدأب ومثابرة، ثم صقلت إمكاناته من بعد بفضل صلته العلمية بعالم العربية المحقق الكبير الشيخ عبد العزيز الميمني ـ رحمه الله ـ.

يحمل مخلصًا هموم لغة القرآن، ويدرك بوعي قضاياها الكبيرة، ويؤمن بأهميتها الحضارية في حياة الأمة الإسلامية، ويبشر بمستقبل زاهر لها ما توافرت الظروف والإمكانات التي تتيح فرص التغلب على العقبات.. ومن هنا تنبع أهمية هذا الحوار الذي كان باكورة حوارات مع عدد من المهتمين بمستقبل اللغة العربية في هذا البلد..

ـ هناك اجتهادات متنوعة حول الأسباب التي أدت إلى ضعف انتشار اللغة العربية في شبه القارة الهندية، مقارنة بالمناطق الأخرى التي دخلها الإسلام إبان حركة الفتوح، فماذا ترون في هذه القضية؟

ـ إنما اللغة أداة يحتاج إليها الدين كما يحتاج إليها الحكم الإداري، أما الدين فإنه لا يستطيع وحده أن يفرض لغته الأصلية التي كانت له وعاءً في الوهلة الأولى، وفي بداية الأمر، حيث كانت تلك اللغة هي لغة المؤسس الأول لذلك الدين. وإنما يكفي لمن يعتنق ذلك الدين من الأجانب أن يلم إلمامًا بتلك اللغة أو يترجم له منها إلى لغته، وأما الحكم فهو القادر المسيطر يستطيع أن يفرض لغته على أية أمة من الأمم مهما كانت ذات أدب وثقافة ولغة متقدمة راقية، إلا أن لغة الحكم تنتهي بنهايته ولا تستطيع أن تعيش أو تبقى طويلاً في تلك المنطقة بعد انقراض القوة المنفذة لها، وذلك ما حدث للغات المستعمرين كاللغة التركية والإنجليزية والفرنسية وما إليها.

ولكن إذا اتفق الدين والحكم في فرض لغة من اللغات اعتنق المحكومون دين الحكام، واختاروا لغتهم الأجنبية، ونسوا لغتهم الأم مع تعاقب الأجيال، وذلك ما حدث للغة العربية في المناطق والبلاد التي لم تكن بلادًا عربية قبل ظهور الإسلام، وأما في شبه القارة فلم تكن العربية لغة الحكم الإداري إلا في الفترة الوجيزة التي تلت الحكم العربي في السند والملتان، وأما ضعف

مستواها فيرجع ذلك ـ بالإضافة إلى ذلك السبب المار ذكره ـ إلى عدم الاختلاط والاحتكاك بأهل اللغة، وقلة التبادل الثقافي المباشر مع العرب مع تخلف العربية وضعفها بعد زوال الخلافة.

ـ تحظى اللغة الإنجليزية وثقافتها بعناية فائقة على المستويين الرسمي والشعبي، وتُسمع دعوات من حين لآخر لنبذ الحرف العربي في الكتابة الأردية، ومع العلم بأن ذلك من آثار الاستعمار الإنجليزي الطويل لهذه البلاد، إلا أننا نود أن نعرف تصوركم لحجم الآثار المستقبلية لذلك على وضع اللغة العربية عمومًا، والحرف العربي خصوصًا.

ـ لقد ارتفعت أصوات منادية مطالبة باختيار الخط اللاتيني مكان الخط العربي للغة الأردية وغيرها من اللغات المحلية التي تكتب بالخط العربي مع ثلاثين إلى ستين في المئة من المفردات العربية، إلا أنها لاقت الهزيمة المخزية ولن تعود ما دام القرآن والإسلام باقيين في أمة باكستان الإسلامية بإذن الله.

ـ شهدت باكستان في عهد الرئيس الراحل ضياء الحق اهتمامًا ملحوظًا بنشر اللغة العربية، فلو تفضلتم بإلقاء الضوء على ثمار تلك المرحلة، وما آلت إليه في الوقت الراهن.

ـ لم تكن العربية يومًا لغة إجبارية في المعاهد التعليمية لشبه القارة طوال القرون الماضية، والرئيس الراحل ضياء الحق هو أول حاكم مسلم في هذه المنطقة أصدر أمرًا رسميًا بجعلها لغة إجبارية من الصف السادس إلى الثاني عشر، ولكن حالت دونها البيروقراطية الطاغية العنيدة، وعدم وجود المدرس العربي المؤهل، حيث لا يوجد مدرس عربي مؤهل في تسعين في المئة من مدارس الأبناء، وبنسبة تسع وتسعين في المئة من مدارس البنات، والنتيجة أن العربية قد توقفت، ولم تتقدم عن الصف الثامن، وقالوا إنه من المستحيل أن نتقدم خطوة في هذا المجال، لأن العربية صعبة ثقيلة وليس لدينا الوسائل اللازمة . ورغم هذا كله فقد وفقت أنا بعون الله في تغيير المناهج الدراسية



د. ظهور أحمد أظهر

وتحسينها وإعداد الكتب المنهجية السهلة المفيدة من السادس إلى الثاني عشر من الصفوف، وأما إعداد المدرس العربي المؤهل فذلك يحتاج إلى وسائل مادية كثيرة مما لا يتوافر لديّ.

ـ كيف تُقوّمون دور البلاد العربية ومؤسساتها القومية في مجال نشر اللغة العربية في بلادكم؟ وهل لديكم مقترحات محددة في هذا الصدد؟

ـ صراحة لم تفعل الدول العربية شيئًا في النهوض بالعربية وانتشارها في باكستان، رغم أن تسعين في المئة من سكانها مسلمون، وكلهم يرغبون في دراسة اللغة العربية، وبإمكانهم أن يضحوا بلغاتهم المحلية من أجلها وحدها، إذا توافرت الوسائل لدراستها وانتشارها حتى تكون لغة رسمية للبلاد، وتصبح باكستان دولة عربية (وكنت قد اقترحت في محاضرة لي بالقاهرة - نشرت فيما بعد في مجلة الدعوة القاهرية في سنة ١٩٧٧ م ـ بتعريب باكستان، وهي قضية قد تبنتها لجنة الثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية) وأقترح إنشاء معهد أو أكثر، خاص بتدريب المعلمين لتدريس اللغة العربية تحت إشراف مباشر للأساتذة العرب، بالإضافة إلى افتتاح مدارس نموذجية من الطراز الأول تكون اللغة العربية إجبارية فيها ابتداءً من الصف الأول.

ـ تتنوع في باكستان المؤسسات التعليمية التي تهتم بتدريس اللغة العربية وآدابها، فما هو تقويمكم بصورة عامة لأداء هذه المؤسسات؟ وهل هناك ثمة تنسيق فيما بينها؟ وما السبيل إلى إيجاد هذا التنسيق إن لم يكن قائمًا؟

ـ هناك نوعان من المعاهد التي تهتم بالعربية: النوع الأول هو المدارس الأهلية الدينية، التي تعرف بالمدارس الأهلية العربية النظامية في المساجد، ولكن مناهجها قديمة عقيمة أعدت قبل ثلاثة قرون أو أكثر. الدارس والمدرس فيها قد يستطيع كل منهما أن يقرأ النص العربي ويفهمه، أما الكتابة أو الحديث بالعربية فذلك من باب عنقاء مغرب. والنوع الثاني هو ما تشتمل عليه المعاهد الحكومية من المرحلة الثانوية إلى الجامعة، ومستواها أسوأ من النوع الأول، إذ يوجد فيها من لا يستطيع أن يقرأ النص العربي قراءة صحيحة، وأما الكتابة أو الحديث فمن المستحيل. ولا تسأل عن التنسيق بينهما فذلك يبعد بعد المشرقين، فالأول في وادٍ والثاني في وادٍ وبينهما قلل الجبال:

كيف الوصولُ إلى سعاد ودونَها
قُلَلُ الجبال وبينهن حُتُوف!

ـ على ذكر المدارس الدينية الأهلية المنتشرة في أغلب البلاد الإسلامية يرى كثيرون أن الارتقاء بها يمكن أن يكون نقلة كبيرة لها ما بعدها في مسيرة التعليم عامة، ومستقبل اللغة العربية في هذه البلاد خاصة. فما هي الجهود التي بذلت في باكستان في هذا السبيل؟ وهل لكم من مقترحات خاصة في ذلك؟

ـ إن المعاهد الدينية أو المدارس الأهلية العربية المنتشرة في آفاق البلاد الإسلامية كلها من شرقها إلى غربها ومن جنوبها إلى شمالها قد كان بإمكانها أن تقيم ثورة في النهوض بالعربية وانتشارها، إلا أن القائمين بشؤونها لا يسمحون بأي تغيير أو إصلاح في المناهج الدراسية، فهم العقبة العتيدة الوحيدة في سبيل ذلك، وقد تمت محاولات وبذلت جهود للتغيير والتحسين ولكن دون جدوى، وأنا أعتقد أن أساتذة هذه المعاهد هم في أشد حاجة إلى التثقيف والتفتح كخطوة أولى، وذلك بتدريبهم في الجامعات الإسلامية العربية

بتنظيم دورات خاصة لهم ونحو ذلك من البرامج المفيدة في هذا الصدد.

ـ لاحظت من خلال المعايشة ضعف مستوى خريجي أقسام اللغة العربية بالجامعات الباكستانية بصفة عامة، ولا يسلم من ذلك حتى بعض الحاصلين على درجات علمية عليا.. فهل توافقون ابتداء على هذه الملاحظة؟ وإلام تُعزون هذه الظاهرة إن وافقتم على كونها كذلك؟

ـ أما ضعف مستوى اللغة العربية عند خريجي الجامعات الباكستانية فذلك حق بدهي لا يمكن إنكاره، ويرجع ذلك إلى ضعف ثقافي عربي قد ورثوه منذ أجيال، ومن غريب الأمر أن هؤلاء قد افترضوا افتراضًا أن اللغة العربية صعبة جدًا، لا يمكن أن يجيدها ويتقنها غير عربي، ومن ثم، من المستحيل علينا أن نجيدها قراءة وكتابة وحديثًا، كما أنهم قد افترضوا افتراضًا أنه من الممكن أن نكون طلابًا وأساتذة للغة العربية سواء نجيدها كتابة وقراءة وحديثًا أو لا، وأغرب من ذلك أن الناس في البلد يعتبرونهم من القائمين بخدمة اللغة العربية.

ـ كان لكم جهد مشكور في مجال خدمة اللغة العربية في باكستان، بتأسيسكم للمجمع العربي الباكستاني، فنود أن نتعرف بإيجاز فكرة هذا المجمع وأهدافه، وخططه، وما حققه من إنجازات.

ـ أما أنا فقد نذرت حياتي للغة القرآن الكريم، ولغة الناطقين بالضاد، وتبنّيت قضية اللغة العربية، وجعلتها من ضمن معتقداتي، وقد كتبت المئات من المقالات في الصحف الباكستانية طالبت فيها بجعل اللغة العربية إجبارية أو لغة ثانية للبلاد على الأقل، ونظمت العديد من الدورات التدريبية للأساتذة، والمؤتمرات العربية للنهوض بها وانتشارها في باكستان، كما أنني قد غيّرت وعدلت المناهج الدراسية لجميع المراحل من المدارس إلى الجامعات، وجامعة بنجاب هي أقدم جامعة في باكستان والمعترف بها دوليا، إلا أن قسمها العربي كان ضعيفًا جدًا، وكان يتبع المناهج الدراسية التي أعدها الإنجليز، حتى إن رسائل الماجستير والدكتوراه كانت تكتب بالأردية أو الإنجليزية ولكنها تكتب الآن بالعربية والحمد لله.

أما المجمع العربي الباكستاني فقد عاشت فكرته في ذهني منذ أمد بعيد، وقد كان من بين أهداف المجمع إصدار مجلته، وقد تم، وإحياء التراث العربي الإسلامي وخاصة ما يتعلق بشبه القارة، وقد بدأ بإذن الله، فقد نشر خمسة كتب إلى الآن وقد تم توزيعها، ونود أن يكون هذا المجمع قنطرة بين باكستان ومؤسسات العالم العربي في مجال التبادل الثقافي والتعارف والتعاون على نطاق واسع، وكذلك فإن المجمع ينوي أن ينظم الدورات التدريبية للأساتذة بين القصيرة والطويلة الأمد بالتعاون مع الجامعات والمؤسسات العربية، لكي يكون المجمع بؤرة تجميع وتنسيق للجهود المبذولة في خدمة اللغة العربية في باكستان وفي آسيا كلها.

ـ هل حاولتم أن توجدوا علاقات علمية بين مجمعكم والمؤسسات العلمية والتعليمية التي تُعنى باللغة العربية في باكستان وخارجها، وبخاصة في البلاد العربية؟ وهل من ثمار ملموسة لهذه المحاولات؟

ـ نعم ! قد حاولت ـ ولا زلت أحاول ـ جاهدًا لتوطيد العلاقات بين المجمع العربي الباكستاني وبين المؤسسات الوطنية والعالمية وخاصة في العالم العربي، وذلك أمر حيوي ويحتاج إلى جهد مستمر وعمل دؤوب.

ـ ما أبرز المعوّقات التي تعترض سبيل هذا المشروع البنّاء؟ وهل لديكم من تصورات عملية لتذليل هذه الصعوبات على المدين القريب والبعيد؟

ـ إن أكبر المعوقات في هذا السبيل هي الموارد المالية، وسنبذل ما في وسعنا من الجهد لتذليل الصعوبات كلها بإذن الله عز وجل، فهو نعم المولى ونعم النصير، وبتوفيقه تتم الصالحات.

د. ظهور أحمد أظهر في سطور:

تاريخ الميلاد: ١٦ ـ ١١ ـ ١٩٣٧م

ـ المؤهلات العلمية: ماجستير، ودكتوراه في اللغة العربية وآدابها من جامعة البنجاب ـ باكستان. وموضوع أطروحته للدكتوراه هو تحقيق كتاب القرط على الكامل للمبرد.

ـ ماجستير في الدراسات الإسلامية من جامعة البنجاب.

ـ يجيد اللغات الأردية والعربية والإنجليزية قراءة وكتابة وتحدثًا، ويقرأ الفارسية والفرنسية والإسبانية.

أبرز الإسهامات العلمية والأدبية:

ـ تحقيق ما يربو على ثلاثين مخطوطة عربية قديمة في موضوعات لغوية وإسلامية متنوعة.

ـ ترجمة حوالي عشرة كتب من العربية إلى الأردية وبالعكس، ومن مترجماته: قصتان لأديب باكستان الكبير الروائي نسيم حجازي.

ـ تأليف أكثر من خمسة عشر كتابًا بالعربية والأردية تدور حول قضايا اللغة العربية وآدابها، وقضايا مسلمي شبه القارة الهندية، ودراسات إسلامية متنوعة.

ـ المساهمة في دائرة المعارف الإسلامية التي تصدرها جامعة البنجاب باللغة الأردية، وقد أسهم بما يربو على مائتي مقالة فيها.

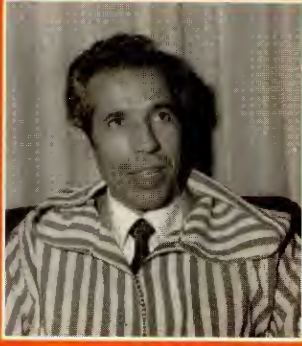
ـ أسهم ويسهم ببحوث علمية في مجال تخصصه في المجلات العلمية البحثية بباكستان وخارجها، بالإضافة إلى مئات المقالات في المجلات والصحف العربية والباكستانية والأجنبية.

ـ درّس وحاضر وشارك في مؤتمرات علمية في السعودية، والإمارات، والكويت، ومصر، والجزائر، والمغرب بالإضافة لباكستان والهند.

ـ مؤسس المجمع العربي الباكستاني، ورئيس تحرير مجلته الدورية.

ـ فاز بحثه في السيرة النبوية عن فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم بالجائزة الأولى بباكستان.

ـ حاز على جائزة نجمة الامتياز من الحكومة الباكستانية لجهوده العلمية المميزة.



قراءة وتعليق:

د. عبد السلام الهراس

رحلة المخطوطات (من طيبة إلى طنجة)

للشيخ د. عبد العزيز القارئ

كانت الرحلة تتجه من الغرب الإسلامي إلى المشرق الإسلامي للحج وطلب العلم، بحثاً عن أسانيد عالية، وروايات جديدة، وأصول معتمدة، وقد كانت بعض تلك الرحلات سياسية، أو مغامرات سياحية، وكثيراً ما ينصّ أصحاب الطبقات والتراجم على أن لفلان رحلة، وقد ظلت هذه الرحلة أمل المغاربة إلى عصرنا هذا، وفيه أصبحت الرحلات لطلب العلوم العصرية، والشهادات الجامعية الجديدة تتجه إلى ديار الغرب حتى في العلوم الإسلامية والآداب العربية !!

والرحلة التي قمنا بقراءتها هي رحلة سعودية إلى الديار المغربية، اشترك في القيام بها الإخوان الأجلاء :

الدكتور عبد الله العسيلان الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والناظم الدكتور عبد العزيز القارئ، الأستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والدكتور صالح الفهد الأستاذ بالجامعة المذكورة، موفدين من مركز خدمة السنة والسيرة النبوية بتلك الجامعة، وذلك بحثاً عن المخطوطات بالمغرب، وتونس، ومصر، ولست أدري لماذا لم يعرج الوفد على الجزائر، وموريتانيا، إذ يوجد في الجزائر مكتبات خاصة غنية بالمخطوطات، وأنا أعرف اثنتين منها تشتملان على كنوز نادرة، ولا أشك أن بموريتانيا خزانات مهمة للمخطوطات، وإلا فمن أين جاء إخواننا الشناقطة بأصول علمية وأدبية مهمة !!؟

وبعد، فإن هذه الرحلة فريدة في بابها؛ لأنها رحلة علمية، عُنيت، فقط، بالبحث عن نوع خاص من المخطوطات وابتياعها لصالح مكتبة مركز خدمة السنة والسيرة النبوية بالجامعة الإسلامية، ويزيدها تفردا وامتيازا كونها منظومة.

ونحن نعلم أن نَظْمَ العلوم والفنون أمْرٌ درج عليه القدماء والمحدثون تسهيلا للحفظ، وإعانة على التذكر، وإغراءً بالتعلم، لما في ذلك من الإنشاد والتنغيم ... وهو ميدان للتنافس في البراعة والاقتدار والتفوق.

ومن أقدم النظم الذي تناول التاريخ، وربما كان ضمن ذلك شيء من الرحلة بالأندلس، منظومة يحيى بن حكم الغزال، سفير قرطبة إلى كل من ملك المجوس (الفايكنج) بالنرويج أو السويد، وملك الروم بقسطنطينية، لكن لم يبق من هذه المنظومة إلا بيت واحد، ولعله المطلع، وهو:

أدركتُ بالمِصر ملوكا أربعه
خامسهم هذا الذي نحن معه

تفاوت المقطوعات

وتتفاوت المنظومات تفاوتا بيِّنًا في جزالة الصياغة، ودقة التعبير وإحكام التركيب، وتركيز المعاني، ووضوح الأفكار ونصاعتها.

ولا تخلو هذه المنظومات من أبيات تكون جديرة بالحفظ لحكمتها أو فكرتها، أو جمال صياغة تركيبها، أو إحكام القاعدة فيها، أو صلاحيتها للاستشهاد بها، أو ذكرها في المناسبات، وتمليح الحديث بها، وتجميل الفكرة بتردادها.

ومن المنظومات المتأخرة التي حفظناها صغارا في الْكُتّاب مع القرآن الكريم : المرشد المعين لابن عاشر رحمه الله، ومما يعلق بالذاكرة قوله :

أول واجب على من كُلِّفا

مُمكَّنا من نظرٍ أن يعرفا

الله والرُّسُلَ بالصفات

مما عليه نُصّ في الآياتِ

أو حدثت بنفسها الأكوان

لاجتمع التساوي والرجحان

وطاعةُ الجوارح الجميع

قولا وفعلا للإسلام الرفيع

وأمّا الإحْسَانُ فقال مَن دَرى

أن تعبد الله كأنك ترى

إن لم تكن تراه إنه يراك

والدين: ذي الثلاثُ، خذ أقوى عُراك

وقول لا إله إلا الله

محمداً أرسله الإله

يجمع كل هذه المعاني

كانت لذا علامة الإيمان

وفي التيمم يقول :

لخوف ضُرٍّ أو لعدم مَا

عَوِضْ عن الطهارة التيمما

وفي مبادئ التربية والسلوك :

وحاصل التقوى اجتناب وامتثالْ

في ظاهر وباطن بذَا تُنال

واعلم بأن أصل ذي الآفات

حبُّ الرياسة وطرحُ الآتي

رأس الخطايا هو حب العاجله

ليس الدوا إلا في الاضطرار له

ويقول عن مقام اليقين :

خوف، رَجَا، شكر، وصبر، توبهْ

زهد، توكل، رضا، محبه

وهناك منظومة ابن عاصم في القضاء، وتمتاز بالسلاسة والقدرة على استيعاب المصطلحات، وقضايا شؤون الدعوى من أولها إلى آخرها بدقة وخفة وتركيز، يقول :

وبعدُ، فالقصد بهذا الرّجز

تقريرُ الأحكام بلفظ موجز

آثرت فيه الميلَ للتبيين

وصُنته جهدي من التضمين

لكن بعض شراحها عقَّدوها تعقيدات جعلها من المستغلقات.

وللشيخ الهبطي المصلح المشهور في الجبل منظومةٌ في أقسام العدة، يقول - مثلا - في عدة الأمَة الزانية :

والأمَةُ التي زنت تُستَبْرا

بحيضة وُقيتَ هذا الشرا

وخلال منظومته يحمل على من يتركون عبيدهم أحرارا في ارتكاب الفواحش، وعلى المدَّعين للفقه، يقول :

كفعل هؤلاء أهل القطرِ

من تركهم عبيدَهم كالحُمر

صبرا جميلا يا خليلي، اصبر

حين انتمى للفقه كلُّ فَاجر

لو فقه المسكين عن مولاه

لاختاره مجتنباً هواه

ومن أجمل النظم الفقهي نظم صداق لأبي عبدالله بن عاقمة مؤرخ بلنسية، وقد نشرنا دراسة عنها في مجلة الفيصل.

إطلالة الذات في النظم

إذا كان نظم العلوم يلتزم الموضوعية، وإن كان لا يخلو من إطلالة الذات، فإن نظم الرحلات يمتزج فيه الموضوع بالذات ضربة لازب؛ لأن الرحَّالة وهو يصف ويحكي ويقص يصطحبه انفعالُه؛ لأنه يعاني ويتفاعل ويحس، ويفكر، ويعتبر ... ومن الرِّحلات المنظومة في الماضي رحلة ابن الفكون (أبو علي حسن بن عمر بن الفكون) وهي قصيدة نظم فيها رحلته من قسنطينة إلى مراكش، وعدد أبياتها اثنان وثلاثون، وقد عُني بشكل رئيس بتعداد المدن التي زارها معبراً عن إعجابه بها متوسلا إلى ذلك بأسلوب غزلي غرامي مملوء بالبديع لا سيما الجناس، مخصصا لكل مدينة بيتاً واحداً (انظرها في رحلة العبدري ص : ٣٤).

والقصيدة الثانية للرحالة العبدري نفسه وقد نظمها في الوزن والقافية والروي نفسه، وقد ركز على الاعتبار والاتّعاظ والحكمة من خلال صروف الزمان وحوادث الدهر، مستنطقا الجمادات ومحاوراً الأطلال باكياً ومستبكياً، فكلما دخل بلداً سأل وتساءل عن أهلها وقبائلها وأحيائها ووجوه رجالها فيكون الجواب :

فقالت : ما سمعت بمشرقي

نجا من صَرفها أو مغربي

وما عَبَأ الردى ببُغَام رِيم

ولا بزئير ليث قاصري

(وقد وردت في الرحلة ص : ٢٨١ - ٢٨٤).

وأعرف في عصرنا هذا بالمغرب نظمين في فن الرحلة، ولا أستبعد أن يكون هناك أكثر ... أولهما رحلة الحاج علي السوسي المعروفة بأصفى المشارب، والناظم هو والد أخينا الكبير الشيخ محمد المختار السوسي رحمه الله، الذي قام بتخريجها وتهذيبها محافظا ما أمكن على تعبيرات الناظم لكنه غير عنوانها، فصار :

«أصفى الموارد في تهذيب الرحلة الحجازية للشيخ الوالد» وقد نشرت بالدار البيضاء سنة ١٣٨٠هـ.

والنظم الآخر للشيخ أحمد بن المأمون البلغيثي، سماها : «النحلة الموهوبة النِّجارية في الرحلة الميمونة الحجازية»، وهي رحلته الثالثة للحجاز، وقد تمت سنة ١٣٤٥هـ، وطُبعت بفاس ١٣٤٦هـ، وتبلغ أبياتها ٥٦٨ بيتاً.

يقول فيها :

خرجت من فاسٍ لدى الزوال

رحلة المخطوطات

(من طيبة إلى طنجة)

لدى الخميس (حج) من شوال

من عام خمسة وأربعينا

بعد ثلاث عشرة مئينا

والرجل كان شاعراً مكثراً إلا أن شعره أقرب إلى نظم فقيه، وهو لا يخلو من روح خفيفة وبراعة بينه، يقول مثلا في أهل العرائش:

وحصل الأنس العميم للبلد

وأهلها من والد وما ولد

وفي إبحاره إلى مرسيليا يقول :

بها لقينا البعض من أهل اليمن

مستخدمين لضرورة الزمن

في طبعهم محبةٌ في الدِّين

وقوة الإيمان واليقين

ويقول عن ذهابه لباريس :

كان مسيرنا على القطار

من أول الليل إلى النهار

في منظر يروق للأنظار

والليل بالأضواء كالنهار

وتحدث عن الإسكندرية والقاهرة وعن مناسك الحج، وقد مكث بعدالحج في جدة دون الركب المغربي حيث زار بها مدرسة النجاح وتحاور مع علماء جدة، وطلابها، ثم قال عن الحجاز :

هذا وأما حالة الحجاز

فالأمن عمَّ كل ما مجاز

من يرم الحج يجده أحمدا

(وما لنا إلا اتباع أحمدا)

تدفق المعاني وتلاحمها بالمباني

أما عن رحلة المخطوطات للدكتور الشيخ عبد العزيز القارئ فهي في رأيي، بل في رأي كل من قرأتها عليهم من أهل العلم بالأدب والنقد، أروع نظم رحلة اطلعت عليه، فقد امتاز بتدفق المعاني وتلاحمها بالمباني، وخفة الروح، وإشراقة النفس في توتر أحيانا، واطمئنان أخرى، وتعبير دقيق، ولفظ منتقى رشيق، لا تكلف فيه ولا ابتسار، وإنما هو انسياب متناسق، سهل مترابط، مع إشارات دالة، كثيرا ما تشف عن موقف : انتقاداً لطيفاً، أو عتاباً خفيفاً، ملفوفاً بأدب جم، ودماثة غامرة، وقد يضيق بالإشارة، فلا يرى حرجاً في التصريح والتوضيح بالعبارة، لا سيما إذا ما تعلق الأمر بِمُنْكَرٍ يستوجب الإنكار، وبسلوك مستفز لمروءة العَالِم، ومسؤولية الفقيه، وكرامة الباحث، وشرف العلم، وقد يشتد في التصريح فيصرخ في وجه المُنْكَرِ ومرتكبه.

ويُلاحظ أن فقرات القصيدة غير متوازنة في العدد، إذ الأمر خضع لعوامل منها : وجود المخطوطات أو عدمها، ضغط الجو الطبيعي أو ملاءمته، فقد تطول فقرة في مرحلة وتقصر في أخرى، وهكذا تستأثر المقدمة والبداية بأبيات كثيرة لتباطؤ الإقلاع وطول الانتظار واضطراب الإركاب، والتردد بين الفتح والإغلاق للأبواب، واختلاط الأمل والخوف، والذعر والسخط بين الركاب.

فبعد الحمدلة والبسملة والتسبيح والصلاة والتسليم، والتعريف بالركب، وبراعة الاستهلال بمعاناة الرحلة، تبدأ الفقرة الأولى من طيبة الغراء، وجُدة الفيحاء حيث طال المُقام، فطال الكلام؛ بسبب اضطراب في موعد الإقلاع، حتى هَمّ الركب العلمي بالعودة إلى المدينة المنورة، وقد أخذت هذه الفقرة خمسة وأربعين بيتا، في حين لم تأخذ الدار البيضاء سوى شطر بيت، والرباط بضعة أبيات، كما حظيت مراكش وتطوان بحظ وافر، والأغرب إن مدينة فاس لم يلتفت إليها الناظم إلا بنحو عشرة أبيات، أما تونس والقاهرة فلم تحظيا إلا بأبيات قليلة، ويبدو أن سبب ذلك هو طول المقام، ووجود المقصود من المخطوطات حيث تستدعي القول ويحلو الكلام !!

وسأحاول استعراض أبيات جديدة بأن تُبْرز لدلالتها عند من يشاركنا الهمَّ والذوق، وإن كانت الرحلة كلها مترابطة، كل بيت يغري بالبيت الذي يليه، وقد يزعم المرء أنه كلما أوغل في القراءة وجد نفسه أنشط لإتمام القصيدة حتى الثمالة.

يقول الناظم حفظه الله:

وهَاكَهَا أرجوزةً خفيفه

محبوكة موزونةً لطيفهْ

عن رحلةٍ على الهواء عجب

مع الرفيقينَ الهداةِ النُّجُبِ

أبي محمد وعبد الله

الخازن الآمر ثُمَّ الناهِي

أميرنا لكنْ بحكم السُّنَّة

بغير ما قهرٍ وغير مِنَّة

فالحمد الله بكل حال

الصبرُ محمود من الرجال

وثالثُ الثلاثة المحترمينْ

أبو مجاهد سليل القارئين

يبدو أن أمير الركب حاول أحيانا قليلة أن يتجاوز اختصاصات إمارته المحدودة بالسنة، فلم يجد من رفيقيه إلا الحمد والصبر، وقد برع أبو مجاهد في بث ما يريد قوله خلال هذه الأبيات الأولى. ويبدو أن الموضوع كان

يشغله فلم يمهله إلى أن يورده في محله بل استهلّ به النظم، وإن كان سيورد بعض الانتقادات الصريحة فيما بعد، حيث قال في الأبيات ٩٣ ـ ٩٥ :

أنكرتُ أن نسعى بلا نظام

خوف انهيار طاقةِ الأجسام

لكنني لم أكُ بالأميرْ

ولم أكن بصاحب التدبيرْ

أما الأمير فاستبد وطغى

وقال : لا راحة حتى نفرغا

على ما بينه وبين أمير الركب من الود والمحبة والتقدير.

ولم ينسَ أن يُعَرِّف بنفسه، فأشهرُ ما تعرف به أسرته أنها أسرة القارئين، فهو سليلها.

وقد أحسن الناظم أيما إحسان بتصويره الدقيق لما حدث من تأخير الإركاب والإقلاع، وما نتج عن ذلك من اضطراب وتوتر، فقد ظل الركاب في مطار جدة، وقضوا ليلة في فندق غير مناسب، يقول :

وبعد ليلة به ليلاء

قمنا نصلي الصبحَ في إعياء

ولما جاز المسافرون مراحل الإركاب، ووصلوا إلى باب الطائرة، كانت المفاجأة :

ووقع العجيب في الحساب

إذ رفض الربان فتح الباب

واختلط النساء بالرجال

ومعهم حشد من الأطفال

فارتفع الزعيق والإنكار

وبعضنا أسكته الوقار

ورجع الحشد إلى المطار

وفي القلوب جذوة من نار

قلق الانتظار

ويصف، ببراعة ودقة ونصاعة، القلقَ الذي استولى على المسافرين المحجوزين وقد طال الانتظار نصف يوم، وما أدراك ما نصف هذا اليوم دونما رحمة أو نوم، لكن ما إن أعلن البشير بالإركاب حتى انتعشت الأرواح والمهج، فنسي القوم ما كابدوه من مشاق:

واتجه الطابور نحو الباب

ولا تَسَلْ عن فرحة الركاب

بعد وقوف دام نصف ساعهْ

كأنهم ينتظرون الساعهْ

لكنهم فوجئوا من جديد بخيبة أشد مرارة، وبدأ الناس في دهشة وكآبة وتوتر شديد يتساءلون ويسألون عن سبب وجيه لهذه الفوضى، غير أنه في هذه المرة كان الخبر أن في الطائرة «داهية» فكادت القلوب والعقول تطير، ويصف الناظم موقف المحدّث وكيفية الواقع من هذا الخبر، فيقول:

وقد يكون خبرا مكذوبا

ملفّقا مدبَّرًا محسوبا

في مثل ذا يُعمل بالموضوعِ

بخبر المجهول والمقطوعِ

وكاد وفد المخطوطات يعود أدراجه إلى طيْبة حذارَ الوقوع في تهلكة ماحقة، ولكن رأي الدكتور صالح كان المضي إلى الأمام،لإنجاز هذه المهمة النبيلة، فأيّده الناظم، ولم يعترض السيد الرئيس، وأقلعت الطائرة تجري باسم الحفيظ :

وكلما فرقع فيها سقفُ

صاح ضعيفُ القلب : جاء الحتف !!

يقينا أن ضعيف القلب كان أو كانوا من غير أفراد الركب المبارك، إذ كل واحد من الثلاثة معروف برباطة الجأش وقوة الجنان، لا سيما إذا كان منتدباً لرسالة شريفة محمودة من المشرع، كخدمة السنّة المشرفة. والحقيقة أن هذه الرحلة كانت محفوفة بالأخطار، محاطة بالخوف والعناء، وقد عبر الناظم عن ذلك ببيت بسيط لكنه رائع، وتأتي روعته من صياغة الشطر الثاني، ومن إيقاع وإيحاء الكلمة الأخيرة :

ويالها من رحلة مخوفة

فيها احتمالُ أن تصير جيفهْ !!

وإذا انتهت معاناة الرحلة في الجو عندما حطت الطائرة بمطار الدار البيضاء، بدأت معاناة البحث عن المخطوط، مما اقتضى سرعة التنقل واستقصاء البحث وكثرة الاتصالات، والمشي الدؤوب والسعي في الأحياء، والسفر من بلد إلى بلد والفصل صيفٌ حارٌ!!

فمن الدار البيضاء إلى الرباط فمراكش ثم فاس فتطوان فطنجة، ثم العودة إلى الرباط فالبيضاء للسفر إلى تونس فمصر فالوطن حيث الأطفال ينتظرون حظهم في الاستمتاع بالعطلة بعد عناء الدرس والتحصيل والعمل خلال سنة.

ذكر الناظم الدار البيضاء في شطر بيت، ومر بالرباط مراً سريعاً حيث لقوا ورّاقا ماكراً:

وفي رباطِهم لقينا ذئبا

يحفظ علما ويبيع كتبا

ممتلئ من أدب وظرف

ومن دهاء لَفهُ بلطف

وقد اكتفى بالوصف دون التصريح بالاسم، ومن يخبر عالم المخطوطات يجده عالماً غريباً عجيباً، فإن المرء يلقى فيه من النماذج البشرية ألوانا وأنواعا، ولا يخلو هذا العَالَم من ذئب وثعلب وحاسد ونصَّاب، وشحيح على الباحثين، ولكنه فيه من الفضلاء والصالحين والكرماء ما يغري الباحث، وينسيه سلوك هذه النماذج السيئة، ولولا خوف الإطالة لذكرنا نوادر هذه النماذج التي جرّتنا إليها بلية البحث والاطلاع ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

وقد وجد الركب في الرباط صديقا كريما

ومرافقاً صدوقاً، وقد اقترح عليهم السفر إلى مراكش التي حظيت بنيف وثلاثين بيتا، وكان الفصل صيفا، والمهمة تقتضي من أحباب المخطوطات شدّة المشي والحركة حرصا على اقتناء النفائس المغربية، ولم ينسَ الناظم أن يصف بعض السياح الأجانب وهم يجوبون أسواق المدينة، لكنه صبر على هذا البلاء !! ولكلٍّ وجهةٌ هو موليها، يقول حفظه الله ووقاه شر البلايا :

وبينما كنا نغضُّ الطرْفَا

عن شرٍّ ما يعلن أو ما يخفى

إذا بنا نظفر في ذاك المكان

ببعض مخطوطٍ تناساه الزمانُ

نفائس مدفونة وا أسفي

كم ضيَّع الأحفاد إرثَ السلفِ

وسجل الشاعر سوق دلالة الكتب المسمى في المشرق «بالحراج» وهي مظهر حضاري كان معروفا في المغرب، لا سيما في حواضره العتيقة مثل مراكش وفاس، حيث يتم البيع والشراء بالمزايدة علانية، وكذلك المساومة مثلما هو الأمر في أسواق الأحذية والجلابيب والصناعات الجلدية والنحاسية وغيرها، ومدينة مراكش هي الوحيدة التي ظلت تحافظ على هذا المظهر التجاري العلمي، في حين تعطَّل ذلك بفاس منذ سنوات قليلة، ونرجو أن تعود لعادتها العلمية المعروفة، يقول الناظم:

ثم أتينا رحبة الدلالة

الكل يُلقي للشِّرا حلاله

(والحلال بكسر الحاء متاع الرَجل وسلاحه)، وحتى لا يتساءل القارئ السعودي والعَربي عن معنى هذه الدلالة، يتبرع الناظم بشرحها شرحا مُرضياً :

وعندنا شهرتُه الحراج

البيع فيه شأنُه اللجاج

وعندهم يُعقد خلف المسجد

بلا ضجيج أو جدال مفسد

دلالة الكتب

لكن الذي يعقد خلف المسجد في جانب من جوانبه الخارجية المحيطة به، أو في داخل إحدى المدارس المخصصة لسكنى الطلبة هي دلالة الكتب، أما الأشياء الأخرى، فلكل سوق دلالته، وبعض هذه الأسواق تكون يومية مسائية غالبا، وقد تكون موسمية، وقد تكون سنوية، وقد تكون الدلالة للكتب خاصة بمكتبة بعض المشايخ المُتوفَّين يقيمها ورثته، وإن كان بعض هؤلاء الورثة فضلوا بيعها جملة (إما للتجار أو لجهات رسمية لضمها إلى المكتبات العامة أو شبه العامة)، وبعض المشايخ فضلوا بيع مكتباتهم في حياتهم إشفاقا عليها من هذه الدلالة !! ولكن البعض الآخر آثر أن يقفها على طلاب العلم كما فعل الشيخان الصديقان : محمد داود، وعبد الله كنون رحمهما الله، وآخر ما شهدناه من أعمال البر والخير في هذا المضمار قيام ورثة الشيخ محمد إبراهيم الكتاني بإهداء خزانة (مكتبة) والدهم رحمه الله إلى الخزانة العامة بالرباط، وأُقيم احتفال مبارك بهذه المناسبة، وقد دعا فيها أخونا البحاثة الكبير الشيخ محمد المنوني شيوخ البحث والعلم بالمغرب إلى الاقتداء بآل إبراهيم الكتاني في هذا العمل الجليل، ونحن في انتظار تجاوب بعض الحاضرين مع هذا النداء الحضاري المبارك.

اشترى الوفد كتبا في الدلالة، وأخرى من دكاكين التحف، يقول الناظم :

ثم اشترينا من حليق صيقل

معطَّر مُزوَّق مبنطل

كالشمائل وقطعة من تفسير ابن عطية،

وكان من اللازم أن يصف الناظم جو مراكش الحار مع جوانب اجتماعية، يقول :

والحر يفري بلهيب محرق

أما الثياب فارتوت بالعرق

وقد أعجب بحريرة مراكش والكسكس :

لم ننس أن نشبع من حريرهْ

وكسكسي يا له من ميرهْ

كان ضغط الحر شديداً على الناظم وصاحبيه، وقد بلغ الإعياء بهم مداه، وكان تصميم الأمير على إنجاز أقصى ما يتاح من فوائد في أقل وقت ممكن مما يستدعي مزيداً من الجهد والعناء، مما ضاعف من المشقة لا سيما والحركة لا تخضع إلا لرغبة العثور على مواطن المخطوطات وعلى أصحابها، وذلك ليس بالأمر اليسير، وقد أشفق الناظم على نفسه وعلى صاحبيه من مغبة الإجهاد :

فكيف والجري بلا انقطاع

بغير هجعة تريح الساعي

أنكرتُ أن نسعى بلا نظامِ

خوف انهيارِ طاقة الأجسامِ

لكنني لم أكُ بالأميرْ

ولم أكنْ بصاحب التدبيرِ

أما الأمير فاستبد وطغى

وقال : لا راحة حتى نفرغا

وكانت المرحلة الثالثة فاس، وقد وصفها الناظم وصفاً دقيقاً، وبخاصة جوانبها المعمارية والحضارية، إذ أعجب بها أيما إعجاب، وهو على عادته، شعوراً منه بمسؤوليته العلمية

والشرعية يجهر بإدانة المنكر، وفي فاس يستنكر التشويه الذى طغى على معمار المدن الإسلامية، وحمله على قول ذلك ما شاهده من روعة الفن المعماري لهذه المدينة العتيقة، مدينة أهل الستور والحجاب والحياء والتعاطف والتكافل والإخاء، يقول :

أهل الستور والحجاب والحياء
والعطف بين الساكنين والإخاء
تلقى البيوت في الزقاق رُصّت
كأنما تعانَقت في رِقَةِ
فبينها تقاربٌ في حشمة
قد هندسوا تصميمها بحكمة
وهكذا مدائن الإسلام
تميزت عن مدن الأعجام
وبعضنا قد آثروا الحماقة
وغيّروا من دينهم أخلاقهْ
واستبدلوا قوالب الأوربي
بما بَنَوه بالهُدى والحبِّ
فحسبنا الله على مَن غيَّرا
حتى بناء بيته وافتخرا

فاس
عاصمة المدن

وقد استحقت فاس أن تكون عاصمة المدن العتيقة لما حافظت عليه من تراث أصيل، وفنون إسلامية رائعة.

ومع الأسف بحث عني الأخوة البررة فوجدوني خارج فاس إذ لا تطاق هذه المدينة لا سيما الجديدة أثناء الصيف، كما أنهم لم يظفروا بأصحاب المخطوطات، ولعلهم هيجهم الحر مثلي، فخلّوا فاسا .. فكانت المرحلة الرابعة إلى تطوان.

بعد قضاء نصف يوم، انطلق الركب إلى تطوان (بفتح التاء)، وهكذا ينطقها إخواننا المشارقة منذ أن حفظوا النشيد العربي الشهير:

بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدان
ومن نجد إلى يمن
إلى مصر فتطوان

وصاحب هذا النشيد شاعر سعودي كبير، والصواب كسر التاء وأصل الكلمة بربرية «تيطّاوين» أي العيون جمع تيطْ (عين) وقد حافظت مدينة تونس على الاسم كما هو في تيطاوين إلى الآن !!

وفي تطوان وجد الركب مسوغا للمكوث أكثر حيث مخطوطات نادرة غير أن صاحبها كان ممن لا تسهل معاملته، ولا تلين مساومته، وقد تساوى عندهم منظره ومخبره، يقول :

إذا بها مدينة جميلة
باردة ممطورة ظليلهْ
كانت بها ليلتنا مُريحة
فاستيقظت أجسادنا صحيحه

وقد أبدع الناظم في وصف تعاملهم مع المخطوطات وتقليبها، وهنا نسي القوم تعب أجسادهم، وأكبوا على أكوام المخطوطات ينبشونها رجاء الظفر بالمطلوب، وهنا يلتفت الناظم إلى رئيس الركب الخبير بالمخطوطات دون أن ينسى نفسه :

أما العسيلان فقد أكبَّا
على «الدشوت» عارفا محبا
ينبشها بخبرة لا تغلب
وصبره على قذاها أعجب
وعندما يعجز من كتاب
يُحيلُه إليَّ للجواب

وقد وجدوا هناك نفائس لم ينتبه لها أهل البلد على الرغم من حرصهم عليها إلا أن مؤسساتنا لا تهتم بنفائسنا على عادتها، أما الباحثون فجلهم عاجزون عن شراء المخطوطات، فالعين بصيرة واليد قصيرة والأجرة حقيرة !! فإذا اشترى الباحث المخطوطة بقي على الحصيرة !!

وقد أوحت هذه النفائس للناظم بهذه الحكمة

قد تُفقد الحكمةُ عند الرجل
ثم تراها عند فَدمْ خبل
وقد تلاقي جوهرا في مزبلهْ
ولا تلاقي عند قَزْم بصلَهْ

ثم شرع في سرد ما عثروا عليه بأسلوب نظمي جميل وجذاب، مثل قوله :

مما وجدنا : «الدرر اللوامعْ»
شرح عليه محكم وواسعْ
وقطعة قليلة العيوب
قديمة الخط من (الترغيب)
وفي فنون الفقه (إدْرار الشروق)
تحشيةٌ عجيبة على (الفروق)
وفي القراءات شروح عدهْ
تبرق من نفاسة وجدَّه
وكلها تخدم (حرز الشاطبي)
في زينة تسرُّ عين الخاطب
وفي النكاح مقنع المحتاج
في أدب الزواج والأزواج
وغير ذا وذاك من نفيس
فَهَيِّئ الصَّدَاق للعروس

ثم كانت المرحلة الخامسة إلى طنجة حيث أصاب القوم بعض الراحة.

أما المخطوطات فلم يجد القوم شيئا ذا غناء، لكن أعقب الراحة مرض طرأ على السيد الرئيس ، وقد كان وصف ذلك جميلا وممتعا، ومما أغرى الدكتور عبد العزيز بقص الحكاية وتتبع بعض تفاصيلها أن الدكتور الرئيس كان شديد الحذر من العدوى ! أترك الناظم يقص علينا ما وقع وجرى:

كان العسيلان شديد الحذرِ
من فجأة العدوى وسوء الأثر
يفتش الطعام والشرابا
خوفا من الميكروب أن ينسابا

رحلة المخطوطات

(من طيبة إلى طنجة)

وعندما شربت ماء البئرِ
من دلوها القديم قام يجري
وصاح : يا مجنون كيف تشربُ
الماء آسنٌ والدلو أجرب
سوف ترى آثارها من العلل
مغصاً وإسهالاً وقيئاً يا بَطل

غير أن الذي أصيب بذلك كله السيد الرئيس، ولكن الله سبحانه أنعم علينا بشفائه:

وخف ما ينتابه من الألم
وأصبحت آهاته بلا نغم !!
وهكذا سرنا بقية الطريقْ
نحو الرباط وهو لا يفيقْ
والحمد لله على الشفاء
من غير ما سعي ولا عناء

ثم كانت العودة إلى الرباط، وبعد يومين كانت الرحلة إلى تونس وهي المرحلة السادسة، وقد عثروا هناك على بعض المخطوطات في السنّة النبوية، ويبدو أن الشقيقة تونس لم يعد فيها تلك البيوتات التي تتوارث المخطوطات كما هو الحال بالمغرب، إلا في القليل النادر كخزانة الشيخ العلامة الشاذلي النيفير. ولعل تلك المرحلة انتهت أو كادت في تلك الديار التي كانت من أهم العواصم العلمية في العالم الإسلامي.

وقد استطاع الناظم ببراعته أن يحدد عصر بعض المخطوطات، في شطر بيت، يقول :

ونسخة إضاءة الحوالكْ
قديمة على مُوَطّا مَالكْ
(تنوير) ذاك العَلَمِ السيوطي
ترقى إلى العاشر في الخطوط

لكن في تونس وجه آخر آثار الناظمَ، مما رأى في (بوسعيد) من أكداس بشرية يموج بعضها في بعض:

لا تعرف العُربَ من الإفرنج
وبينهم مَشَتْ ذوات الغُنج
ديدنهم تسكع بلا هدف
في حالة مزرية من القرف

وأخيرا يرسل زفرات حرَّى على بلد الزيتونة التي تغيرت معالمها الإسلامية باتجاهها التغريبي الفاضح، مما يستوجب اللعنة على من سن لها هذه السُّنة السيئة، وقادها إلى المهالك.

القاهرة
المرحلة الأخيرة

والمرحلة السابعة والأخيرة كانت القاهرة، فبعد خمسة أيام في تونس التي كان حظها من النظم أقل من مراكش وتطوان، اتجه الركب إلى الكنانة التي لم يكن فيها من المخطوطات ما يغري الوفد بالمكوث والتفتيش، ذلك أن بلد العلم أصبح مهتما بأمور أخرى، مما جعل الناظم يتحسر ويقول:

لكننا في بلد الكتاب
لم نحظَ بالمخطوط والكتاب
قد أقفرت منابع الفنونْ
في بلد أزهره مدفونْ
وتلك يا إخواننا مصيبهْ
أن تقفر الكنانةُ الحبيبهْ

ويختم الرحلة بأبيات تشعر بالنهاية، ويعرف اسم الناظم وكنيته ولقبه، وتاريخ النظم :

أرختها : وحالُها أرَّقني
طالبتُها تضاحكتْ شيبتني !!

تلك هي منظومة رحلة المخطوطات أغراني بقراءتها والتعليق عليها براعتها في الوصف وتسجيل مظاهر إسلامية بالمغرب، وانطباعات الناظم إزاء مشاهداته المختلفة وملاحظاته المتنوعة، مما يجعل هذه الرحلة وثيقة مهمة ومصدر ثقة للدارسين فيما بعد، ممن يهمهم أمر هذا الجناح الغربي من العالم العربي.

ومما يزيد في الإغراء بها سلاستها في التعبير، ودقتها في التصوير، وصدقها في الرأي، ورشاقة في اللفظ، وتلاحم في التركيب، وقدرة على القص والحكاية، وخفة في الروح، ورقة في الذوق، وجمال موسيقي في جل الأبيات حتى تلك التي تتناول أسماء الكتب.

والناظم في بعض المواقف لا يكتفي بالتلويح، بل يلجأ إلى التصريح، وقد جَمَعَتْ هذه المنظومة بين جدية العلم ومزاح العالم، مما يجعل قارئها يسترسل في قراءتها دون أن يشعر بملل أو كلل.

ومما تمتاز به هذه المنظومة بعدها من التكلف والتقعر واللغو الشعري، فجل أبياتها تفاجئك قوافيها بمعنى جديد، يضيف للبيت بعداً جمالياً جديداً ملفوفاً بإيقاع موسيقي مطرب.

وقد يلجأ الناظم، إلى بعض الكلمات غير العربية مثل : الطابور، والدثت. وبالرغم من أن النظم يتصل بالمخطوطات والعلوم فإن روح الغزل والدعابة تتخللها مرتبطة بمناسبة ما، وآخر نفحة غزلية كانت في وداع الناظم للقارئ وهو يؤرخ لمنظومته.

كتاب من التراث:

قاموس الأطبا وناموس الألبا

مدين القوصوني

(٩٦٩ - ١٠٤٤هـ)

تقديم : وجيه الشربجي

من الثابت أن الحضارة العربية الإسلامية أغنت الإنسانية بكنوز قيمة من المعرفة، تفيأت البشرية بظلال إشراقاتها حيناً «من الدهر كان مذكوراً» وخالداً.

من هذا المنطلق، تبرز ضرورة تمسك الأجيال العربية بالأصالة، والحرص الشديد على التراث، الذي يمثل ذاكرة الحاضر للأمة العربية، والبعد التاريخي لشخصيتها المميزة.

إن القيمة الكبرى لتراثنا الفكري الذي يحفل بالمنجزات العلمية تؤكد أن الحضارة الراهنة التي تعيشها الإنسانية اليوم قد ساهم في بنائها العلماء العرب خلال قرون المد الإسلامي، ويأتي في مقدمتهم القوصوني أشهر أطباء مصر في القرن العاشر الهجري.

فقد ترك للعالم موسوعة نفيسة تشتمل على شرح دقيق ومهم للأمراض وطرق معالجتها، سمّاها (قاموس الأطبا وناموس الألبا)، لا تزال - إلى يومنا هذا - من المراجع الموسوعية في آفاق الطب والصيدلة والتشريح.

من هو القوصوني ؟

مدين بن عبد الرحمن القوصوني علم من أعلام الطب، رفعه حذقه في صناعة الطب إلى أن أصبح رئيس الأطباء في (دار الشفاء) بمصر، التي أنشأها سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي في عام ٦٨٣هـ.

وكان القوصوني إلى جانب مهارته في الطب ذا باع طويل في التاريخ واللغة.

درس على الشهاب المتبولي والبرجي والشيخ داود. ومن مؤلفاته الجليلة كتاب «ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب»، وكتب أخرى في التاريخ .

وقد جاء على هامش كتابه بخط يده أنه ولد عام ٩٦٩هـ في مصر، أما تاريخ وفاته فموضع خلاف. فقد تحدث عنه المحبي في «خلاصة الأثر» بقوله: «سعيت جهدي في تحصيل وفاة القوصوني فلم أظفر، لكن غاية ما حققت من خبره أنه كان في سنة أربع وأربعين وألف موجوداً مع الأحياء».

قاموس الأطبا وناموس الألبا

يعد هذا الكتاب من أجود كتب علم الأمراض والتشريح، فقد أودعه القوصوني خلاصة ما توصل إليه الطب في الحضارة العربية الإسلامية حتى عصره من معارف ونظريات، وعصارة ما قام به أفذاذ الطب من تجارب وأبحاث أفاد منها الطب الحديث في وقتنا الحاضر.

وقد عُني الباحثون بالكتابة عنه، ولايكاد يخلو كتاب في التشريح صدر في القرن الماضي إلا وأتى على ذكره، واستشهد بما جاء فيه. فضلاً عن أن مجمع اللغة العربية بدمشق قد قام بتصوير المخطوط وطبعه ونشره على نفقته، وطلب من أصحاب الاختصاص أن يلقى هذا الكتاب ما هو جدير به من عناية، وأن يبادر الغيورون على التراث الفكري العربي - ولا سيما العلمي منه - إلى تحقيقه تحقيقاً «علمياً» يجعل الفائدة منه أعم وأتم.

يقع الكتاب في نحو سبعمائة صفحة من الحجم المتوسط، ويتألف من مقدمة وأبواب وفصول، نُسّقت حسب الحروف الهجائية ومنهج القاموس المحيط، كُتب بالمداد الأسود. وقد نسخَ هذا المخطوط في عام ١٣٤٠هـ محمود صدقي النساخ بدار الكتب السلطانية، نقلاً عن نسخة الأصل المحفوظة بالدار المذكورة. وكُتبت عناوينه بالمداد الأحمر، وبخط فارسي واضح مُشرق.

مواضيع الكتاب

عرض القوصوني في المقدمة أسباب تأليفه الكتاب، وطريقة ترتيبه له، فقال في شرح ذلك بعد أن ذكر ما يدل على شرف صناعة الطب: (شرعت في هذا الكتاب الذي لم أُسبق إلى مثاله، ولم يُنسج على منواله ، لما اشتمل عليه من ذكر أنواع المفردات في المعدن والحيوان والنبات، ما يحتاج إليه كل فرد منها من معرفة ضبط لفظه، مما ذكره أئمة اللغة بأصح ضبط، وأوضح تبيان، ومن ذكر أسماء المركبات، وضبط كل فرد منها، مع بيان وذكر صفة

تركيب بعضها كالترياق أيضاً، لما خفي من غامضه على الأذهان، ومن ذكر بدن الإنسان، وضبط كل فرد منها، مع ذكر تعريفه وتشريحه وتوضيحه بأوضح بيان، ومن ذكر الأمراض وضبط كل فرد منها، مع ذكر تعريفه وسببه علامته وعلاجه بحسب الوقت والزمان.

ومن ذكر أمور مهمة وفوائد كثيرة جمة لها تعلق بما تقدم ذكره، أريد زيادة الإمعان. وقد رتبته على ترتيب القاموس أبواباً وفصولاً. وحذوت حذوه فروعاً وأصولاً...).

ثم ذكر على الهامش أنه فرغ من تأليفه لهذا الكتاب في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين بعد الألف.

وتحدث المؤلف في فصول الكتاب عن أمراض كثيرة منها : الصداع - الفالج - السعال - القيء - الهيضة - البرص - السكتة - الحصبة - الصرع - النمش - الخفقان - الأرق - الطحال - الحدب - الطرش - أمراض المعدة - الطمث - اللثوع - الجرب - أمراض العين.

وجاء في بعض أبواب المخطوط وصف لأعضاء جسم الإنسان، مع تشريح دقيق لكل جهاز وذكر وظيفته وطريقة عمله.

وفيما يلي فقرة يصف فيها القوصوني (حصاة الكلية) بموضوعية ويشرح أسباب تشكلها وسبل التخلص منها ويفند الداء ويصف الدواء:

«محركة رطوبة غليظة لزجة، تتحجر في الكلية والمثانة عن حرارة خارجة عن الاعتدال، إما لازمة أو عارضة عن تعب أو تناول مسخن، وسبب الرطوبة إما أغذية غليظة كالألبان وخصوصاً الخاثرة والأجبان وخصوصاً الرطبة، واللحمان كلحم البقر والجاموس ولحوم الطير، والطحينات كلها، والخبز الفطير والنيء، وإما بفواكه عسرة الهضم كالتفاح والخوخ والكمثرى التي لم تنضج، وإما مياه كدرة».

ثم يشرح القوصوني أعراض المرض بالتفصيل، ويبين مراحله بقوله :

«وعلامة حصاة الكلية بول فيه رمل يضرب إلى الحمرة، وثقل في القطن. حتى يجد العليل كأن شيئا «معلقاً» من قطنه. وخصوصاً إذا انبطح.

واشتداد الوجع عند امتلاء الأمعاء، وخصوصاً في الكلية العليلة. وربما عرض وجع في الخصية المحاذية للكلية العليلة، وفي الرجل المحاذية لها مع خدر، وذلك لمشاركة ما بينهما من العروق.

أما علامة حصاة المثانة، حكة في العانة، وبياض في البول، ورقة وعسر البول.

وأكثر من يصيبه حصاة بالكلية يكون سميناً، وأكثر من يصيبه حصاة المثانة يكون نحيفاً..».

ويتابع المؤلف وصف العلاج للمريض للشفاء من حصاة الكلية معتمداً على التنويع، مع ذكر طريقة صنع الدواء، ومقاديره، وكيفية استعماله لتفتيت حصاة الكلية أو المثانة: «والعلاج الحمية عن المغلظات وإدامة الإدرار، قال بعضهم وأما عند هيجان الوجع فينبغي أن يفصد إن كان الدم غالباً، ويُحقن إن كان الطبع يابساً.

أما الأدوية المفتتة لها والمخرجة لها، فهي مثل القسط، وماء الحمض الأسود، والعنصل، والكرفس، وخصوصاً الجبلي، وبزره وحب البلسان ودهنه قوي جداً، أو بزر الخيار البري والبورق الأرمني المعجون بالعسل. ويستعمل منه كل يوم قدر مثقال بماء الفجل ثلاثة أيام. وذكر بعضهم أن زرق الديك إن سُقي منه الكبير وزن درهمين، والصغير وزن نصف درهم مع مثله سكر، أخرج كل حصاة، وربما جعل معه شيء من النعنع والملح.

أما في حصاة المثانة، فالعلاج حبّ المحلب المقشر المدقوق، أوقية زعفران من كل واحدة منهما ثلاثة دراهم، الشربة مثقالان. قال الشيخ (ابن سينا): والترياق يعني الفاروق الذي لم يُعتق، بل هو إلى الطراوة. وقوة الأفيون فيه باقية ينفع من وجوه كثيرة، من جهة الترياقية ومن جهة الإدرار، وتفتيت الحصاة ومن تخدير الوجع. انتهى...».

تشريح العين ووصفها

ويقدم القوصوني، تشريحاً دقيقاً لعين الإنسان، وعملية الرؤية ووظيفة الأعضاء المحيطة بها:

«العين بالفتح حاسة البصر والرؤية. وقال ابن السكيت العين التي يبصر بها الإنسان مؤنثة، والجمع أعين، وجمع الكثرة عيون، وجمع الجمع أعينات، والتصغير عيينة. وقال الأطباء هي عضو آلي حساس، آلة للبصر، كما أن اللسان آلة للذوق وليست باصرة، وإلا لرئي الشيء الواحد بالعينين اثنين، وتتم منفعة هذه الآلة بالروح الباصرة، وهي للبدن كالطليعة والحارس، وخلقت في مقدمة البدن. لأن ذلك هو من جهة تحركه، وهي مؤلفة من ثلاث رطوبات وسبع طبقات. أما الرطوبات فأولها الجليدية. وهي نيرة مستديرة مفرطحة من قدام، ومستدقة من خلف يسيراً. موضوعة في الوسط وبها الإبصار. وما عداها من جميع أجزاء العين فإنما خُلِقَ لخدمتها، إما لدفع آفة عنها، وإما لجلب منفعة لها، وثانيها الزجاجية وهي تحيط بالجليدية من ورائها إلى نصفها، وثالثها البيضية وهي أمام الجليدية».

ثم يذكر وصفاً موضوعيًّا لأعصاب العين وارتباطها ببعضها وبالدماغ فيقول: وأما الطبقات، فإن العصب النوري الأجوف المشتمل على الروح الباصر إذا أخرج من القحف إلى عظم العين صحبه الغشاءان اللذان أحدهما رقيق يلاقي الدماغ ويُسمى بالأم الرقيقة، وثانيهما غليظ ويُسمى بالأم الغليظة. واتسع وعرض طرف كل واحد منهما، واحتوى على الزجاجية، كاحتواء الشبكية، وهي الأولى، ويثبت من طرفها نسيج عنكبوتي يتولد منه صفاق لطيف حاجز بين الجلدية والبيضية لئلا يختلطا، يسمى بالعنكبوتية وهي الثانية.

ثم ينبسط طرف الرقيق، وينتج عروقًا كثيرة، ويحيط بالرطوبات الثلاثة وبالشبكية والعنكبوتية، والنصف الموجز من هذا الغشاء يلتحم عند التحام الشبكية ويسمى بالمشيمية لاشتمالها على الشبكية وهي الثالثة، والنصف من هذا الغشاء يصير صفاقاً إلى غلظ كنصف عنبة وهي العنبية وهي الرابعة. وفيها ثقب من قدام لئلا يمنع الإبصار، وهذا الثقب يسمى بالحدقة وهو مملوء رطوبة...».

يقف القوصوني بحق وجدارة إلى جانب ابن النفيس، من ناحية الموضوعية العلمية. فمن الشريحة السابقة التي اخترناها من كتابه، تبين لنا بوضوح أن القوصوني اعتمد على التجربة المباشرة، والتشخيص العلمي والتدوين. ودرس أبحاث أسلافه ومعاصريه ومؤلفاتهم. فاصطفى منها ما اعتقد صحته ومطابقته للواقع. وقد اختار معظم جهود سابقيه في علم التشريح، وضمها إلى موسوعته دون أن يتخلى عن نسبة كل نظرية إلى مصدرها.

الكواكبي وأفكاره (١)

د. محمد بن سعد الشويعر



ولد عبدالرحمن الكواكبي في حلب عام ١٢٦٥هـ الموافق ١٨٤٩م، وهو من الكتاب الأدباء، ومن رجال الإصلاح الإسلامي. سعى به الأعداء فسجن وخسر أمواله، فرحل إلى مصر، وساح سياحتين عظيمتين، إلى بلاد العرب وشرقي أفريقيا، وبعض بلاد الهند، واستقر في القاهرة إلى أن توفي عام ١٣٢٠هـ الموافق ١٩٠٢م، وكان كبيراً في عقله وهمته وعلمه، كما ذكر الزركلي في الأعلام جـ٤، ص ٦٨.

وكتابه «أم القرى» الذي سنقف معه وقفات ينبىء عن حسن عقيدته، وخياله البعيد، وإيمانه بأن أهل هذه البلاد هم ـ من بين أم الأرض ـ المؤهلون لنصرة دين الإسلام، والدفاع عن قضايا المسلمين، وقد جعل الشخص الذي يمثلهم عالماً نجدياً في مؤتمره الذي تخيله قد قام في أم القرى (مكة المكرمة) في عام ١٣١٦هـ ، ويدور حوله موضوع كتابه هذا الصادر في عام ١٨٩٨م، ومع هذا فلم يكن في نجد في ذلك الوقت حكومة مستقرة، والملك عبدالعزيز رحمه الله لما يبدأ باستعادة البلاد، ومسيرة التوحيد، لأن أول دخوله الرياض كان في ٥ شوال عام ١٣١٩هـ الموافق ١٩٠٢/١/١٥م.

تخيل الكواكبي ـ الذي ركّز على يقظة المسلمين دينياً وبعقيدة سليمة ـ فكرة يتداولها أعضاء يمثلون المسلمين في كل مكان، وهم ٢٣ عضواً سمّاهم : السيد الفراتي ـ يعني نفسه ـ والفاضل الشامي، والبليغ القدسي، والكامل الاسكندراني، والعلامة المصري، والمحدث اليمني، والحافظ البصري، والعالم النجدي، والمحقق المدني، والأستاذ المكي، والحكيم التونسي، والمرشد الفاسي، والسعيد الإنجليزي، والمولى الرومي، والرياضي الكردي، والمجتهد التبريزي، والعارف التاتاري، والخطيب القازاني، والمدقق التركي، والفقيه الأفغاني، والصاحب الهندي، والشيخ السندي، والإمام الصيني.

ففي الاجتماع الأول، ركّز على مقاصد ابتدائية للبحث: الأولى: بيان الحالة الحاضرة للمسلمين، ووصف أعراضها بوجه عام وصفاً بديعاً، الثانية: بيان أن سبب الخلل النازل هو الجهل الشامل. الثالثة: إنذار الأمة بسوء العاقبة المحدقة بها. الرابعة: توجيه اللّوم والتبعة على الكافة والخاصة لتقاعدهم عن الاتفاق، مع أن الاتفاق وهم متشاكون متعذر ومتعسر.

هذا الاجتماع الذي تخيله السيد الفراتي، واهتم به فكراً، وتوقّعه حقيقة، كان يحكي حال المسلمين قبل مائة عام، وأن أمم الأرض تكالبت عليهم، وقد ازداد الأمر بعد تصارع أمم الأرض فيما بينها، خلال الحربين العالميتين الأولى عام ١٩١٧م الموافق لعام ١٣٣٩هـ تقريباً، والثانية عام ١٩٤٣م الموافق لعام ١٣٥٦هـ تقريباً .. مع أن الحرب في كل منهما كانت مستمرة لعدة سنوات .

وقد ازداد على المسلمين تكالب الأمم، فازدادوا علماً دنيوياً، وجهلاً بأمور دينهم، واتّسعت معارفهم بأمور الحياة، فكان أغلبهم عن الآخرة غافلين، ونتج عن الجهل بالدين التعصب المذهبي، وانصراف بعضهم عن طاعة الله، أو إشراك غيره معه. ولما كان الإمام مالك يقول : لايصلح آخر الأمة إلا بما صلح به أولها .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى أصحابه لما طلبوا منه ذلك : بكتاب الله وسنة رسوله، حيث تركهما في أمته ولن يضلوا ماتمسكوا بهما .. فإن السيد الفراتي قد ركّز على هذا الجوهر الأساس، في حديثه الموجه لأعضاء مؤتمره الوهميّ فقال : «ثم أيها الإخوان : أظنكم كذلك تستصوبون أن نترك جانباً اختلاف المذاهب التي نحن متبعوها تقليداً، فلا نعرف مآخذ كثير من أحكامها، وأن نعتمد مانعلم من صريح الكتاب، وصحيح السنة، وثابت الإجماع، وذلك لكي لا نتفرّق في الآراء، وليكون مانقرره مقبولاً عند جميع أهل القبلة. إذْ إن مذهب السلف هو الأصل، الذي لايرد ولاتستنكف الأمة أن ترجع إليه وتجتمع عليه في بعض أمهات المسائل، لأن في ذلك التساوي بين المذاهب فلا يثقل على أحد نبذ تقليد أحد الأئمة، في مسألة تخالف المتبادر من نص الكتاب العزيز، أو تُباين صريح السنة الثابتة، في مدّونات الصدر الأول.

ولايكبر هذا الرأي على البعض منكم، فما هو برأى حادث بين المسلمين، بل جميع أهل جزيرة العرب، عدا الأخلاط، على هذا الرأي، ولايخفى عليكم أن أهل جزيرة العرب، وهم من سبعة ملايين إلى ثمانية ـ وهذا تقدير منه لأن الإحصائية في ذلك الوقت لم تعرف ـ كلهم من المسلمين السلفيين عقيدة، وغالبهم حنابلة مذهباً، وقد نشأ الدين فيهم، وبلغتهم، فهم أهله وحملته وحافظوه وحماته، وقلّما خالطوا الأغيار، أو وجدت فيهم دواعي الإغراب، والتفنن لأجل الفخار في الدين.

فعلى هذا لاأرى من مانع أن نترك النقول المتخالفة، خصوصاً منها المتعلق بالبعض القليل من الأصول، ونجتمع على الرجوع إلى مانفهمه من النصوص، أو مايتحقق عندنا حسب طاقتنا أن السلف ساروا عليه، وبذلك تتحد وجهتنا، ويتسنى لنا الاتفاق على تقرير مانقرره، ويقوى الأمل في قبول ماندعو الناس إليه» .

[**أم القرى ١٣ ـ ١٥**] .

أحمد فارس الشدياق:
مجموعة فرسان في فارس

يقول الأديب والناقد النصراني مارون عبود: «لو عرف صاحب لسان العرب أن الدهر سيلد لنا واحداً كالشدياق لما تجرأ أن يقول لنا: خذوا لغتكم من أعجمي ... كان المعلم جاحظيًا نواسيًا في فرياقه، بطوطيًا في واسطته وكشف مخبائه، متنبئًا في مدحه، خليليًا في لغوياته ونحوه، وقد صدقت الإجبشيان جازيت حين قالت: إذا وَضَعْتَ الكتبة الإنجليز سكيت وأمرسون ووردزورث ووايلكلف ويلويز في شخصية واحدة يمكنك حينئذ أن تتصور عظمة هذا الرجل» .

بهذا الرأي من أديب نصراني بارز نبدأ حديثنا السريع عن أحمد فارس الشدياق، أحد رجال الرعيل الأول من رواد النهضة العربية المعاصرة، الذي ثارت حوله معارك في حياته، وثارت حوله مناقشات عدة بعد مماته، إذ شغل الناس حيًا وميتًا بأفكاره وآثاره التي قاربت الستين كتابًا ما بين مؤلف ومحقق ومخطوط، إذ كان مؤلفًا مدرسيًا، ومترجمًا، وشاعراً، ورحالة، وقاصًا، وصحافيًا، ولغويًا.

مولده ونشأته

ومثلما اختلف الرأي حول أحمد فارس الشدياق في حياته، فقد اختلف معاصروه أيضًا في تحديد سنة ومكان مولده، فذهب فريق إلى القول بأنه ولد عام ١٨٠١م، وقال فريق ثان: بل عام ١٨٠٤م،وخالفهما فريق ثالث بأن مولده كان عام ١٨٠٥م. وقال فريق إنه ولد في قرية تدعى «عشقوت» من قرى كسروان في لبنان، وذهب آخر إلى القول بأن مولده في قرية تدعى «الحدث».

والرأي الذي نعتقده أقرب إلى الصواب أنه ولد في عشقوت عام ١٨٠١م لأن أول قصيدة كتبها عام ١٨١٥م فيكون آنذاك في الرابعة عشرة من عمره وهي سن مناسبة لبدء قرض الشعر.

وُلد الشدياق في بيت نصراني ماروني ذي حسب، فالشدياق في اللغة كلمة من أصل يوناني تعني الشمّاس، وهي رتبة دينية تلي رتبة الكاهن مباشرة، وفي عام ١٨٠٩م انتقلت أسرته إلى قرية الحدث، وتعلم أول ما تعلم في الكتاتيب ، وهي المدرسة التي تخرج فيها أيضا بطرس البستاني ورشيد الدحداح، اللذان كانا مع الشدياق من رواد النهضة العربية في لبنان والعالم العربي.

ملامح عصره

كان مولد الشدياق في عصرعانت فيه اللغة العربية تدهوراً في بلاد الشام إذ كثرت الإرساليات التنصيرية، وزاحمت بمساعدة نصارى الشام، اللغة العربية بلغاتها، وكأن لم يكفها أن تزاحم السريانية العربية في عقر دارها، وأن يشاركها في هذه المزاحمة الخط الكرشوني (الماروني) الذي صار يكتب به إلى جانب العربية والسريانية.

وتصارعت في ذلك العصر ثلاثة تيارات أولها تغريبي بدعوى مواكبة العصر، ومن نماذجه بطرس البستاني الذي أطلق دعوة مريبة إلى إيجاد لغة عربية «سهلة» بمفردات عامية.

والتيار الثاني عصري ليبرالي، يدعو إلى عدم إهمال الحضارة الغربية والفكر الغربي، والمواءمة بينهما وبين حضارة العرب وفكرهم، وخير من يمثل هذا التيار رفاعة رافع الطهطاوي، وأحمد فارس الشدياق.

أما التيار الثالث فكان سلفيًا أصوليًا.

أجواء متباينة

شب الشدياق وترعرع ونمت أفكاره في ظل هذه الأجواء المتباينة، مع ظهور بواكير نهضة أدبية عربية واكبت إرهاصات دخول المطابع وانتشارها في بلدان العالم العربي، مما يسرّ عملية اقتناء الكتب والمراجع. وكان لابد من أن يفكر في العمل، وكانت مهنة النسخ هي المهنة النموذجية لأبناء بيت مثل بيت الشدياق، فامتهنها في البداية، ثم تعددت مهنه بعد ذلك على الترتيب الذي ذكرناه سلفًا، ولأن الشدياق كان عقلانيًا في تفكيره، فقد كانت له تحفظات كثيرة على رجال الكنيسة المارونية التي ينتمي إليها، أججتها عمليات التعذيب الوحشي التي تعرض لها أخوه أسعد حين تحول إلى المذهب البروتستانتي، تاركًا المذهب الماروني.

التشكيك في صدق إسلامه

لقد حاول كثير من الكُتّاب النصارى وبالذات بولس سعد ، والأب لويس شيخو اليسوعي - وقد ساءهم أن يسلم كاتب كبير مثل الشدياق - أن يوجدوا أسبابًا تؤدي في النهاية إلى القول بعدم صحة إسلامه بإلقاء شبهات حول ظروف اعتناقه الإسلام، منها زعمهم أن تأثره بما حدث لأخيه أسعد على أيدي القساوسة قد دفعه إلى إشهار إسلامه، وتلك مغالطة غير منطقية لأن هناك أكثر من ربع قرن يفصل بين موت أسعد وإعلان إسلام الشدياق، وبالتالي فإن من المستحيل أن يكون إسلامه رد فعل لما حدث لأخيه، لأن ردود الفعل تكون فورية، ولا ينتظر صاحبها ٢٥ عامًا ليعبر عنها.

كما زعموا أنه أسلم من أجل المال، بينما المعروف أن الرجل لم يكن معوزًا، وكان بإمكانه تحقيق الثراء دون إشهار إسلامه وترك دينه. ومن المزاعم أيضًا أنه ملحد يبدل الأديان، وأنه أسلم ليتمكن من طلاق زوجته، و أسباب أخرى كثيرة تفننوا في اختلاقها.

أدلة إسلامه عن اقتناع

إن رد إسلام الشدياق إلى أسباب أخرى غير الاقتناع بالعقيدة الإسلامية هو محض هراء، وهناك أدلة عديدة تعزز ذلك، منها أن الشدياق قبل إسلامه كان قد اعتنق البروتستانتية وترك الطائفة المارونية، ثم توسع في الدراسات الإسلامية حتى اقتنع وأشهر إسلامه عام ١٨٥٧م.

ومن أدلة اقتناعه بالإسلام - شريعة وعقيدة

وسلوكًا - تلاقيه في العديد من أفكاره مع ما تدعو إليه الشريعة الإسلامية، ومن ذلك رفضه لفكرة الرهبنة التي وصفها القرآن الكريم بأنها «رهبانية ابتدعوها». يقول الشدياق في كتابه «الساق على الساق» في معرض نقاش بينه وبين راهب - نافيًا أن التقشف في معيشة الرهبان ينهك الجسم وينفي الشهوات - «لا بل هو مناف لما شاء الله، إذ لو شاء أن ينهك بدنك ويخليه من الشهوات لخلقك ضاويًا دنفًا، ما قولك فيمن خلقه الله جميلاً أيجوز له أن يشوه وجهه بأن يبخق عينه، أو يخرم أنفه أو يشرم شفته، أو يقلع أسنانه كما أردتم قلع أسناني البارحة بخبزكم هذا اليابس، أو أن يسخم سحنته؟ قال: في ظني أنه لا يجوز، قال: أليس البدن كله قياس الوجه، لعمري ما خلق الله الساعد الفعم إلا وهو يريد بقاءه فعمًا، ولا الساق المجدولة إلا وشاء لها أن تكون كذلك دائمًا، ولا حلل الطيبات من المأكل للناس إلا وهو يريد أن يأكلوها».

والمعروف أن كتابه «الساق على الساق فيما هو الفارياق» طبع عام ١٨٥٥م أي قبل إسلامه بعامين تقريبًا.

كذلك تلك المخطوطة التي كتبها عام ١٨٥١م بعنوان « مماحكات التأويل في متناقضات الإنجيل» قبل إسلامه بست سنوات، وهي ضمن موجودات فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد تحت رقم ٤٣٦٠، وهو الفهرس الذي أعده عبد الله الجبوري، وفيها يقول الشدياق: «فإنني رأيت مناقضات كتب الأناجيل الأربعة كثيرة لا يمكن حصرها».

كما استوحى في مدحيته الشعرية للسلطان العثماني عبد المجيد عام ١٨٥٣م بمناسبة الحرب التركية الروسية العديد من المعاني الإسلامية، يقول:

الحق يعلو والصلاح يعمّر
والزور يمحق والفساد يدمرُ
يا مؤمنون هو الجهاد فبادروا
متطوعين إليه حتى تؤجروا
في «لن تنالوا البر حتى تنفقوا
مما تحبون» الدليل الأظهرُ

والاقتباس من القرآن الكريم واضح في الأبيات السابقة مما يعني تأثر ناظمها بتعاليم الإسلام ومعرفته الجيدة بها، كما تتجلى روح الشريعة الإسلامية في دعوته إلى التسامح الديني في ثنايا كتابه «الساق على الساق» يقول: «ألم يقل لكم الحق كونوا يا عبادي على الأرض إخوانًا فإنكم من أب واحد وأم واحدة، وإنكم جميعًا لميتون سواء كنتم ذوي وجوه سمر أو حمر أو صفر أو سود أو بيض، إنكم كلكم بشر، إنكم كلكم فانون».

الروح الإسلامية وخدماته للإسلام

وهذه الروح الإسلامية التي تجلت في كتابات الشدياق قبل إسلامه تؤكد على أنه حين أسلم في تونس عام ١٨٥٧م وتسمى باسم « الشيخ أحمد»، إنما أقدم على هذه الخطوة عن اقتناع وتسليم كاملين بحقيقة الإسلام وأنه الدين عند الله، وليس طلبًا لمال أو مناصب، أو أغراض دنيوية زائلة، ويؤكد ذلك أنه ظل محتفظًا بآراء في نظام الحكم تخالف طبيعة نظام الحكم العثماني القائم آنذاك، كما أن ابنه «سليم» قد أسلم معه، وكذلك حفيدته «جل هانم» أو «روز» مما يعزز أن إسلامه جاء عن اقتناع.

يضاف إلى كل ما سبق أن الشدياق قد قدم للإسلام والمسلمين خدمات جليلة، فهو من أوائل الذين سعوا إلى الربط بين الإسلام والعصر، إذ شكل عمل الشدياق الفكري والإبداعي الإقبال على اللاسلفي لكن من خلال الحنين إلى السلفي، إلى التراث العربي الإسلامي، وإلى كثير من رؤى هذا التراث وأبعاده الثقافية، وكأن إيقاع الفعل النهضوي عند الشدياق كان التقاطًا لنغمات العصر، لكن من خلال ترجيح لإيقاع سابق، إيقاع عميق القرار في أذن الثقافة.

وهذا ما حدا بالمستشرق الإنجليزي «جب» إلى القول بأن «الشدياق كان أحد الأبطال العظام المدافعين عن الإسلام» كما أشار بروكلمان في «دائرة المعارف الإسلامية» إلى أن الشدياق عبر صحيفته «الجوائب» قد ناصر الإسلام وعرّف أهله بحال أوروبا.

وقد مرّ فكر الشدياق بأكثر من مرحلة قدمها الذين تناولوا حياته وأعماله بتقسيمات مختلفة، لعل أقربها للدراسة العلمية الأكاديمية ذلك التقسيم الذي قدمه الباحث التونسي محمد عبد الهادي المطوي حين قال:

«يمكننا أن نصنّف مراحل الكتابة والتأليف عند الشدياق إلى مراحل ثلاث بارزة هي:

- المرحلة الأولى: هي مرحلة مالطة، وتأليفه فيها يغلب عليه الاتجاه المدرسي والترجمة.
- المرحلة الثانية أو الوسطى: وهي المرحلة الأوربية، وتأليفه فيها يغلب عليه الطابع الأدبي الإنشائي، والنقد الديني.
- المرحلة الأخيرة: وهي المرحلة العثمانية التي تتميز بتآليف علمية يغلب عليها الاتجاه اللغوي والتوجه نحو أدب المقالة لسد حاجة « الجوائب»، وكذلك نجده يعود إلى التأليف المدرسي بعد أن رأى نجاح طبع الكتاب المدرسي، مع تزايد التلاميذ والطلبة في بداية اليقظة العلمية والمدرسية في البلاد العربية» .

وتنوع مراحل الكتابة والتأليف عند الشدياق أدى إلى تعدد مؤلفاته وتنوعها.

نهاية الرحلة

عاش الشيخ أحمد فارس الشدياق حياة أديب رحالة لم يستقر في مكان، أقام في لبنان ومصر حيث درس في أزهرها، ومالطة وإنجلترا وفرنسا وتونس والآستانة التي استقر بها في خاتمة مطافه بين الشرق والغرب، حيث أقام فيها بضعة وعشرين عامًا، غادرها مرة واحدة في زيارة لمصر عام ١٨٨٦م ، أي قبيل وفاته بعام وعاد إليها مرة أخرى.

وكان رحيل أحمد فارس الشدياق في العشرين من سبتمبر عام ١٨٨٧م بحضور ابنه «سليم» في الآستانة، حيث أوصى بأن يدفن في مسقط رأسه لبنان.

وكما عاش أحمد فارس الشدياق رحالة متنقلاً، فقد تنقل جثمانه أيضا حيث شيعت جنازته مرتين، مرة بعد وفاته مباشرة في الاستانة بحضور مشايخ الإسلام وأقطاب السياسة ورجال الأدب والعلم، والأخرى في الخامس من أكتوبر ١٨٨٧م في بيروت، في موكب مهيب تقدمه مفتي لبنان الشيخ عبد الباسط الفاخوري وثلة من أهل الأدب والعلم وأرباب الأقلام.

ورثاه كبار الشعراء الرواد وفي مقدمتهم رائد حركة الإحياء والتجديد في الشعر العربي المعاصر محمود سامي البارودي.

فتاوى لفضيلة الشيخ

د. صالح بن سعد اللحيدان

إليـــوت .. من رموز الحداثة

إليـوت ـ ناقد وشاعـر من المعاصرين هل ترون القراءة له؟

سالم . ب ، فرنسا.

الذي أعلمه عن إليوت أنه أحد رموز الحداثة في الأدب الحديث، والحداثة لها شقان:

الأول: حسن، إذا وُظِّفَت في سبيل نهضة الأمم من عبودية الأرض والذات، والرأي، والحياة، والأشخاص... إلخ.

والآخر: جانب سيء شائن.

ولعلك ـ وغيرك ـ واجد مايُرُ به القوم من تبرم بالحياة لأنها غايتهم ومقصدهم، ولعلك تلاحظ، إن أنت تتبعت السِّيرَ الذاتية لهم، ماتفوح به أمورهم من القلق، والضيق، والخوف الرهيب جداً من النهاية. فهم يخافون الموت، وكبر السن، وانفجار الإحساس الداخلي لعدم قناعتهم بما هم عليه، وإنما لمجرد التمرد والسِّير في هذا الاتجاه، مع علمهم بما يحكمهم من حدود محدودة عقلاً وفطرة وواقعًا وتجربة وتاريخًا.

ولست أمانع من القراءة للمذكور وغيره من الحداثيين إذا وعى القارىء: «حقيقة التوحيد»، وعرف فقه الحياة، ولازم ضبط النظر.

الحيض والصلاة

هل تفسد صلاة المرأة إذا رأت الدم بعد الصلاة ؟

نجلاء فتحي ـ سورية

إذا كان الدم يابسًا جدًا، أو كان طريًا، فمعنى هذا عدم صحة الصلاة لأنه قد دخل في عادتها. لكن إن كان مجيء الدم متأخرًا عن الصلاة بوقت يتسع لدخول الوقت الثاني فصلاتها صحيحة.

والمقصود أنها لاتعيد الصلاة التي رأت بعدها دم الحيض بعد طهارتها منه. والله تعالى أعلم.

حديث موضوع

« عمالكم أعمالكم ، وكما تكونوا يُوَلَّى عليكم » هل هو حديث؟

س.ل . كلورادو ـ الولايات المتحدة.

هذا لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم. بل لم يثبت عن صحابي أنه رفعه. لكن لعله من كلام بعض التابعين ، وقد يكون السيوطي أشار إليه في كتاب : «اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» أو العجلوني في كتاب «كشف الخفا ومزيل الإلباس».

ومعناه صحيح؛ لأنّ العباد إذا ظلم فيهم القوي الضعيف، وأكلوا الحرام، وفشا بينهم الزنا، والخمر، والخيانة، يسلط الله تعالى عليهم منهم من يكون مثلهم مالم يتداركهم ربهم بهداية عاجلة، والأمر هذا مبسوط في كتابين جليلين هما: «رفع المظالم» و «السياسة الشرعية»، للإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

دعوة الكافر المظلوم .. تقبل

هل تقبل دعوة الكافر المظلوم؟

حمد .س . العلي ـ سورية

الأصل في المعاملة بين الْخَلق، حتى مع الحيوان، العدل، والخطأ هو السبيل المعوج، والظلم جور وتعدي، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالعدل مع الناس كافة فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ .

وظلم الكافر ظلم. فإذا ظُلِمَ بأخذ حقه ونحوه فدعاؤه قد يقبل، لأن الكافر عبد سواء أقرَّ أو لم يُقر، فهو عبد بالفطرة والتوجه لكنه ضلَّ السبيل بسبب الوالدين أو الصحبة أو القراءة أو الغرور والْكِبْرِ، فحق الله تعالى في خلقه العدل .

ولهذا ورد العموم في النهي عن الظلم كما في الصحيح: «ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» وهو حديث قدسي، لكن جهاد الكفار بالقول والعمل بحكمة وعقل ونية خالصة لله من أساس العدل في الأرض، وعند الانتصار عليهم يعاملون بعدل وأمانة حسب «فقه الأسرى» كما هو مُدوَّن في مطولات كتب الأحكام من كتب الحديث والفقه والتفسير.

صفر كغيره من الشهور

هل ورد أن شهر صفر شهر شؤم ؟

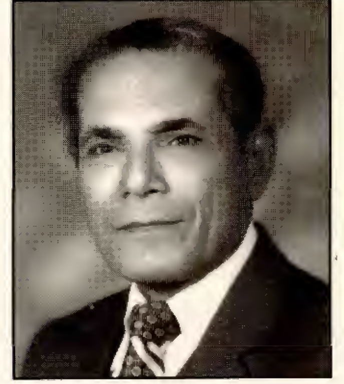
بكر عدناني ـ جازان

بل الذي ورد خلاف هذا، فقد جاء في الحديث الصحيح النهي عن التشاؤم من صفر: «لاهامة ولا صفر»؛ وذلك أن بعض العرب في الجاهلية كان يتشاءمون فلايسافرون ولا يتزوجون ويمسكون أنفسهم حتى يخرج هذا الشهر. ودلت الحوادث السلبية، والإيجابية أن صفر كغيره من الشهور ليس فيه مزية في حصول شر أو خير .

ولعل هذا الاعتقاد ـ كما حصل لغيره ـ جاء عن طريق الخوف الوهمي لتعلق حدث ما بطير أو شهر أو مكان في الجاهلية العربية.

والقلب إذا خلا من اليقين الصحيح، والتوحيد الواعي يكون محلاً للوهم والوسواس. انظر مثلاً ماتمر به الحضارة المعاصرة من الأمراض النفسية والعصبية، وتصديق المنجمين والكهنة . والله المستعان.

تجربتي مع الشعر



يس الفيل

لأدري الآن، سوى أني وِلدتُ أحب هذا الفن الجميلَ «الشعر» . وحين أسترجع الزمن - وما أصعب ذلك على من يحاول - فلا أدري إذا كان هاجسُ الشعر هو الذي كان يقودني إلى مصادره الضئيلة في قريتي « دست الأشراف، مركز كوم حماده ، بحيرة » ؟، تلك القرية الهادئة المتواضعة في ريف مصر، التي تبدو للعين كمثلث أحدُ أضلاعه ترعة النوبارية، والآخر جنّابية الحاجر، والتي تشكل في مجموعها وحدة متجانسةً من البشر.

فتحت عيني على المدرسة الابتدائية - تلميذاً بقريتي - كمئات التلاميذ، نخرجُ إليها في الصباح مجموعة من بيت واحد، هو بيتنا الكبير، الذي تحول الآن إلى أربعة بيوت.

أذكرُ وأنا في الصف الثالث الدراسي، أني فوجئت بمدرس الرياضيات يستدعيني إلى الصف الرابع، ويطلب مني حل مسألة كتبها على السبورة أمام تلاميذ هذا الفصل، ولم أتردد، كانت المسألةُ صعبةً حقا، لكني ما إن بدأت، حتى تتابعت خطوات الحل، ووصلتُ إلى المطلوب.

هذه الحادثة البسيطة العابرة - وشهودها قائمون - فتحت عينيَّ على تميز فيّ لأدريه، لكني الآن، وبعد هذه المرحلة الطويلة، أدرك أن تفوقي - إن صح أني تفوقت - لم يأت من فراغ أبدا.

بين المدينة والقرية

انتقلت إلى المدينة كاتبا بمديرية دمنهور التعليمية بعد حصولي على الابتدائية، سعدت بهذا الانتقال وحزنت في آن واحد. سعدت أني سوف أرى العالم، وأعيشه، مدنية وعلما وثقافة وتطورا وحركة، وحزنت أني أترك مهد الحب، وموطن الذكريات ودفء الأهل وحنو العشيرة، ثم بعد ذلك من يدري، أأطفو على السطح؟ أم تبتلعني الأمواج، كما ابتلعت من قبلي أناساً؟ نلوك قصصهم، ونتندر بما آبُوا به من إحباط وخيبة.

غادرت القريةَ وأنا أحملها في قلبي :

وكنا ألفناها، ولم تكُ مألفاً
وقد يُؤلَفُ الشيءُ الذي ليس بالحسن
كما تُؤلفُ الأرض التي لم يطب بها
هواءٌ ولا ماءٌ .. ولكنها وطني !!

نعم، هكذا كانت، وكان هاجس الأدب قد انفرد بي فيها زمنا، ومن ثم رحتُ أكتب القصة، طويلةً ، وقصيرةً . وقصتي الطويلة «اليتيمة» التي كانت حصاد تلك المرحلة، والتي تقع في أكثر من مائة صفحة لاتزال حبيسة الأدراج مع العشرات من القصص القصار، التي جاءت تقليدا للكبار من أمثال تيمور وعبدالحليم عبدالله وأمين يوسف غراب والسحار وغيرهم .

في دمنهور - وقبل أن ألتقي بأدبائها - جمعتُ عدداً من القصص القصيرة،

ودفعت بها إلى المطبعة، لتكون أول وآخر مجموعة قصصية تصدر لي بعنوان « أنا القاتل » عام ١٩٥٦م .

الميناء ومعركة بورسعيد

بعد صدور هذه المجموعة القصصية، وفي أواخر عام صدورها تقريباً حدث العدوان الثلاثي على مصر، وتصدت له «بورسعيد» في شموخ، وهنا تغير وجه الدنيا، واختلط كل شيء في داخلي، تطوعت مع من تطوع في الحرس الوطني، لكن سرعان ماتوقف إطلاق النار، وعاد التلاميذ إلى مدارسهم، ويكون الدرس الأول بعد العودة عن المعركة، وأكتب مسرحية من فصل واحد بعنوان "الميناء"، بطلها مدرس اللغة العربية، وممثلوها التلاميذ المنبثون بين المشاهدين في الصالة، ونسيجها من الشعر الفصيح والعامي والنثر. يدخل المدرس، يحيي التلاميذ، يكتب على السبورة كلمة «الميناء»، ويطلب من التلاميذ تعريف الميناء، ويعرفه كل منهم بحسب ما اختزنته ذاكرته لهذا المكان، لكنه يفاجأ بواحد منهم يقول:

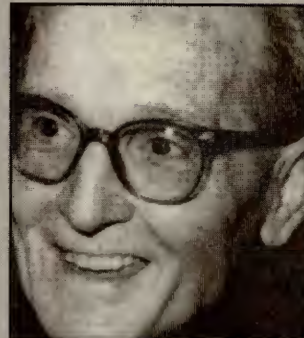
المينا ياأستاذ سعيد
قلعه مبنيه بحديد
شفتها في بورسعيد
قبل ماتجيلها البليه
أصل أنا جاي من هناك
جاي أنا وأهلي هنا في المحمودية(١)
جابني أبويا غصب عني
ليه يجيبني
موش يسيبني
بس كان جاب لي بندقية ؟

الغريب أني، ومخرج المسرحية عجزنا عن العثور على من يمثل شخصية البطل «المعلم» فمثلتها أنا.

تعرفت بعد ذلك على أدباء دمنهور بمقهى المسيري، كانوا مجموعة من الشباب الواعد يقودهم صاحب المقهى العصامي عبدالمعطي المسيري، أذكر منهم: فتحي سعيد، رجب البنا، خيري شلبي، صبري العسكري، بكر رشوان، عبدالقادر حميده، حامد الأطمس، محمود أبو المجد، مصطفى فليفل، عبدالوهاب قتاية، سعيد فايد، محمد فريد، حسن قاسم، محمد نعيم.

امتد نشاط هذه المجموعة إلى القاهرة في شكل ندوات ونشر وجوائز، وفي دمنهور أقامت ـ أي المجموعة ـ المهرجانات الشعرية بالنادي والمستشفى والميادين العامة، واستضافت في المقهى يحيى حقي، ومحمود تيمور، وحافظ محمود، وإبراهيم المصري، ومحمود حسن إسماعيل، وأحمد عبدالمعطي حجازي، وغالي شكري، وسواهم. ورغم هذا النشاط، فقد انفرط العقد، وتفرق الأحباب، حين رحلوا جميعاً في بداية الستينيات إلى القاهرة، وبقيتُ وحيداً، إلا من سعيد فايد ومحمد فريد، الذي أصدر جريدة «الشعب الحر» الشهرية التي مارستُ الكتابة فيها زمناً، حيث استحدثت فيها باباً للمواهب الجديدة، أناقش فيه إبداعهم، وأعرض الجيد منه في هذا الباب، وأوجه من يحتاج إلى التوجيه، بالإضافة إلى المساحة الأخرى لمتابعة وعرض الإبداع الأدبي والشعري.


عباس العقاد


محمود تيمور

رفضي الانتقال الى العاصمة تسبب في تأخر نشر أعمالي إلى ما بعد الستين

أذكر جيداً، كيف تحولت من كتابة القصة إلى إبداع الشعر، فبعد العدوان الثلاثي، كتبت كلاماً أشبه بالشعر، قرأته في مقهى المسيري، مع من يقرأ على الكبار، قوبلت بالتشكيك والإحباط لكني كنت أقابل ذلك بالإصرار والتحدي، إلى أن وفد إلى دمنهور مدرس للغة العربية ممن يكتبون الشعر وينشرونه بمجلات القاهرة، ومنذ الوهلة الأولى يكتشف هذا الشاعر الوافد(٢) أني شاعر، وألازمُهُ إلى أن ينقل إلى بلدته شبين القناطر بعد أن يأخذ العهد عليّ ألا أترك الشعر أبداً .

كمن يبحث عن ذاته المفقودة، كنتُ ـ في سنوات معدودات ـ أحصلُ على الجوائز

في الشـعـر، والمغناة (الأوبريت الغـنائي) والنشيد، توجـتـها في ذلك الحين بالجـائزة الأولى على الجـمـهـورية عام ١٩٦٣ في مـسـابقـة المجلس الأعلى لـلفنون والآداب والعلوم الاجـتـماعيـة، وكان من حكام هذه المسابقة صالح جودت، وباكثير، ومحمود حسن إسماعيل، ومحـمـد علي أحمـد، وعلى رأسهـم العقـاد الذي سـئل عقب اختياره لقصيدتي الفائزة عن التميز الذي انفردتْ به، ويجيب الرجل : يكفي أنهـا لشاعر يحترم نفسه وفنه.

وهنا أعود إلى الوراء قليلاً، وأتذكر :

أ ـ أكان نقلي ـ وأنا بالقرية ـ لأشعار ألف ليلة وليلة في كراسات، وحفظهـا، استجابة لهذا الهاجس الخفي، ؟! لاأدري !!!

ب ـ أكنتُ وأنا أقدمُ للقراء مجموعتي القـصصـيـة الأولى شعراً، أخضع دون أن أدري لرغبـة مطمـورة في الأعـمـاق؟! أنا لاأدري أيضاً.

كلُ الذي أدريه، أني لم أكن أعرف، ولو عـرفت يومـهــا، ووجــدت من يحـسـن توجيهي، ويرشدني إلى ماعرفتُ الآن قبل أن تتبــدد سنوات العمـر في التـجـريب، لكنت شيئاً مذكوراً يختلف عني الآن كل الاختلاف.

أعود مرة أخرى إلى القـرية وفضلها عليَّ، وفي هذا المجـال لاأنسى رفــاق الصـغـر، حين كنا نحـصل على ديوان شعـري أو رواية أو مجمـوعة قصصـية، فنتحلق حولهـا على رأس حقل في ظل شجـرة التوت(٣) التـي مازالت قائـمة، نقرأ، ونتجادل، ومـاأبغض انتصار الفرد لرأيه ولو كان خطأ .

إحساس الشاعر هو الأصدق

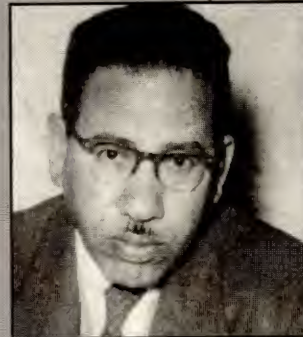
أذكر ونحن نجتمع ذات ليلة في بيت من بيــوتنـا أن راح الكل يجـادلون فـي عنوان قـصـيـدتي (بـراعم المحـال) التي أقـرؤها عليــهم، وأخـرج من الجـدل بقـلـب ينزف دمـا، فـقـد انقـضـت الليلة رفـضـاً وإدانةً وتثبيطاً، غيـر أن المفاجـأة في الصبـاح، قد أعـادت ترتيب الأشيـاء فـي داخلي، حين وجدت القصيدة منشورة بالعنوان نفسه في مــجلة الشـعـر التي كــان يرأس تحــريرها الدكـتــور عـبـدالـقــادر القط. من يومـــهـا تضاعف يقيني بصدق الشاعر وقدرته على المعايشة بحـميميـة تفوق من يقرؤون له، أو يجـادلونـه ـ حتى ولو كـانوا مـن حكمـاء الزمان ـ .

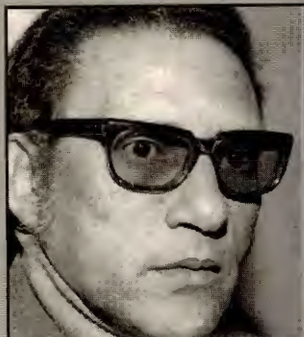
ولاأنسى ـ في هذا المجـال أيضـاً ـ أن أول عمل شعـري ظهر لي في مجلة الشـهر عام ١٩٦٠، ولفت الأنظار إليَّ، كـان قصيدة بعنوان : « ذكـريات من القـرية »، ذلك أن هذه القـصـيـدة قد نشـرت بعد جـدل على صفـحات هـذه المجلة(٤) .. تقلد أسلحـة المعركة بيني وبين صاحـبها ورئيس تحريرها الأسـتـاذ سـعـد الدين وهبـة ـ أمـد الله في عمره ـ .

ولأن جـودة الإبداع واطـراد تطوره لدى الشـاعـر يرتبط دائـمـاً بتـقـدير هذا الإبداع ونشـره بصـورة كريمة على أكـبـر مـساحـة تستوعبه، فإني أسجل في هذا المجال القفزة العريـضة، التي قـفزتها، بـعد أن احـتـضنت إبداعي المجلات العربية الـناهضة، من أمثال المجلة العربيـة والـفـيـصل والحـرس الوطني والمنهل والقـافلة والخفـجي والتوباد والجيل والشـرق السـعـودية، ثم المنتـدى (دبي) ، وكذلك البـيان والكويت والعـربي والقبس والوعي الإسـلامي والخـيـرية الـكويتيــة، بالإضـافـة إلى المجـاهد الجـزائرية، والمشكاة المغــربيــة، والأديب اللبنانيـة، والطـليـعــة السـورية، والدوحة القطرية، كل ذلك بعـد أن تبوأت مكانا ملحوظا في مـجلات مصر من أمثال الرسـالة والثقافة والشـعر والهلال والأدب والكاتب، وبعـد أن نشــر إبداعي الشعري في كل الصـحف المصرية القاهرية والمحلية على السواء .

الطبع بعد الستين

أعـترف الآن أني خـسرت كـثيراً بعـدم الاسـتجـابة لنقلي إلى الـقاهرة حين عـرض عليّ ذلك الأديب يوسف السـبـاعي رئيس مـجلس إدارة دار الهلال ـ يـرحـمـه الله ـ . وتتمثل هذه الخسارة في أني لم أطبع ديواناً شـعريا قـبل السـتين من العـمـر، وحـتى الآن لم يظهر لي سـوى ديوانين هزيلـين همـا : الميلاد ، وحكايات الخـريف ١٩٨٩م ، وتوقـيــعـات حـادة علـى الناي القـديم ١٩٩٠م، ويتـبـقى لدي من الأبداع الشـعـري عـشـرة دواوين تقـريبـاً ، لاأدري متى


علي أحمد باكثير


فتحي سعيد

تصدر ؟ بالإضافة إلى قصة طويلة ومجموعة قصصية أو أكثر .

ورغم بعدي عن بؤرة الضوء في القاهرة، إلا أني حققت الكثير، وإن كان أدنى من إمكاناتي، فبالإضافة إلى حصولي في رحلتي، على أكثر من ثلاثين جائزة في القصة والشعر والمسرحية والمغناة (الأوبريت الغنائي) والنشيد، فقد نشرت إبداعي في معظم الصحف والمجلات المصرية والعربية، وإنه لمن الشرف الذي لأدعيه أن أكون عضوا مؤسسا باتحاد الكتاب، وعضوا بجمعية المؤلفين والملحنين، وعضوا بهيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية، وعضوا برابطة الأدب الحديث بالقاهرة، وعضوا مؤسساً بجمعية

كان العقاد رئيسًا للجنة تحكيم أول مسابقة أفوز فيها

الأدباء بدمنهور . والجدير بالذكر هنا أن لي قصة قصيرة(٥) مقررة على طلبة الصف الثاني الثانوي بالمملكة العربية السعودية، وسبعة أناشيد مدرسية لطلبة المرحلتين الابتدائية والإعدادية بمصر .

التجديد عندي ليس شكلاً، والحداثة ليست نثرا يطول أو يقصر على السطور، بعد أن يصفى من دمه، ويتجرد من خصوصيته، وإنما التجديد عندي مضمون جديد، ولو ارتدى عباءة الجدود. والحداثة تجاوز لما سبق بشرط الاستماتة على كل مواصفات الشعر من رؤى وموسيقى ولغة وبيان يبرز مايصطرع على الساحة مما يؤرق البشر.

على هذه الثنائية امتدت رحلتي، وتنوع إبداعي دون تعسف في فرض شكل معين على التجربة الشعرية، التي أمنحها الحرية الكاملة في اختيار الثوب الذي يبرز روعتها، لذلك فديواني الأول قد جمع بين الشكلين الخليلي والتفعيلي، بينما اقتصر ديواني الثاني على الشكل التفعيلي .

القرية مفتتحي وخاتمتي ، تجري في شراييني مجرى الدم في العروق، بها ولدت، وأقمت العمر عاشقا لها، وبعد حين أصير حفنة من ترابها. لاأذكر أني تخلفت عن عيد أسعد به مع الأهل فيها، سوى عيد يتيم، أُجبرت فيه على الابتعاد عنها، ورغم ذلك فقد اجتاحتني القرية فيه اجتياحا أفرز قصيدتي (دمعة.. في يوم عيد)(٦) .

وفاءً للكلمة .. وحبا للوطن . . الملجأ والملاذ .. لم أترك مؤتمرا أدبيا، ولامهرجانا شعرياً من أقصى الوادي إلى أدناه، ومن شماله إلى جنوبه.. إلا وشاركت فيه، مؤكداً قيم الحب والخير والإيمان. متكئاً على موروث إسلامي خالد، ومرتكزا على تراث عربي لايَزل بمن استند إليه.

صداقتي بالشعراء في كل مكان ، هي الرصيد الذي يملؤني ثقة واعتزازا وحباً، ويدفعني إلى المزيد من التجويد والتألق، لأظل عند حسن الظن بي دائماً .

جائزة البابطين

كانت جائزة الشاعر عبدالعزيز سعود البابطين (أحسن قصيدة لعام ٩١) في المسابقة التي تجري على مستوى العالم العربي، كانت هذه الجائزة تتويجاً لجوائزي الثلاثين، بقدر ماكانت تعويضاً عن سنوات الإهمال والتعتيم التي امتدت ثلث قرن ويزيد.

أخيرا ..

بكل الإكبار .. لا أنسى من تتلمذت على أيديهم أبدا ، ومهما تقدم بي العمر، واستوت خطواتي على الطريق، فسأضع نصب عيني دائماً : من علمني حرفا ..

من هذا المنطلق ..أذكر في مجال الفضل.. كل الأعلام العرب ابتداء من زهير بن أبي سلمى، وانتهاء بأصغر شاعر يعبر الطريق .. كما لاأنسى فترة التكوين .. ومن أضافوا إلى بنياني الأدبي لبنات فيها، من أمثال المنفلوطي والرافعي وهيكل وطه حسين والعقاد، ثم أضع على رأس القائمة دائماً كتاب الله الخالد «القرآن الكريم» الذي حفظته صغيراً في «كُتّاب سيدنا»، والذي أتفيأ ظلاله، كلما أدمى روحي جفاف الروض، أو عصفت بقلبي ريح الزمن، والذي سيظل ماحييت ملاذي .. ونبراسي على الطريق .

الهوامش :

(١) المحمودية .. مدينة على شاطئ النيل فرع رشيد وهي عاصمة مركز من مراكز البحيرة سمي باسم المدينة.

(٢) هو الشاعر عبدالمنعم عواد يوسف أمد الله في عمره .. والذي أدين له بفضل اكتشافي شاعراً .

(٣) تبدو هذه الشجرة جلية في قصتي «الثعبان المزعوم» التي كتبت أثناء حرب الخليج والمنشورة بمجلة الخفجي عدد شهر مايو (أيار) ١٩٩٢، ص ٤٦ .

(٤) المجلة هي مجلة (الشهر) التي كانت تصدر في ستينيات هذا القرن وتوقفت الآن.

(٥) القصة بعنوان «مدرسة الحياة» بكتاب المطالعة للصف الثاني الثانوي بنين من عام ١٩٨١ ص ١٥١ ومابعدها .

(٦) القصيدة «دمعة.. في يوم عيد» منشورة بديواني الثاني (توقيعات حادة.. على الناي القديم) ص ٩٥ .

العنوان: شعراء آل زيد وشعرهم (نصوص وتراجم)
المؤلف: حمد بن زيد الزيد.
الناشر: هجر للطباعة والنشر. مصر - (١٣٧ ص).

إذا كان الدافع الذي حدا بمعد ومقدم هذا الكتاب، هو الحب الأسري، والنسب العائلي القريب المتفرع من الجد الرابع، فإن دافعنا إلى عرضه هو التأكيد على قيمة المختارات الأدبية والشعرية في تنمية الذوق الفني، وتحسس مواضع الجمال في تلك المختارات، التي هي حقيقة تراثية في الأدب العربي على مرِّ عصوره.

ولهذا فإننا سنتجاوز، في هذا المقام، الكثير من شعراء آل زيد وبخاصة الذين لا نجد لهم في هذا الكتاب غير الشعر العامي. ويبدو أن المعد (حمد بن زيد الزيد) ممن يغرم بهذا النوع من الشعر الشعبي، لأننا نجد له بعض القصائد منه.

ويعترف أن غرضه هو «تلبية رغبة الأخوة الذين يكنون لعائلتنا الأدبية الود والذكر الطيب»، كما أنه لم يرم إلى الدراسة أو التحليل أو الإعداد الأكاديمي العلمي. ولم يجمع فيه غير عشرة شعراء.. بدءاً بمن كانت ولادته عام ١٢٩٤ هـ، وانتهاء بمن كانت ولادته عام ١٣٨٤ هـ. على أننا سوف لا نقف إلا عند شاعرين هما: إبراهيم بن محمد الزيد، وحمد بن زيد الزيد مُعدّ هذا الكتاب، لما لهما من شهرة أدبية ومؤلفات متعددة. فالشاعر إبراهيم الزيد،


حمد الزيد



ولد بمرات عام ١٣٥٧ هـ، حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة (اكستر) في التاريخ والأنساب، وكانت في تحقيق كتاب عمّه (عبد الرحمن بن حمد بن زيد): [المنتخب في أنساب قبائل العرب]. وله ثلاثة دواوين شعرية مطبوعة هي: المحراب المهجور، وأغنية الشمس، وجراح الليل، وبعض الكتب الأخرى. أما الشاعر حمد الزيد، فكانت ولادته أيضاً في (مرات) عام ١٣٦٣ هـ. حصل على درجة (البكالوريوس) في التربية والجغرافيا. له ديوان شعري مطبوع هو [حروف على أفق الأصيل]، ومجموعة قصصية بعنوان [مغازلات ومعاكسات] وبعض الكتب النثرية مثل: [خطرات في الأدب والفلسفة والسياسة] و [كاتب وكتاب].

وقد اختار المعد حمد الزيد للشاعر إبراهيم الزيد ثماني قصائد هي: [ريح الخزامى، بين قروي والسلامة، هواجس نفس، العبقرية المظلومة، يافتية العرب، خواطر نفس، لواعج الذكرى، قوة الحياة].

ونلمح في شعر إبراهيم الزيد الكثير من خصائص شعرنا العربي القديم في نهج القصيدة ومعانيها، سواء كان ذلك في قيم وإيحاء الديار وحبها في المقدمات الطللية والغزلية، أو في معانيه ومفرداته وأجواء الغزل التي تصور وتترجم عالم الفروسية وعدتها وسلاحها.

ولهذا فهو يجمع بين الشعر العربي المشرقي، والشعر العربي الأندلسي، كما يجمع بين التراث والمعاصرة. يقول من قصيدته (ريح الخزامى):

ما في التغني بحب الدار من باس
إذا أتى الحب عن صدق وإحساسِ
فحبك الدار..حب منك ساكنها
وحبك الأرض.. إيماء إلى الناسِ
وليس في ذاك إيماء إلى دمن
من الدوارس.. إني لست بالناسِ

ويقول من قصيدته (بين قروي والسلامة)، وهو يحوّل المغامرة الغزلية إلى أسلحة وفروسية:

آه من رمش طويل
شك في قلبي سهامه
لو رأى الفارس جيداً
أتلعا.. ألقى حسامه

وقد نجد في بعض قصائد هذا الشاعر المختارة تجسيداً وإجلالاً للمبدعين وحملة الأقلام والمفكرين الذين ينيرون الطريق المظلم بشموع عطاءاتهم الوجدانية والفنية والفكرية.. كما في قصيدته [العبقرية المظلومة] . وهي قصيدة مثيرة وملتزمة، يقول فيها عن:

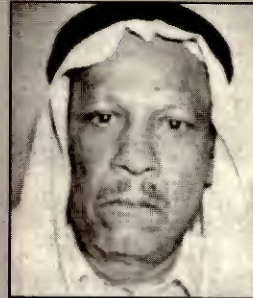
الرافعين مشاعلَ في ظلمة
الذائدين الشر عنّا.. من هموا؟

الناذرين حياتهم من أجلنا
ولأجلنا.. تلقى الصعاب فتبسم
الواقفين مشاعرًا مشحونة
ومواهبا جلًى.. تجيش وتخضم

بينما نجد أكثر ما أعده حمد الزيد من شعره كان شعرًا حرًا منسرحًا، لا يخلو من الأصالة و لا سيما في قصيدته [إياب] التي تصور العائدين إلى أوطانهم بعد اغتراب طويل، وحنين رائع إلى لثم تراب الجدود، فقد عبَّر فيها عن تجربة عودة المغترب خالي الوفاض: [يا تربة الأجداد/ أعود بعد غربة الأعوام كالسراب/ أثير فيك لوعة الغياب/ أعفر الجبين بالتراب/ بعدما حوصرت بالضباب/ أعود أشمط../ وشاحبا../ فلا لهو ولا شباب/ أعود عاريا/ وجائعا/ فلا خيل ولا ثياب/ أعود لا رغائب/ ولا هدايا في يدي/ بل اكتئاب].

على أن حب الشاعر للعامية الشعرية كما ذكرنا، جعله يختار بعضًا من نظمه العامي الذي يجيء نشازًا بين شعره، وإن كثرت في هذه المختارات القصائد الزيدية العامية.

العنوان : لقاء عند منتصف الليل ، وقصص أخرى
ترجمة : محمد علي قطب
الناشر : دار ثقيف للنشر والتأليف : ،الرياض
ط ٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م (١٥٧ص).


محمد علي قطب

لقاء عند منتصف الليل وقصص أخرى
ترجمة
محمد علي قطب

إن الترجمة فن إبداعي إذا التزم المترجم أصوله ومقوماته . وأبرزها الحسُّ الأدبي والثقافي، وجودة الأسلوب، وإتقان وتفهم اللغة المترجم عنها، وللترجمة دور في نقل عيون الآداب وثقافات الآخرين إلى لغة القوم المُتَرْجَم لهم، كما أصبحت الترجمة جسراً في التواصل بين الشعوب وثقافاتهم وعاداتهم.

وتعد الترجمة القصصية أفضل أنواع الترجمات؛ لما في القصة من أجواء وأحداث وشخصيات وأمكنة وأزمنة كلها تتبلور للقارىء بصورة شائعة وجذابة يعيشها بمتعة لاحدود لها، لأنها بعناصرها الفنية استطاعت أن تستحوذ على فكره وخياله ووجدانه، ولاسيما إن كانت تلك القصص من أعمال مبدعين كبار، ومن مترجمين لايقلون براعة وإبداعاً في ذلك الفن عمن ترجموا لهم. لذلك فما أحوجنا إلى الترجمات القصصية.

وفي هذه المجموعة القصصية المترجمة من الآداب الإنجليزية والفرنسية والألمانية والهندية... إلخ - كما يقول المترجم محمد علي قطب - يعيش القارىء مع أربع عشرة قصة، الأولى "كانتفرستان" ألمانية لجوهان بيترهيبل، والثانية "لقاء عند منتصف الليل" أمريكية لأرتور كوردون ، بينما الثالثة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والثانية عشرة والرابعة عشرة (الأخيرة) .. كلها دون ذكر لكتابها ، أي نصف المجموعة. يضاف لها الثالثة عشرة "بعد اليأس" للمترجم محمد علي قطب، لأنها أجنبية لبيئتها ومكانها وأسماء شخصياتها. بينما الرابعة "العلامة الفارقة" فرنسية لجورج بويد، والخامسة "شجرة التوت" روسية لأنطون تشيخوف، والعاشرة "لاعذر اليوم لكلايت" لهنريت دي ماسي، والحادية عشرة "من المعدة إلى القلب" لجيمس روبرت .

وجميع هذه المجموعة القصصية قصيرة، لم تتجاوز القصة الواحدة فيها ست صفحات من حجم الكتاب الصغير، ماعدا "بعد اليأس" فكانت ثلاثاً وعشرين صفحة ، أما "ساعديني ياأماه" (الأخيرة) فكانت ثلاثاً وأربعين صفحة. كما أن جميع كتابها ليسوا من روادها، غير تشيخوف، فهم مغموزون. ولا يمكننا أن نجد علاقة أو قاسماً مشتركاً لتلك القصص. ولهذا تتنازع القارىء شتى المشاعر والانطباعات التي يخرج بها من هذه القصص، إذا استثنينا بعضها مما يغلب عليه طابع الجريمة والإجرام واللصوصية والاعتداء مثل : "إرادة القدر" ، "العلامة الفارقة" ، "لاعذر اليوم لكلانت" ، أو طابع الاحتيال على نحو مافي قصتَّي : "حيلة بارعة" ، و "صوت ملائكي" .

على أننا قد نجد طابعًا إنسانيًا في بعضها الآخر مما يخلد في ذاكرة القاريء على مرّ

الزمـان، مثل : "لقـاء عند منتـصف الليل"، "السيد جنت مـوس ابتـسم مرتين"، "سـر السيد بارنس".

أما القـصتـان الأخيـرتان، فقـد استـغرقـتا نصف المجموعـة تقريباً كمـا رأينا، كما نرى مثـيلاً لهمـا دومـاً في مسلسـلاتنا التلفـازية وأفلامنا العربيـة، فالأولى عن فشل وخطورة استـمرار الحمل والولادة علـى الزوجة وتبني الزوجين طفلـة، ثم الولادة الأعـجـوبة، واخـتـلاف مـشـاعـر الزوجين في حب الطفلتين. وكان يمكن لهذه القـصة التألق لو أحْسِن تحليل تلك المشـاعر من خـلال الفن الموحي بلمـسـات بارعة، ولهـذا لاندري إن كان ذلك الخلل يتحـمله المترجم أو القاص، ولاسـيمـا أن أحداثهـا وحوارها كـانت مملة ورتيبـة، خـلافاً للـثـانيـة أو الأخـيـرة : "ساعديني ياأماه"، التي تحمل قدراً كبيراً من الإثارة والتـشـويـق والمتـابعـة إلى آخـرها، والقاريء يتعـاطف مع تلك الأم التي تبحث عن فـتـاتهـا الضائعـة، بكل صـدق وحـرارة مشـاعر الأم، رغم أن الجـانب الآخر ـ الزوج وأخته وبـعض سلطات الأمن ـ لاتأخذ بتلك المشـاعر، ولاسـيمـا أن لها تجربة قـديمة مع الجنون منذ ثمانية عشر عاماً، يوم كان عمر ابنتـهـا سنتين. وهاهو ذا عـمـرها عـشـرون وتُفقد طيلة عـشرة أيام، والأم لاتظن إلا أنها خُطفت. ولكنهـا وقعت في حالة غـريبة من تعـاطي المخدرات كـانت سـبب اختـفائهـا. وركز القـاص في النهاية على مـجمـوعة من التيارات المتداخلة في القصة : الزوج يخـشى عودة جنون زوجته، وأخته تسعى إلى تأكيد حالة الجنون، والفتاة تـخشى على أمـها من عـودة الجنون إليـهـا لـو عـادت إلى البيت، وحبيبهـا يقر فكرة حبيبته ويقـيمها في كوخ كأنها مختطفة.

والقصة الأولى للمـجموعة "كانتفرستان" أشبه بالطرفة؛ لأن الشباب يتندرون بـها من عـشـرات السـنين كلمـا وقـعـوا على طالب خـائب عـائد من بلاد الـغـرب، لم يتـزود من لغـتـهم ولا عـلمـهم، ومعنى العنـوان باللغـة الهـولندية «لـم أفـهـم مـاتقـول»، حين يسـأل الألماني أحـد المـارة الهـولنديين بفـضـول عن أصحاب تلك الممتلكات القيمة، فيتلقى ذلك الجـواب : "كـانـتـفـرسـتـان" لأن المسـؤول الهولندي لايفهم لغة السائل الألماني، وكذلك حين يسأل أحدهم عـن صاحب العرس ـ هذا لم يرد في الـقـصـة ـ ثم عن صـاحب جنازة متـوفى. فيـحزن على وفـاة "كانـتفـرسـتـان" مغادراً البلاد يحمل الموعظة والسلوى.

وتقـوم قـصص رواد الأدب العـالمي على تحليل الجـانب العمـيق في النفس الإنسانيـة، وبخـاصـة البـخل، وهذا مـانجده في قـصـة تشـيخـوف "شجـرة التوت"، وقد وجـدناه عند الجـاحظ، حـيث يجـد البـخـيل المتـعـة والمذاق الحلو فـيمـا يخـصـه ويمتلكه، بينمـا غيره يتذوق المرارة التي فيه.

على أن أجمل قصص المجموعة هي القصة الثـانيـة "لقـاء عند منـتـصف الليل"، ليس للحدث نفسه، وإنما لطريقة رسم تتبع عفوي وفني آسـرين، يقـودان القـاريء إلى وسط المشهد والواقع، ولاسيما وقد نجح القاص في الربط ـ في آن واحـد ـ بين عثوره على فتـاة توشك على الانتـحار، وعلـى قطعة مـعدنيـة ثمـينة لعجـوز يبحـث لها عنهـا. وإننا أخيـراً ندعـو المتـرجم وغيـره من المتـرجـمين إلى الاختيار الفني الأجـمل، كي يتمتع القاريء ويستفيد.

العنوان : أنا والحمد لله
المؤلف : انتصار العقيل
الناشر : دار البلاد للطباعة والنشر، جدة



ست وعـشـرون مقـالة جـمـعتـهـا المؤلفـة انتـصـار العـقـيل، في كـتـابهـا "أنا والحمـد لله"، مما كانت تنشره من مـقالات أسبوعـية في مجلة «النهضـة»، في زاويتها "موانيء بلا أرصفة".

إن كتابات الزوايا الدوريـة تختلف جودة ونوعـاً وعـمـقـاً حـسب شخـصيـة الكاتب أولاً، ونوعـيـة تلـك الدورية اليومية أو الأسـبوعية أو الشهـرية ثانيـاً، ويبدو أن التـأني والعـمق يشـمل الشهرية، والآنيّة تشمل اليومية والأسبوعية، وإن كانت الكاتبـة انتصار العقـيل تحاول أن تكتب في زاويتـها الأسبـوعيـة موضـوعات متـأنية وعـميقـة تصلح لمختلف الأجـيال في سـاحات عـريضة من الزمان والمكان، وذلك

لحسن الاختيار لموضوعها، وحسن المدخل فيه في آن واحد. فمع موضوعها الأول " أنا .. والحمد لله" "أنا" ، تشيد وتعترف بـ (الأنا) ، وأنها ليست «غروراً ولانرجسية ولا عقداً نفسية» ولاسيما حين تكون منتجة معطاءة، ويقودها ذلك إلى موضوعها الثاني الذي تورد فيه القصة أو الأسطورة اليونانية المعروفة «نرجس»، لتقف عند «حب الذات» ، ومن ثم، عند طموح وإنتاج الإنسان الناجح مع سائر أفراد أمته الناجحة المنتجة التي تشكل (الشعوب المتقدمة). ومايقابل ذلك من إنسان خامل «يجتر أيامه بكسل وخنوع»، وهذا هو الذي أطلقت عليه الكاتبة الإنسان (العلفي)، مما يكوّن مع غيره (الشعوب المتخلفة). ثم تخرج من دائرة (الأنا) إلى موضوعات أخرى عن الحياة، ومافيها من تجارب وحِكم، يجسدها لها الكاتب السعودي الراحل حمزة شحاتة، حين تقف بنا عند بعض أفكاره من خلال كتابه « إلى ابنتي شيرين» ، وتنفي عنه الصفة التي أطلقها على نفسه بـ (اللامنتمي) ، لأنه - كما تقول - سيد الانتماء.

وكنا نتمنى لو وقفت عند تلك الصفة من خلال موازنته بالكاتب الإنجليزي المعاصر «كولن ولسون» صاحب الكتاب المشهور (اللامنتمي) ، لنتعرف على مفهوم الانتماء عندنا وعندهم.

ثم وقفت عند محاضرته "الرجولة عماد الخلق الفاضل" التي ألقاها في مكة المكرمة في شهر ذي الحجة من عام ١٣٥٩هـ ، ثم طُبعَت في كتاب، وفي كل وقفاتها عنده كانت معجبة بفكره وَحِكَمه، ولم تشر إليه كأديب وشاعر. ويبدو أن الكاتبة لم تثرها القضايا الشعرية؛ لأنها تميل إلى الجانب الموضوعي أكثر من ميلها إلى الجانب الفني والإبداعي .

وحتى في قضاياها وأحكامها الأدبية كانت لاتتناول ولاتقف إلا عند مايهم المثقفين عامة، وهي قضية النفع المادي للأدباء أو الكتاب. على أن لها تحليلاً جيداً للأدب النسائي، ذلك الأدب الذي لايضير الأديبات أن يكون أدبهن أدباً نسائياً، طالما أن هذا النتاج يمتاز بمقاييس الأدب المتعارف عليها: الإنسانية والعمق والصدق والأمانة..إلخ.

ولكن معظم القضايا المطروحة في كتابها كانت عن المرأة وحريتها، والزواج وبعض المساوىء التي تنشب بين الزوجين، تناولت ذلك كله وغيره عبر قصص ومشاكل اجتماعية منتزعة من الواقع ، فضلاً عن هموم كثيرة ذاتية كانت الكاتبة محور المشكلة فيها.

ولنقف عند واحدة، مثل «البتر» ، ونمنحها شيئاً من التفصيل: استحالت هذه المقالة إلى خاطرة تولّدت عن بعض انفعالاتها الذاتية لهموم يومية عابرة مرت بها، ومزّقت أوصالها، فتحولت كلماتها إلى فيض من النقمة والغضب والسخط على الآخرين، دون أن تعلل أو تبين سبب ذلك الهيجان، فلا تقرأ غير اتهامات تلقى هنا وهناك، تنعت غيرها بالغدر والجشع والنفاق والطمع، ثم تتجه ثورتها لتشمل «كل الأوضاع».

وتستحيل تلك الثورة إلى رفض «كل هذه المهاترات وكل هذا الابتزاز.. إني أرفض، إني أرفض هذه الغوغائية التي تحيطني اليوم، أبتر كل شيء لايرضيني، أبتر كل شيء يزعجني، أبتر من حياتي كل إنسان أرهقني وأذلني»، وهكذا هي حرب كاسحة على كل شيء من بني البشر. ويكفيها رفقة القلم، وأحبة أربعة « أربعة أبناء هُم كل شيء» وتضيف لهم رسائل القراء الذين لاتعرفهم ، وحتى في « مسك ختامها » تعبر عن أعماقها التي هي « دائماً في حالة غليان كفوهة بركان.. من مثلي محال أن يحط ويستقر في أي مكان » .

وإنها لحالة تجعل كتاباتها مستنفرة متوترة، لاتصلح أن تكون بلسماً للآخرين، ولا مرفأ لهمومهم، وهي التي تكتب لامتصاص أوجاع غيرها ممن تأخذ بيدهم بقلمها. والمعروف أن الكاتب الذي ينساب برفق إلى قلب قارئه هو من يرفض تشنج ذاته قبل تشنج غيره. لذلك كان عليها أن تهدأ طويلاً قبل أن تكتب كثيراً . لأن حالتها الثورية المستفزة، لم تكن غير سحابة عابرة، وخلجة خاطفة، سرعان مايصفو إثرهما الجو والقلب، ولاسيما أنّ لها مواقف عديدة من هذه الكتابات بدت لنا أنها ذات خبرة ودراية بأمور الحياة، وتقدم فكرها وخلاصة تجاربها وثقافتها لقرائها. فكان عليها ألاتعجز أمام أية مشكلة تعترضها، سواء أكانت ذاتية أم غيرية، وقد عجزت عن حل مشكلة تلك المُراهِقَة التي صادفتها في الطائرة .

الرَّصَاصُ يغتال الحياة!

د : فوزي عبدالقادر الفيشاوي

لعل كل الأطباء الذين رأوا الطفلة المسكينة «جيسيكا» قد أبدوا شعوراً بالعجب البالغ من حالتها . فعلى مدى عدة شهور ، ظلت تعاني من آلام في معدتها ، وتأتي بحركات عصبية غير عادية ، وقد كتب لها كل طبيب منهم ، تذكرة طبية ، يطلب فيها تناول الكثير من الأقراص والأشربة . ولكن ، بلافائدة .. فحالة الطفلة مازالت ـ كل يوم ـ تسوء وتسوء . غير أن طبيباً شاباً يتسم بقدرٍ هائل من اللهفة والحماسة ، لاحظ ظاهرة كانت لها قيمتها . فقد لفت نظره ارتفاع مستوى عنصر الرصاص، في دماء الصغيرة العليلة ، إذ كان أضعاف مايتوقعه رجال الاختصاص والأطباء . فأثارت هذه الظاهرة دهشة الطبيب ، وشعر ـ من فوره ـ أن الرصاص لابد أن يكون هو مفتاح حل اللغز . ولم يكن من الصعب عليه أن يوجِّه الوالدين الحزينين ، إلى كل مامن شأنه أن يُجنِّب طفلتهما التعرض لمزيد من الرصاص القاتل . وبمرور الوقت شعرت صغيرتنا أنها في أحسن حال ، فاستعادت شهيتها، واستردت صحتها ، وكأنَّ شيئاً لم يكن يهدد حياتها قبلاً ، وأقبلت أخيراً بنفس أكثر اطمئناناً على الحياة .

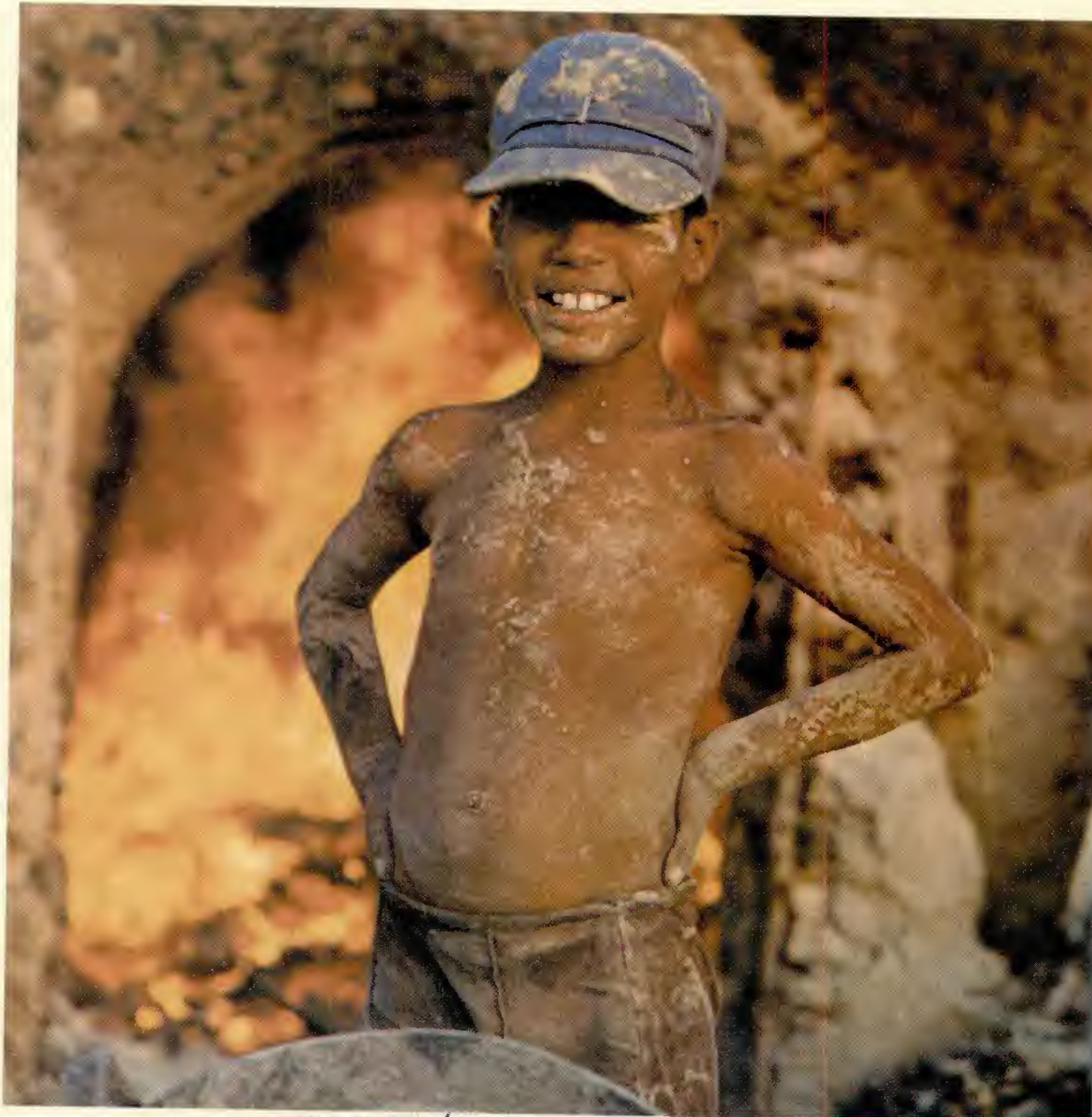
ولما كان حب الاستطلاع في العلم لاحدَّ له ، فلابدَّ أنك تتساءل الآن ـ بلهفة ـ عن قصة ذلك القاتل الخفي ، الذي كثيراً مايغتال ـ في السر ـ الحياة !

بيئتنا ولعنة الرصاص

مما يشغل بال الناس اليوم ، في بلاد العالم المختلفة ، مسألة نقاء البيئة مما يَضرُّ بها. والبيئة ـ عند رجالاتها ـ تتضمن الأرض ، ومافيها من زرع ، والأنهار والبحيرات والبحار ، ومافيها من أحياء كثيرة ، والهواء ، فمنه يأخذ الإنسان، ويأخذ الحيوان أنفاسه ، ومن الواجب أن يأخذها أنفاساً نظيفة . ومما يشغل رجالات البيئة اليوم ويؤرقهم ، ذلك الرصاص الذي يلوث بيئة الناس ، ويضر بصحتهم ، ويهدد حياة أطفالهم ، فيصيبهم بأفدح الأضرار . ففي الولايات المتحدة ـ على سبيل المثال ـ عرف البيئيون أن طفلاً من بين كل ستة أطفال ممن تقل أعمارهم عن ستة أعوام ، يحتوي دمه على كمية من الرصاص تضعه في دائرة الخطر . وعرفوا أن مليونين من هؤلاء ، قد أصبحوا اليوم مهددين في عقولهم ، من جراء ذلك الخطر . وكانت المفاجأة ، حينما أحصوا الملايين ممن تجاوزت نسبة الرصاص في دمائهم حد الأمان المقبول ، وهو ٢ر٤ ميكروجرام في اللتر. ولكن المفاجأة الأعظم ، أنهم اكتشفوا أخيراً ، أن هذا الحد الآمن نفسه ، لم يكن آمناً، وهذه الحقيقة ظلت مجهولة طوال تلك السنين ، ثم جاء الباحثون اليوم ، فكشفوا عنها الغطاء .. فحتى هذا الحد الآمن ، ثبت أن له تأثيرات سيئة في معدل نمو الأطفال ، وفي قدرتهم العقلية. وهكذا كان لابد من إعادة التقويم ، وكان لابد من النزول بحد الأمان المقبول للرصاص إلى ٩ر. ميكروجراماً ليس غير . والحق أن هذا الكشف الأخير ، قد أشاح بقوة عن وجه الرصاص القبيح. ذلك الوجه الذي ظل أعواماً طويلة ، مستوراً . وفي الوقت نفسه ، فالكشف ينبهنا إلى أن العلم لايزال ـ كل يوم ـ يأتي بالجديد ، مما كان قد استبهم على السابقين فهمه .

صفحات التاريخ وأخطاء السابقين

إني لأتذكر كم تملكتني الدهشة ، حينما قرأت ـ لأول مرة ـ دراسة نشرها في عام ١٩٨٧م ، العَالِم الكندي «جيروم فيرياجو» مدير معهد بحوث الماء في أونتاريو . حيث يؤكد بالدليل العلمي ،



للرصاص تأثير سلبي في معدل نمو الأطفال وقدراتهم العقلية

والاستدلال التاريخي، على أن الرصاص كان أحد أسباب انهيار الإمبراطورية الرومانية القديمة. فقد أثبتت تحليلات عَالِمنا وفريقه البحثي، التي أُجريت على البقايا العظمية لأهل ذلك الزمان، أن التسمم بالرصاص كان هو علتهم القاتلة. ولم يكتف عالمنا بتحليلاته المعملية الدقيقة، بل راح يقلب في صفحات التاريخ، علّه يجد قرينة هادية. ولم يطل بحثه كثيراً، إذ وجد في بطون الكتب شواهد عديدة، ودلائل مؤكدة. فالتاريخ يحدثنا عن افتتان الرومان بمعدن الرصاص، بصورة لم تعرفها الشعوب القديمة جلّها .. لقد بهرهم سهولة انصهاره، وقابليته العالية للصبّ والتشكيل، وانبهروا بجمال منتجاته، فتفننوا في صناعته وأسرفوا في استعماله. لقد صنعوا منه ألواحاً، تُسقَفُ بها مبانيهم. وأنابيب لنقل الماء إلى أفنية بيوتهم، وصنعوا منه قناني العطور، وأواني الطهي، وأوعية الطعام وكؤوس الشراب. بل كان صانعو النبيذ لايتورعون عن إضافة عصير العنب المسخّن جيداً في أوعية الرصاص، إلى نبيذهم، استجلاباً لجمال اللون. وهكذا، كان لابد أن تقع الكارثة، وكان لابد للرصاص الذي تراكم في أجساد الناس، أن تتحرك آثاره الضارة تدريجياً. أمّا في هذا الزمان فحدثت ظواهر لم تكن قبل ذلك مألوفة.. فقد عمّت بين النساء حالات الاجهاض المتكررة، وشاعت حالات العقم، وقلة الإنجاب، كما أصبح الضعف العقلي والبله ظاهرة عادية مألوفة. ناهيك عن حالة الضيق والقلق والتوتر، التي انتابت الجميع، صغاراً وكباراً. شيئاً فشيئاً، وبدأ الرصاص يُفْقِدُ الناس رغبتهم في الحياة، وأصبح سلوكهم اليومي غريباً شاذاً. وكانت الطامة الكبرى حينما تسلل الرصاص إلى أجسام علية القوم، من أباطرة ورجال حرب وسياسة، فأصيب بعضهم بالجنون، وبعضهم بالعته أو الصرع. كماحدث بالفعل للإمبراطور «كلوديوس» الذي ظل ـ لفترة طويلة ـ يعاني من أرق دائم، ويشكو من اضطراب في معدته، مع فَقْد لقدرته على التركيز، وكثرة نسيانه. وكذلك ماأصاب الإمبراطور «كاليجولا»، الذي وُصِفَت تصرفاته بالشذوذ، واتسمت قراراته بالعبثية، مما أثار منْ حَوله الفتن والاضطراب في طول البلاد وعرضها. ولاينسى الناس ماكان عليه «نيرون» من اضطراب عقلي وشذوذ. وقصارى القول: إن علة الرصاص كانت قد تمكنت من الجميع، فأردتهم في دائرة اليأس المفزعة، ومنها سقطوا في دائرة ملذاتهم وشهواتهم. وكان لابد ـ عندئذ ـ أن تسقط دولتهم. سقوطاً مدوياً.

ولكن المثير، أنك حين تطالع كتاب التاريخ العلمي، لاتجد فيه تشخيصاً واعياً لما آل إليه حال القوم، ومآلت إليه دولتهم. كان ذلك قبل أن يعرف العلم أخيراً، أن رصاص القوم كان هو قاتلهم الأول. وعرفنا أخيراً أن ماقاله «جيروم» بعد سنين طويلة من البحث، لم يكن خيالاً ولارجماً بالغيب، بل كان بحق دورة أخرى في حلزون العلم



أجواء المدن تتشبع بالرصاص



يجب عدم استخدام علب الصفيح في تعبئة وحفظ أي نوع من الطعام

الصاعد إلى أعلى، وكان خطوة جديدة نحو معرفة واعية فاهمة. ولعلنا لمغزى هذه المعرفة اليوم واعون فاهمون !

هل نحن حقاً واعون ؟

القول الحق، إن رصاص عَالَمِنا اليوم قد فاق كل رصاص الأقدمين. ويبدو أن الحضارة الصناعية الحاضرة مفتونة ـ هي الأخرى ـ بذلك المعدن القاتل المطواع .. فمنه صنع التقنيون آلاف المنتجات .. أنابيب المياه، التي توصل الماء النقي إلى المنازل، والعديد من البويات التي تطلى بها حوائط الأبنية والمساكن، تحتوي على الرصاص، ففي الولايات المتحدة، قدرت إدارة الصحة العامة، أن أكثر من ثلاثة ملايين طن من الطلاء المرصص، لاتزال تغطي جدران ٥٧ مليون منزل بالمدن الأمريكية . ويُستخدم الرصاص في صناعة أنواع من المبيدات الفطرية والحشرية، كما يدخل في صناعة مادة اللحام الجانبي لمعلبات الأغذية. وتحتوي حروف الطباعة على رصاص. وحتى صناعة الذخيرة، يدخل فيها الرصاص. وهو كذلك في القوارير، وأطباق المائدة. وهو عنصر أساس في وقود السيارات، والبطاريات. ويعرف صناع الخزف، أن إضافة أكسيد الرصاص إلى خاماتهم، يضفي على منتجاتهم بريقاً مرغوباً وجاذبية. ويعرف صناع الكريستال ـ أيضاً ـ مايفعله أكسيد الرصاص في منتجاتهم، حينما يحلل الضوء إلى أطيافه الزاهية البراقة . ويدخل الرصاص في كثير من مستحضرات التجميل : أصباغ الشعر، والكريمات، والكحل. وألوف أخرى من المنتجات، حتى تغلغل في صميم حياتنا، بصورة غير مسبوقة في تاريخ الإنسانية كله. ويكفي للتدليل على ذلك، أن إنتاج العالم من الرصاص قد زاد في عام ١٩٩٠م إلى ستة أضعاف ماكان عليه في عام ١٩٦٠م. وهو مؤشر له دلالته الخطيرة ومغزاه. ومغزاه ـ ببساطة ـ أن كل عناصر البيئة من حولنا، لم تعد تسلم من لعنته .. فهو في الهواء، والتربة، والماء، والغذاء. وهو ـ في كل لحظة ـ يخترق أجسامنا، بحيث غدا اليوم الخطر البيئي الأول بالنسبة لأطفال العالم .

رصاص في الهواء

في عام ١٩٨٦م، صدر في الولايات المتحدة قانون جديد لنقاء الهواء. يقضي بالحدّ من محتويات الرصاص في بنزين السيارات بنسبة ٩١٪ ، اعتباراً من ذلك العام، حتى عام ١٩٩٤م، كما يقضي بمنع إضافة الرصاص إلى البنزين تماماً، اعتباراً من عام ١٩٩٥م. وفي خطوة أكثر تقدماً، قرر المسؤولون في مدينة شيكاغو الأمريكية، تحريم البنزين المرصص (Leaded Gasoline) على الفور، اعتباراً من شهر ديسمبر ١٩٨٤م. وفي دول مثل ألمانيا والسويد وبريطانيا وفرنسا واليابان، .... وغيرها، اتخذ المسؤولون



ثمانون في المائة من رصاص الهواء يخرج من عوادم السيارات



هذه المخلفات من البراميل وغيرها تشوه منظر المدن وتضر بصحة سكانها

إجراءات مماثلة . ولعلنا نسأل الآن عن ذلك البنزين المرصص، ولِمَ هذه الضجة المثارة حوله؟ ونعود بالذاكرة إلى عشرينيات هذا القرن، ونترقب مايدور في معامل الكيمياء، ونسمع تلميحات عن أخبار اكتشاف جديد توصل إليه الكيميائيون. لقد كشفوا عن دور خطير، يمكن أن تلعبه مركبات من أمثال: رباعي إيثيل الرصاص (Lead tetraethyl) ، ورباعي ميثيل الرصاص (Lead tetramethyl)، في تحسين خواص الجازولين (المعروف ببنزين السيارات). أجل، فقد عرف الكيميائيون أن لهذه المركبات دوراً مدهشاً في زيادة كفاءة محرك السيارة، وفي العمل على دفعها للانطلاق بصورة أفضل، كما أنها تقاوم كثيراً ظاهرة الخبط أو الدّق (Knolking) التي تَحْدُث داخل المحركات. وقيل يومها إن بوسع هذه المركَّبات حماية المحرك من التلف، كما أنها ترفع رقم الوقود الأوكتيني، والذي يعد مؤشراً على جودة الوقود، حيث يحترق بدرجة أكفأ، وفي وقت أقصر، وبطريقة أسهل.

وبسرعة، ذاع صيت الفارسَين الرصاصيين، ففضلت بعض شركات البترول إضافة واحد منهما إلى الجازولين، بينما فضلت شركات أخرى إضافتهما معاً . وخرجت شركات البترول على الناس تروج للوليد الجديد.. البنزين المرصص، باعتباره تجسيداً عبقرياً للتناغم بين هندسة السيارات الواعدة من جهة، وعلم الكيمياء العضوية من جهة أخرى. ولم يمض وقت طويل، حتى أصبح البنزين المرصص، وقود ملايين السيارات التي تجوب طرقات العالم كله.

ولكن، يبدو أن الصورة اللامعة الوردية، لم تكن إلا وهماً صنعه غرور الإنسان، وضيق الأفق العلمي .. وبعد وقت غير طويل، عرف الخبراء أن الوقود المرصص، حينما يحترق في آلات الاحتراق الداخلي وتتأكسد مكوناته، يُنتج أكسيد الرصاص ضمن ماينتج من عوادم.

وعرف الخبراء، أن هذه المادة غير قابلة للتطاير، ولذلك فسوف تترسب مع الأيام، على جدران المحرك الداخلية، حتى تغطيها تماماً بطبقة صلبة، تفسد المحرك وتوقفه عن العمل. ولكن الخبراء تمكنوا ـ بعد حين ـ من حل المعضلة، إذ عرفوا أن إضافة مادة «بروميد الإيثلين» إلى الجازولين المرصص يتلافى بكفاءة الضرر لأنّ بوسع هذه المادة أن تتفاعل مع رصاص الجازولين عند احتراقه، ثم تحوِّله بدفعة واحدة، إلى مادة جديدة هي «بروميد الرصاص». وهي مادة متطايرة تخرج بسهولة مع غازات العادم الساخنة. وهكذا لم يعد أكسيد الرصاص يترسب على جدران المحرك الداخلية، كما كان، وهكذا حُلَّت المشكلة. وهنا بدا للكثيرين أن مشكلة البنزين المرصص قد انتهت. لكن الحقيقة غير ذلك، صحيح أن هذه التقنية



كثير من الأدوات التي نستخدمها في حياتنا ملوث بالرصاص

المدهشة قد أسهمت بشكل فعال في منع تلف المحركات، إلا أنها قد تسببت بشكل فعال في تلوث الهواء. لقد نجحت تلك التقنية في وقف ترسب الرصاص في داخل محركات السيارات. هذا حق ! ولكنها ـ في الوقت نفسه ـ أطلقت الرصاص في الهواء، ليصيب صدور الناس، وبيئتهم بضرر مبين .

الرصاص في الجليد

دعونا نذكر تلك الحقائق الثمينة التي استخلصها الباحثون، من دراساتهم الكثيرة، التي أجروها على نواتج احتراق الجازولين المرصص، التي تنفثها مواسير العادم في السيارات. لقد وجدوا أن مادة بروميد الرصاص المتطايرة، تكوّن مع الهواء معلقاً دقيقاً جداً، أشبه بالأيروسول (Aerosol). يبقى زمناً طويلاً، ضمن هواء الشوارع، والمنازل، والمكاتب. وحينما قدروا نسبته في هواء المدن الكبيرة، التي تزدحم طرقها بالسيارات، وجدوا في المتر المكعب من الهواء نحو ١٠ـ٥٠ ميكروجراماً رصاصاً. وقد يقول قائل: إنها تركيزات ضئيلة جداً. ونقول: كلا.. فالرصاص مركب عالي السُّمِيَّة، له قدرة هائلة على التراكم في الأجسام، ونتعرض لتأثيره كل يوم، ولهذا فإن مخاطره تصبح محققة. ومما يستطاب ذكره، أن اللتر الواحد من البنزين المحترق يعطي عادماً يحتوي ضمن محتوياته على ملليجرام رصاص. ومرة أخرى، لاتستهن بهذا القدر، ففي الولايات المتحدة وحدها، قدّروا عدد السيارات في عام (١٩٦٦م)، فبلغ نحو ٨١٫٠٩٢٫٠٠٠ سيارة. وحسبوا مقدار ماأطلقته تلك السيارات من رصاص في الهواء، خلال عام واحد، فبلغ نحو ٢٠٠ ألف طن. وهكذا، أصبح واضحاً أن الجازولين المرصص هو بحق العامل الأول في تلوث الهواء بالرصاص. ولكن المدهش العجيب، أن رصاص الجازولين المنطلق، لم يقتصر خطره على جو المدن وحدها، بل إنه وصل ـ مع دورة الهواء ـ إلى كل مكان. فمنذ عدة سنوات، رصد البيئيون في جليد القطب الشمالي (جزيرة جرينلاند) نسبة لايستهان بها من الرصاص، بلغت ثلاثة أمثال نسبتها منذ ثلاثين عاماً فقط. ومما أثار دهشتهم، أن هذه الجزيرة النائية، التي يسكنها حوالي ٥٥ألف نسمة في عام ١٩٨٩م لاأثر للمصانع فيها، ولاتسير في طرقاتها سيارات تنفث في الهواء عوادمها، فمن أين جاءها الرصاص؟ لقد أثبتت التحليلات، أن ١٪ فقط من رصاص جليد الجزيرة، مصدره عوامل طبيعية مثل أنشطة بركانية أو عوامل تعرية، أما النسبة الأعظم (٩٩٪) من رصاص الجزيرة، فقد كان تلوثاً وافداً إليها مع الرياح، الناقلة لعادم السيارات من دول شمال أوروبا، والولايات المتحدة.



بقي أن نزيد، أنّ الباحثين وجدوا أن ثمة علاقة واضحة بين ارتفاع نسبة الرصاص في جليد الجزيرة، وبين ارتفاع معدل استهلاك الجازولين المرصص، في محركات السيارات الأوربية والأمريكية. ولقد تأكدت هذه العلاقة، حينما رصدوا انخفاض نسبة الرصاص في الجليد المتساقط على الجزيرة، خلال عامي ١٩٨٣م ، ١٩٨٤م. وهي نفس الفترة التي بدأت فيها الولايات المتحدة تنفيذ برنامج ضخم يسعى لخفض اعتمادها على الجازولين المرصص، وإحلال مواد أخرى أقل ضرراً للبيئة محله.

والآن، يتعين علينا أن نتساءل عن مصير دقائق الرصاص المعلقة في الهواء، وكيف تتسرب إلى الأجسام، وكيف تغتال ـ في السرـ الحياة؟ .

رصاص في الأنفاس، وفي الغذاء

بديهي أن أول طريق يسلكه الرصاص إلى أجسامنا، هو تلك الأنفاس، التي تتردد في الصدور صباح مساء. عن طريق الاستنشاق، كما يدخل الرصاص مع مانتناوله من غذاء، فعند العلماء، أن نحو ٩٠٪ من كمية الرصاص التي تتسرب إلى الأجسام، تدخل عن طريق الطعام. من نباتي وحيواني.. طازج أو مصنّع، ونزيد الأمر إيضاحاً، بأن دقائق الرصاص المعلقة في الهواء كثيراً ماتترسب، فتسقط على الأرض، وبخاصة القريبة من شبكات الطرق السريعة. وحينما تتلوث التربة الزراعية بالرصاص، تقوم النباتات المزروعة فيها بامتصاصه، فتزداد نسبته فيها، وهكذا أثبتت تجارب الباحثين، أن نسبة الرصاص تكون دائماً أعلى في النباتات القريبة من طرق المواصلات، موازنة بالنباتات المزروعة بعيدة منها.

وتؤكد إحدى الدراسات أن متوسط تركيز الرصاص في الأراضي الزراعية البعيدة من حركة السيارات ، لم يتجاوز


أواني الصيني.. الأوعية الأكثر أمانا


الرياح تحمل الرصاص إلى هذا الجليد

١٥ جزءاً في المليـون، بينمـا متـوسط التركـيز في الأراضي الزراعية القـريبة من الطرق هو ٢٢٦ جزءاً في المليون .

وعلـي حين بـلغ تـركـيـز الرصاص في الأجزاء المأكولة من نباتات زُرِعت في تربة غير ملوثة جزءاً واحداً في المليون، بلغ في نبـاتات المناطق الملوثة نحو ٥٠ جزءاً في المليون.

إنهـا دراسـات بـالغـة الدلالة، تكشف بجـلاء بعض مـاكـان خـافـيـاً من أخطـار، ولكن واجب الصراحة التامة يقتضي أن نقـول: إن لـدى بعـض النباتات مقاومة أكبر للتلوث بالرصاص. فعلى سبيل المثال، ثمـار الطمـاطم والجزر تكون دائمـاً أقل في مـحتـواها من الرصـاص، مـوازنة بـأنواع الخـضـر الـورقـيـة كـالخس والجرجير والسبانخ والملوخية والكـرنب، حـتـى لو زرع الجميع في تربة واحدة ملوثة.

وعـلـى نـفـس المنوال، يـقـل المحتـوى الرصـاصي في ثمـار الفـاكـهـة الملسـاء الـسطح كـالجـوافة والكمثرى، موازنة بثـمـار الفـاكـهـة التي تحـتـوي سطوحـهـا علـى شعـيـرات كـالمشمش والـفراولة والخـوخ وأمثالها.

وتحت كـل الظـروف، فـإن نسـبـة الرصـاص في ثمـار الفاكهة والخضـر، تزيد كثيراً، عند عـرضـهـا للبـيـع على الأرصفـة، وفي شوارع المدن، والمناطق الصنـاعـيـة. وهذا منطقي، فـجوّ الشـوارع مليء برصـاص عـوادم السيـارات، وأدخنة المصانع. وثمـة مصدر آخـر للرصاص الـذي يتـسـرب إلى طعامنا، هو علب الصفيح التي تعبأ فيـها الأغذية المصنعة والمحـفـوظة، مـثـل صلصـة الطمـاطم وعـصـائر الفاكـهـة والخضـر وغيـرها. فقـد عرف الخبـراء، أن علبـة الصـفـيح نفـسهـا (خاصـة غير المطلية جـيـداً من الداخل) تـعطي الطعـام المعلب، مـزيـداً من الرصـاص. وكـذلك تفـعـل سبيكة اللحام الجانبي للعلبة، إذ هي في حقيقتها سبيكة من القـصدير والرصـاص. ويزداد هذا التـأثير الـضـار، كلمـا



هذا التلوث ليس مقصوراً على السطح وإنما ينفذ إلى الأعماق



طالت مدة التخزين، وكان الغذاء حامضياً .

والأغذية النباتية ـ بوجه عام ـ تكون أكثر قابلية للتلوث بالرصاص، موازنة بالأغذية الحيوانية. فعلى حين يبلغ متوسط تركيز الرصاص، في الأغذية النباتية نحو ٣٠٠ ـ ٤٠٠ جزء في البليون، لايتجاوز ١٠٠ ـ ٣٠٠ جزء في البليون، في الأغذية الحيوانية. وتُعَدُّ ألبان الحيوانات، أقل الأغذية تعرضًا للتلوث بالرصاص . وعلة ذلك، أن لحم الحيوان نفسه يعتبر بمثابة مرشح يحتجز الرصاص في ثناياه، ويقلل كثيراً من وصوله إلى مصنع الحليب، في الضرع.

ورصاص في الماء

ينبغي علينا أن نتذكر، أن دقائق الرصاص الملوِّثة للهواء، تترسب بفعل هطول الأمطار، فيسقط بعضها على اليابسة، وبعضها الآخر في الأنهار والبحار. ذلكم هو أول مصادر رصاص الماء. وهذا بالطبع، غير مايتسرب إلى مياه الأنهار من رصاص ضمن ماتلقيه المصانع فيها، من نفايات ومخلفات. ولاريب أن المحصلة، ستكون وبالاً على سائر أنواع الأسماك والمحاريات، التي تعيش في هذه المياه، مما يجعلها مصدر خطر كبير على حياة الإنسان إذا أكلها. ولأجل ذلك، فقد أصدرت هيئة الصحة العالمية، توصيات تُحَرِّم فيها أكل الأسماك، التي يزيد محتواها من الرصاص عن ٥٠٠ جزء في البليون.

وقام العلماء، على إثر ذلك، بقياس مستوى الرصاص في أسماك العديد من بحار العالم وأنهاره، وهالهم مارأوه. فقد أكدت تحليلاتهم لأسماك بعض أنهار أوروبا، القريبة من المناطق الصناعية، ارتفاع مستوى الرصاص فيها إلى ٢٠٠ جزء في البليون. وفي أندونيسيا، وجد الباحثون أن أسماك ومحاريات خليج جاكرتا، تحتوي على كمية من الرصاص تزيد بمقدار ٤٤٪ عن الحد المقبول. وعرفوا من دراسة أسماك اثني عشر نهراً في ماليزيا، أن مابها من رصاص يفوق الحدّ الأقصى الذي تسمح به التشريعات الغذائية. ومنذ بداية الثمانينيات، يرصد الباحثون زيادة واضحة في مستوى الرصاص، بحيث أصبح يمثل مشكلة لأول مرة، في أسماك نهري "باراييا"، و "غواندو" في البرازيل، وفي أسماك نهر "هان" في كوريا، وكذلك أسماك نهر "سقاريا" في تركيا. وفي دراسات حديثة أجريت على أسماك نهرالنيل، عند المنطقة الصناعية، الواقعة في حدود مدينة القاهرة، رصد الباحثون زيادة واضحة في مستويات الرصاص، بلغت ٢ـ٢٣ ضعف الحد المسموح به عالمياً .

الرصاص يخترق الأجسام

على خلاف كثير من ملوثات البيئة، فإن الرصاص يؤثر فى صحة الناس من مداخل متعددة، مثل الاستنشاق والابتلاع. فالرصاص يمكنه أن

يدخل الأجسام من طريق الجهاز التنفسي، إذا استنشق الناس أبخرته أو مركباته، أو أدخنته، أو أتربته الدقيقة، أو رذاذه المتطاير في الهواء. وتشير الأبحاث العلمية، إلى أن الجسم البشري يمكنه أن يلتقط من طريق الرئتين نحو ٢٠ـ٦٠٪، من كمية دقائق الرصاص المنتشرة في الهواء. وفي الرئتين، يقوم الدم بامتصاص مافي حويصلاتها الهوائية من رصاص، ثم يدفعه في دورته السائرة بأنحاء الجسم. وعند أهل الاختصاص: إن وجود ٣ ميكروجرامات من الرصاص، في المتر المكعب من الهواء، تكفي لزيادة مستوى الرصاص في لتر دم، بمقدار ميكرو جرام. ولعل من المفيد أن نعرض نتائج بعض الدراسات التي أجريت في مناطق عديدة من العالم، مثل بوسطن، وسيدني، وطهران، والقاهرة، للتعرف على تركيز الرصاص في دماء رجال المرور، لأنهم أكثر الفئات تعرضاً لتأثير عوادم السيارات. وتبين بوضوح، ارتفاع تركيز الرصاص في دمائهم، بدرجة تفوق كل الفئات الأخرى، حتى هؤلاء الذين يعملون في بعض صناعات الرصاص مثل المسابك والمطابع والبويات. ذلكم هو حديث الاستنشاق، فماذا عن الابتلاع ؟

يقول الخبراء : إن الشخص البالغ يهضم يومياً، في طعامه، نحو ٣و٠ ميلليجرام رصاص، وعندهم: إن الجسم عادة مايمتص منها نحو ١و٠ ميلليجرام من طريق الأمعاء. وهذه تسير في الوريد البابي ، إلى الكبد، حيث تلتهمها خلايا "كوبفر" المبطنة لشرايين الكبد، لأنها خلايا الدفاع والوقاية، التي تحتجز الجزء الأكبر منها، وقاية للجسم وحماية له من شرورها. وهكذا لايتسرب إلى الدم إلا قليل جداً من الرصاص، وعادة مايتم إخراج بعضه من طريق الكليتين، وتفرز كميات أقل منه من طريق العرق والبراز. هذا في الأحوال العادية.. ولكن ماذا يحدث حينما يزيد مقدار ماتمتصه الأمعاء يومياً عن ٦و٠ ميلليجرام ؟ هنا يفقد الجسم قدرته على إخراجه، وشيئاً فشيئاً يتراكم في الدم، وتبدأ أعراض التسمم تظهر بوضوح على الجسم.

ويالها من أضرار وأخطار

لعل أخطر مايذكر عن الرصاص، هو أنه متى تسلل إلى داخل الجسم، بقي فيه، إن الجسم لايلفظ من الرصاص القادم إليه، سوى ١٠٪ فقط، أما النسبة الغالبة(٩٠٪) فتستقر في العظام غالباً. وهناك يجري تخزينه على هيئة فوسفات الرصاص، بعد أن يحل محل كالسيوم العظام. غير أن رصاص العظام لايمكث هكذا على الدوام، إذ ينطلق بين حين وآخر، من مخازنه إلى تيار الدم، ومنه إلى خلايا الجسم، حيث يتسبب في إبطاء عمل أنزيمات



الإمدادات المعدنية وسيلة لتلوث البيئة بالرصاص

الميتاكوندريات، باعتباره عاملاً مختزلاً قوياً، ولهذا تتوقف كثير من التفاعلات الحيوية اللازمة لاستمرار حياة الخلية على أوفق حال. وحتى خلايا الدم نفسها، لاتسلم من تخريب الرصاص، حيث يتداخل في بناء مادة الهيموجلوبين، مما يسبب أنيميا واضحة على الأجسام. وفوق ذلك، يوجه الرصاص ضرره إلى الكليتين، والقلب، ويصيب الجهاز العصبي المركزي بإصابات شديدة، تضر بالحبل الشوكي، وتؤثر في سير العمليات الحيوية التي تحدث في خلايا المخ، وبديهي أن يكون الأطفال، هم أكثر الفئات تعرضاً لأضرار الرصاص الدائمة ، حيث يمرون بأكثر مراحل العمر قابلية للنمو، مما يزيد قدرة أجسامهم على امتصاصه، ولعل أول مايظهر من أعراض التسمم بالرصاص عند الأطفال مايعرف بداء مغص الرصاص (Lead Cloic) . وهو مغص مصحوب بإمساك شديد. ويحدث في أعقاب ذلك مباشرة، فَقْدٌ بَيِّنٌ في درجة تركيز الطفل العقلية، ويصبح عصبياً متوتراً. ومع الوقت، تتدنى قدرته العقلية، وتقل بوضوح درجات ذكائه. وقد



السيارات مصدر رئيس لتلوث البيئة بالرصاص في المدن الكبرى

يبدو ذلك لأول وهلة، أمراً على قدر من الغرابة. ولكنّ دراسات العلماء مازالت تؤكد على الترابط الوثيق بين نتائج الأطفال في امتحانات الذكاء، وبين نسبة الرصاص في دمائهم.

ففي دراسات أجريت في بانكوك، تبين أن الأطفال يفقدون في المتوسط ٤ نقاط أو أكثر في مُعَامِل الذكاء، عند بلوغهم سن السابعة، بسبب مايتعرضون له في حياتهم من رصاص. وفي مكسيكو سيتي، وجد أن ٢٩٪ من مجموع الأطفال، تحتوي دماؤهم على مستويات غير مقبولة من الرصاص، مما يؤثر بشدة في قدرتهم الذهنية ومقدرتهم على التحصيل. وللرصاص ــ إلى جانب ماسبق ـ تأثيرات مهلكة على الأجنة، في ظلمات الأرحام، إذ يخترق جدار المشيمة،

ويُحدث فيها تشوهات دائمة، كما يتسبب في إجهاض الحوامل من النساء. ومن أكثر الأمور شيوعاً في البالغين من تسمم أجسامهم بالرصاص، مايتعرضون له من ارتفاع في ضغط دمائهم. والرجال كثيراً مايعانون من هذا الداء، إذا احتوت دماؤهم على ٣٠ ميكروجراماً من الرصاص. وإنك تقرأ أن عشرين في المائة، من حالات ضغط الدم المرتفع، التي تنتشر في مكسيكو سيتي، ترجع إلى السبب نفسه. حتى حينما لايتجاوز محتوى الدم من الرصاص ١٥ ميكروجراماً، لايسلم الإنسان من أضراره، ويصبح عرضة لفقدان بعض قدراته العقلية. والحقَّ أن دراسة التغيرات التي تحدث في المخ، بسبب تأثير الرصاص في خلاياه، ظلت ـ حتى وقت قريب ـ مشكلة معقدة إلى حد كبير، ولكن العلماء اهتدوا ـ في آخر الأمر ـ إلى جملة حقائق مهمة، نذكر منها مايسببه الرصاص من تدمير في خلايا القشرة المخية، التي تُعَدُّ أعلى درجات الجهاز العصبي شأناً لاحتوائها على مراكز التفكير والتعبير، ومراكز السيطرة على تصرفات الإنسان، ومدى استيعابه لما يحيط به من مؤثرات. وطبيعي أن أي تدمير في هذه الخلايا، أو أي فقد في قدرتها على الاتصال بالمراكز العصبية الأخرى بالمخ، يضعف ذاكرة المصاب، ويفقده قدرته على التركيز. وهذا بالطبع غير مايشعر به من إحباط ذهني، وبلادة، وتَقلُّب في المزاج، وتشتت في التفكير. وربما صاحب هذه الأعراض، آلام وصداع في الرأس، وحدوث تيبس في العضلات. وأعراض أخرى كثيرة يعرفها الأطباء والباحثون، ويهتمون بوَصْفها وصفاً دقيقاً. ويهتمون بدراسة السبيل للوقاية من أخطارها، ولمنع حدوثها في الأساس.



البيئة الملوثة بالرصاص تُعَجِّل بموت الأشجار

أفكار ضد الرصاص

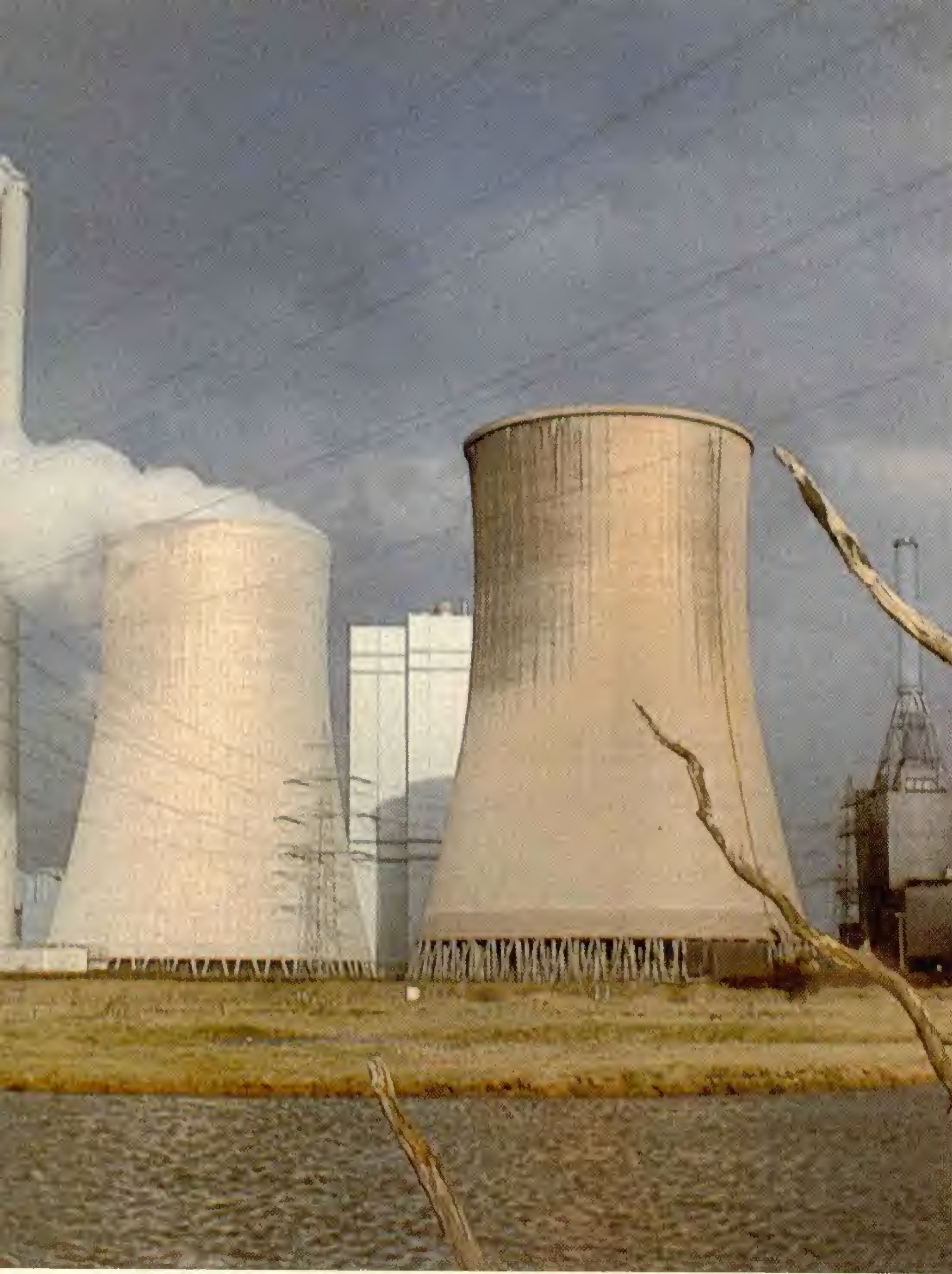
منذ سنوات، بدأت صيحات المدافعين عن البيئة، تنذر الناس بما يتعرضون له، صباح مساء، من رصاص، يخرج إليهم مع



أنفاس السيارات، وفيما يشربونه من ماء، وما يأكلونه من غذاء، ومايغطي حوائط بيوتهم من طلاء. وقامت الصحف، في بلاد العالم المتقدم، والباحثون والأطباء، ومن ورائهم الناس يَصرخون ويَدْعُون أُولي الأمر للوقوف بحزم في وجه القاتل الخفي. وكان من نتيجة ذلك، أن استمع أولو الأمر إلى الشكوى، وأمروا بإعادة تقويم كل المنتجات التي تحوي رصاصاً. ولما كان البيئيون قد أعلنوا أن ثمانين في المائة من رصاص الهواء، يخرج أساساً من عوادم السيارات، التي تحرق الجازولين المرصص، فقد صارت دعوتهم لشركات تكرير النفط، لمحاولة إنتاج نوع آخر من الجازولين، جيد الاحتراق، لارصاص فيه، وبالفعل، فقد تمكنت هذه الشركات من إضافة مواد أخرى إلى الجازولين، بدلاً من رابع إيثيل الرصاص ورفيقه، مثل بعض الكحولات كالجازوهول أو بعض الهيدروكربونات متفرعة السلسلة. وهي مواد تساعد على زيادة الرقم الأوكتيني للجازولين، وترفع من كفاءة المحركات، وتتلافى – في الوقت نفسه – أضرار الرصاص.

وتأتي الولايات المتحدة، وألمانيا وفرنسا والسويد واليابان في مقدمة دول العالم التي اعتمدت التقنيات الجديدة، وأصدرت قوانين صارمة تتعلق بتحديد نسبة الرصاص في الوقود، أو تحريم إضافته إلى الجازولين تماماً، أو استخدام محولات خاصة تمنع انطلاق الرصاص مع غازات العادم. على أن الأمر لم يقتصر على الجازولين المرصص وحده، بل لفت البيئيون نظر أولي الأمر، إلى خطورة مواسير الرصاص المستخدمة في شبكات مياه الشرب، وإلى دورها في رفع نسبة هذا المعدن في المياه بدرجة غير مقبولة صحياً. ومرة أخرى، وجدنا الحكومة الأمريكية ترصد ميزانيات ضخمة، لتجديد شبكة المياه، واستبدال أنابيب الرصاص بأنابيب أخرى من النحاس الأحمر أو البلاستيك. وإلى جانب كل ذلك، وجدنا حكومات هذه الدول تصدر تشريعات جديدة، تضع قيوداً على صناعة الدهانات ومواد الطلاء، تمنع فيها إضافة الرصاص إليها. وثمة قوانين أخرى، صدرت بشأن العديد من الصناعات التي يتسبب منها تلوث الماء بالرصاص، بحيث تضمن التحكم في نفاياتها بصورة أكثر أماناً وسلامة .

ولكن، ماذا كانت النتيجة؟ هاهي أحدث الدراسات البيئية تشير إلى أن الجهود قد أثمرت، فنقرأ عما حدث من انخفاض ملحوظ في تركيز الرصاص، في دماء سكان الولايات المتحدة واليابان، بحيث لم يعد يتجاوز حالياً ثلث ماكان عليه، في منتصف السبعينيات. نعم .. حدث هذا بالفعل في تلك البلاد، ولكن ماذا حدث في بلادنا؟



الأدخنة المتصاعدة من المصانع تحمل الرصاص الذي يلوث البر والبحر

في دائرة الخطر

لم يَعُدْ يخفى على الكثيرين، حالة هذا الداء الذي يُقيم في أنحاء مختلفة من الأرض، لأن الظروف التي ينشأ منها مازالت مقيمة، ولم يعد يخفى علينا تحذير أهل الاختصاص في بلادنا، بعد ماكشفته بحوثهم، من رصاص في دماء الناس. ولم يعد يخفى علينا ـ كذلك ـ جهد الآخرين، لمحاولة خفض مستويات هذا المعدن في بيئتهم، وفي دماء المصابين منهم، وهو جهد كبير وعظيم، ولكنه عالي التكلفة، إذ تَطلَّب تغيير الكثير من أنماط الاستخدامات الخدمية، وميزانيات كبيرة. ولهذا يَصعُب ـ في المرحلة الحالية ـ مطالبة أُولي الأمر في بلادنا بانتهاج ذلك المسلك ولابد ـ والحال كذلك ـ أن نكتفي بالمطالبة بالتغيير على مراحل متدرجة. مثال ذلك أن يبدأوا في إدخال تعديلات على مكونات وقود السيارات، بحيث تقل فيه نسبة الرصاص، كمرحلة أولى، تمهيداً للاستغناء التام عنه، في نهاية الأمر. وكذلك توجّه الدعوة إلى المسؤولين عن الزراعة في بلادنا، للحدّ من زراعة الخضر والفاكهة، في المناطق الزراعية القريبة من طرق المواصلات، والملاصقة للمناطق الصناعية، وربما نوصيهم بالاكتفاء بزراعة هذه المناطق بأنواع محاصيل غير غذائية، مثل محاصيل الألياف ونحوها. وفي الوقت ذاته. فإننا نهيب بجموع المستهلكين، أن يعتنوا بغسل مايأكلونه من خضروات وفاكهة. وكذلك السّلق والتقشير لهما فعل الغسيل الجيد في هذا الشأن.

وعن أنواع المعلبات الغذائية التي يُقبل عليها الكثيرون، نقول بأنه لاينبغي ـ بأي حال ـ ترك الطعام في علب الصفيح، بعد فتحها، سواء في جو الغرفة العادي، أو في الثلاجة. وعلة ذلك، أن الباحثين وجدوا أن عبوة الصفيح المفتوحة، تزيد مايتسرب إلى محتوياتها الغذائية من رصاص، بمقدار خمسة أضعاف. ولهذا يلزم



استهلاك الطعام عقب فتح العلبة، أو نقله إلى أوعية أخرى أكثر أماناً مثل الأوعية الزجاجية أو الصيني ونحوها. وللسبب نفسه يلزم كذلك تجنب استعمال علب الصفيح الفارغة، في تعبئة وحفظ أي نوع من الطعام. وعلى ذكر أوعية الطعام، فإننا نوصي بالحد من استعمال الأواني السيراميك، وندعو للعودة إلى أواني الصيني، فهي أكثر منها أماناً. وعند طلاء حوائط مبانينا، ينبغي التأكد من نوع الطلاء المستعمل، ولانختر غير مايخلو من الرصاص. وإذا عرفنا أن جميع شبكات مياه الشرب، في بلادنا، مصنوعة من رصاص، وجبت التوصية بالبدء في استبدالها بأنابيب البلاستيك، خاصة في المدن الجديدة، وعند تغيير شبكات المياه الحالية. وإلى أن يتحقق ذلك، فإننا نوصي الناس بتجنب استعمال كميات المياه الأولى، التي تتدفق، بمجرد فتح صنابير المياه، إذ ثبت أنها غنية بمحتوياتها من الرصاص. إنها توصيات مهمة ومفيدة، لاتستلزم منا غير قليل من الوعي والفهم ، وربما الثقافة أيضاً.

إنقاذ الحياة

ونعود فنقول: إن مشكلة الرصاص، الذي يلوث بيئتنا، ويغتال ــ في السر ــ الحياة، هي اليوم إحدى مشكلات عالمنا، الذي بات يئن من أضرار التلوث وأخطاره. أجل، التلوث الذي غدا يهدد الكرة الأرضية كلها، وحياة الناس وصحتهم ، حتى أصبحت الإنسانية ــ في مجموعها ــ هي الضحية. والحق، أن وقفة الإنسان اليوم ضد التلوث، والدعوة المخلصة لإصلاح البيئة ونقائها، لم تعد مسألة عاطفية رومانتيكية، ولانزعة فنية وشاعرية، بل إنها ــ بالدرجة الأولى ــ مسألة إنقاذ للحياة وإبقاء عليها !

* المراجع :

١ــ أبو التين،خ. (١٩٨٦م) : الرصاص يلوث البيئة ــ مجلة البيئة ــ يناير ــ الكويت.

٢ــ إسلام، أ. (١٩٩٠م) : التلوث مشكلة العصر ــ عالم المعرفة ــ ١٥٢ــ المجلس الوطني للثقافة ــ الكويت.

٣ــ السيد ، ر. (١٩٧٨م) : الحرب ضد التلوث ــ دار المعارف ــ القاهرة.

٤ــ الفقي ، م . (١٩٨٥م) : القرآن الكريم وتلوث البيئة ــ مكتبة المنار الإسلامية ــ الكويت.

٥ــ بشاره ، ع . (١٩٧٣م) : دراسات في بعض مشاكل تلوث البيئة ــ الهيئة العامة للكتاب ــ القاهرة.

٦ــ تقرير عن التنمية في العالم (١٩٩٢م) : التنمية والبيئة (تقرير البنك الدولي للإنشاء والتعمير) ــ النسخة العربية ــ مؤسسة الأهرام ــ القاهرة .

٧ــ سليم ، س. (١٩٩٤م) : السلامة في تداول الكيماويات ــ الهيئة العامة للكتاب ــ القاهرة.

٨ــ سويلم ، م. (١٩٩١م) : المعدن القاتل ــ العلم ــ ١٧٤ ــ أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا ــ القاهرة .

٩ــ عبدالمجيد ، أ. (١٩٨٦م) : تلوث الغذاء ــ العلم ــ ١٥٣ ــ أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا ــ القاهرة.

١٠ــ عسكر ، أ . ــ حتحوت . م . (١٩٨٨م) : الغذاء بين المرض وتلوث البيئة ــ الدار العربية للنشر ــ القاهرة .

١١ــ عطية ، ف. (١٩٩٢م) : أمراض الفقر ــ عالم المعرفة ــ ١٦١ ــ المجلس الوطني للثقافة ــ الكويت.

١٢ــ علام ، م . (دون تاريخ) : الإعلام البيئي ــ كتاب الناس والطب ــ مطابع الأخبار ــ القاهرة.

١٣ــ عمارة ، م . (١٩٨٦م) : عادم السيارات ظاهرة خطيرة ــ طبيبك الخاص ــ ٢١٢ ــ دار الهلال ــ القاهرة .

١٤ــ فرج ، ن . (١٩٩٣م) : الخطر الصامت ــ العلم ــ ٢٠٧ ــ أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا ــ القاهرة .

١٥ــ فون ، ر. ــ جرامون (١٩٧٧م) : التلوث ــ ترجمة (القباني ، ن.) ــ ثراد كسيم ــ جنيف ــ سويسرا.

١٦ــ محمد ، أ . (١٩٨٦م) : غازات سامة ــ العلم ــ ١٢٤ ــ أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا ــ القاهرة .

١٧ــ نوفل ، م . (١٩٨٩م) : الطريق إلى الغذاء الصحي ــ الدار العربية للنشر ــ القاهرة.

18 - A. Ng and C. Patterson, 1981.chim.Cosmohim. Acta, 45, 2109.

19 - C. Boutron and C. Lorius, 1979. Nature, 277. 551.

20 - C. Boutron, 1980. J. Geophys. Res., 85, 7426.

21 - C. Patterson, 1983. Geochim. Cosmochim. Acta, 47, 1163.

موقف عمر بن الخطاب من الشعر



د. مصطفى رجب

لم يقف الإسلام موقفًا عَدَائيا من الشعر، بل احتفى بالجيد الجاد منه، واعتدّ به كسلاح من أسلحة الدعوة الجديدة، وتبين لنا كتب السيرةأن كثيرا من الصحابة كانوا شعراء، أو ـ على الأقل ـ يروون الشعر ويتذوقونه، ولا غرو فالشعر ديوان العرب.

وسنلقي فيما يلي بعض الضوء على موقف عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ من الشعر، وقد اخترنا عمر ـ الذي لُقِّب بالفاروق لما عُرِف به من التفريق بين الحق والباطل ـ لأن صورته في أذهان الكثيرين صورة الرجل القوي العنيف، وسننظر في تراثه لنرى كيف كانت علاقته بالشعر والشعراء؟ ومن هذه العلاقة نستنتج الصورة التي كان عليها الشعر في صدر الإسلام.

ربما كان موقف عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ من الحطيئة من أكثر مواقفه شيوعا في كتب التراث، والصورة التي تقدمها بعض الكتب لهذا الموقف تُظهر لنا الفاروق فيها جافيا، عنيفا، قاسيا حين يأمر بحبس الشاعر، ويتشدق بعض المتحذلقين العصريين فيرون فيها «مصادرةً للفكر»، غير أننا لا نرى ذلك. وإنما نرى أن عمر رحمه الله كان حفيا بالشعراء، يستقبلهم، ويستنشدهم ويعطيهم المِنَح حتى لا يتعرضوا لأعراض المسلمين، وهو في هذا يستهدي التوجيه النبوي الكريم في قول الرسول (ص): «إعطاء الشعراء مِنْ برِّ الوالدين».

والحطيئة هو جرول بن أوس، كان وضيعا، مغموز النسب، رقيق الدين، مُقْذعا في هجائه، هجا كل الناس حتى أُمّه، فقال:

تَنَحَّيْ واجلسِي منّي بعيدا
أراح الله منك العالمينا
أغِرْبالاً إذا استُودعْت سرّاً
وكانونًا على المتحدثينا؟!
لَحاكِ الله شرا من عجوز
ولَقّاكِ العقوقَ من البنينا!!
حياتُكِ ـ ما علمتُ ـ حياةُ سوء
وموتُكِ قد يسرّ الصالحينا

وقال فيها أيضا:

ولقد رأيتكِ في النساء فَسَوَّءْتني
وأبَا بَنيكِ فساءني في المجلس

ويروي الرواة أن الحطيئة سار يوما ضيْقا بنفسه، وبالناس، فوجد بئرا، صافي الماء ساكنا، فنظر فيه فرأى صورته ـ وكان دميما قبيحا ـ فقال:

أبتْ شفتايَ اليوم إلاّ تكلّمًا
بسوءٍ فلا أدري لِمَن أنا قائله؟
أرى ليَ وجهًا قبّح اللهُ خَلْقَه
فَقُبِّحَ من وجه، وقُبِّح حامله

إنَّ رجلاً على هذا القدر من سلاطة اللسان، وجفاء الطبع خليق به أن يُلقى في قاع السجن، توقيًا لشره، ودرءا لمفاسده، واتقاءً للسانه السليط الذي تَعَوَّد القذف والسبَّ. وهذا ما فعله عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين اشتكى له «الزبرقان بن بدر» الحطيئة، الذي هجاه بقوله:

دَعِ المَكَارِمَ لا ترحلْ لبُغْيتهَا
واقعُد فإنَّكَ أنتَ الطّاعِمُ الكَاسِي

واسم الفاعل هنا بمعنى اسم المفعول، أي اقعد فأنت المُطْعَم (بفتح العين) المكسوّ، وقد يبدو هذا البيت مختلفا بعض الاختلاف عن أنماط الهجاء القديم التي كانت تتعرض للأعراض، والبنية الجسمية، ولكن الحطيئة هنا يميل إلى الغمز النفسي الشديد الوقع، مما اضطر عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى سؤال حسان بن ثابت ـ قبل الحكم للزبرقان على الحطيئة ـ الذي أفتى بأن في البيت هجاء مقذعًا، وبعدها أودعه عمرالسجن. فلما شقّ عليه أرسل إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أبياتا رقيقة يستعطفه فيها، ويذكر حاله وحال أولاده منها:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرَخٍ
زُغْبِ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ
ألقيتَ كاسبهم في قعر مُظْلمَة
فاغفر عليك سلامُ الله يا عمر
أنت الأمينُ الذي من بعد صاحبه
ألقى إليك مقاليدَ النُّهى البشر

شراء أعراض المسلمين

ويروي الرواة أن الخليفة الفاروق رقّ لهذه الأبيات، فأطلقه من سجنه، ويروون أنه أعطاه مالاً فاشترى منه أعراض المسلمين، وقطع لسانه عن هجو الناس، ولكن الحطيئة بحكم تكوينه النفسي ، لم يكتف بعطائه، فكتب إلى عمر يشكو له سوء أحواله المادية:

يا أيها الملك الذي أمستْ له
بُصرى وغزةُ سهلُها والأجرُعُ
أشكو إليكَ واشتكي ذُرِّيةً
لا يشبعون، وأمهم لا تشبع
كثروا عليّ، فما يموتُ كبيرهم
حتى الحساب، ولا الصغير المُرْضَعُ

ثم يذكر بعد ذلك حرمانه من الميراث، وصنعة الشعر التي لا تُجْدي، ومنع الخليفة له من هجاء الناس وكان مصدر رزق له. فيقول:

ومنعتني شَتْمَ البخيلِ فلمَ يَخفْ
شتمي، وأصبح آمنًا لا يفزع
وأخذتَ أطرار الكلام فلم تدع
شتما يضر ولا مديحا ينفع
وبعثت للدنيا تُجَمِّع مالها
وتَصُرُّ جزيَتَها ودأبا تجمع

هذه القصة الشائعة، وما شاع عن عمر ـ رضي الله عنه ـ من الغلظة قد يكون دافعًا للإحساس بأن بين عمر والشعر عداوة، ولكن الحقيقة أن هناك شواهد كثيرة تدلنا على أن عمر كان ذواقة للشعر، حافظا له، مقدرا للجيد منه، بل إن كثيرا من المصادر تنقل إلينا أنّ عمر رضي الله عنه لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه شعرا، ومما هو ثابت قوله: «أفضل صناعة الرجل الأبيات من الشعر يقدمها في حاجته يستعطف بها قلب الكريم، ويستميل بها قلب اللئيم». وكان يقول لابنه عبد الرحمن «يابني انسب نفسك تصل رحمك، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك، فإنّ من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه، ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤدِّ حقا ولم يقترف أدبا».

ذهب ما أعطيتم وبقي ما أعطى

ومما رُوي ما يدل على اهتمام عمر ـ رضي الله عنه ـ بالشعر أنه أنفذ إلى أبي موسى الأشعري كتابا، جاء فيه:

«مُرْ مَنْ قِبلَكَ بتعلم الشعر فإنّه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب». كما يُروَى في هذا المجال ـ أيضا ـ أنه كتب إلى المغيرة بن شعبة، وكان واليا على الكوفة مِنْ قِبَله، أن يستنشد مَن عنده من الشعراء ما قالوه من شعر في عهد الإسلام».

ومن هذا القبيل أيضا أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال لبعض ولد هَرِم بن سنان المرّي: أنشدني بعض ما قال زهير فيكم، فأنشده، فقال عمر: لقد كان يقول فيكم فيُحْسِن، فقال ابن هرم: يا أمير المؤمنين إنّا كنا نعطيه فنجزل (أي نعطيه فنكثر عطاءه)، فقال عمر: «ذهب ما أعطيتموه، وبقي ما أعطاكم» أي إن عطايا هرم لزهير فَنيت لأنها زائلة، وبقي عطاء زهير متمثلا في مدائحه التي خلدت ذكره.

استعطاف قلب الكريم

وكان ـ عمر رضي الله عنه ـ يتأثر بالشعر، وينفعل به، ويستجيب لتأثره وانفعاله، وهذه خصال العربي الكريم، فمن ذلك ما روي أن هوذة بن الحارث السلمي، وكان يعرف بابن الحمامة، حضر العطاء في أيام عمر، فنودي على رجال من قومه قبل أن ينادى عليه، فثار، وأعلن غضبه. وقال:

لقد دار هذا الأمر في غير أهله
فانظر أمينَ الله كيف يذود
أيُدْعَى خُثَيْمُ والشَّريدُ أمامنَا
ويُدعى رباحٌ قبلنا وطَرُودُ
فإن كان هذا في الكتاب فهم إذنْ
مُلوكُ بني حُرٍّ ونحنُ عَبيدُ

فتأثر عمر ودعاه فأعطاه.

ومن ذلك أيضا أن عمر كان يستجيب إذا تقدم طالب الحاجة ببيت أو بأبيات من الشعر كما مر بنا قوله: «أفضل صناعة الرجل الأبيات من الشعر يقدمها في حاجته

يستعطف بها قلب الكريم، ويستميل بها قلب اللئيم».

فقد روي في الإصابة أن رجلا على عهد عمر، يدعى أمية بن الأسكر كان عجوزا مسنا يعيش مع زوجته، وله ولد واحد يُدعى كلابا، وفي أثناء الفتوح، لقي طلحة والزبير كلابا هذا فأغرياه بالجهاد وحفزاه إلى الحرب، فسافر إلى العراق مجاهداً فأصاب أباه الألمُ والحزن فقال:

لِمَنْ شيخانِ قد نَشَدَا كلابا
كتابَ الله لو ذَكَرَ الكتابا
أناشدُه فيعرض في إباء
فلا وأبي كلابٍ ما أصابا
إذا هتفتْ حمامةُ ببطن وَجٍّ
إلى بيْضاتِها ذَكَرَا كلابا
أتاه مُهاجرانِ تكنّفاه
بترك كَبِيرِه خَطِئًا وخَابا
تركْتَ أباكَ مُرْعِشةً يداه
وأمك ما تُسيغ لها شرابا
تُمَسِّح مُهْرَه شَفَقًا عليه
وتَجنُبُه أبًا عَرَكَ الصِّعَابا
فإنّك قد تركتَ أباك شيخًا
يُطارِق أيْنقا شُرُبًا طِرَابا
فإنك والتماسَ الأجرِ بعدي
كباغِي الماءِ يَتْبعُ السَّرَابا

فهذا الأب الشيخ الفاني يعاتب ابنه عتابا قاسيا، ويتهمه بالعقوق، لقد سأله وأمه أن يعدل عن السفر للجهاد، وذكّراه بكتاب الله وما فيه من حثٍّ على طاعة الوالدين، ولكنه أعرض عنهما، واستمع إلى المهَاجِرَيْن (طلحة والزبير). والأبوان يذكران ابنهما في كل وقت، كما تذكر الحمامة فرخها إذا تركته، فهذا الأب الذي عركته الأيام فتركته مرتعش اليدين من أثر السِّنِّ، وهذه الأم الوالهة التي تحنّ إلى ذكرى ابنها فتمسح بيدها على فرسه الذي تركه.

لقد تأثر عمر بن الخطاب رضي الله عنه غاية التأثر بهذه الأبيات الصادقة وأرسل في طلب كلاب ورده إلى أبويه. وفضلا عن تأثر عمر بالشعر، فقد كان يأمر الناس أن تتخذ من الشعر موعظة وحكمة، وتبتغي فيه سبيلا إلى المجد، وتلتمس منه مثلا عليا، من ذلك ما روى أن فرات بن زيد الليثي دخل على عمر بن الخطاب وكان فرات هذا معروفا بالغنى والبخل فقال عمر: يا فرات أتدري من الذي يقول:

سأبذل مالي للعفاة فإنني
رأيت الغنى والفقرَ سيّانِ في القبر
يموت أخو الفقر القليلُ متَاعُهُ
ولا تَتْرُكُ الأيامُ مَنْ كَان ذَا وَفْر
وليس الذي جَمعَّتُ عندي بنافع
إذا حلّ بي يوما جليلٌ من الأمر

فقال فرات: لا أدري يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: هذا شعر أخيك أسامة بن زيد.

فقال فرات: ما علمته. (أي لم أعلم أنه قال)

قال عمر: بل هو أنشدنيه، وعنه أخذته، وإن لك فيه لعبرة.

ولعل فراتا كان ينكر معرفته بهذه الأبيات خوفًا من قصد عمر، وبالفعل يَتْلوها عمر ثم يطلب منه أن يعمل بها وألا يكتنز المال فتسوء سيرته ولا ينفعه ماله.

وكان النعمان بن عديّ واليا لعمر على ميسان، فبلغ عمر أنه قال شعرا، منه:

فمن مبلغُ الحسناءِ أنّ حليلَها
بمِيْسانَ يُسْقَى في زجاج وحنتم
إذا شئت غَنَّتْني دهاقينُ قرية
وصاحبةٌ تحدو على كلم ميسم
إذا كنتَ نَدْمَاني فبالأكبر اسْقني
ولا تسقني بالأصغر المتثلمِ
لعلّ أمير المؤمنين يسوءه
تَنَادُمُنا في الجوسق المتهدم

ولم يكن عمر ليقرّ هذا اللهو، وهذه الجرأة الممقوتة في المجاهرة به، فما إن بلغه هذا الشعر عن النعمان حتى عزله، وكتب إليه:

«قد بلغني شعرك وقد ـ والله ـ ساءني». فلما قدم النعمان إلى المدينة حاول الاعتذار لعمر وقال: «والله ما كنت في شيء من ذلك، وإنما هو فضل شعر قلته» فقال عمر ليهدئ من روعه: إني لأظنك صادقا، ولكن والله لا تعمل لي عملا.

وقد نفى عمر نصر بن حجاج، وكان فتى جميلا وسيما، لأنه سمع ـ وهو يتعسس ذات ليلة ـ امرأة تُنشد:

هل من سبيلٍ إلى خمرٍ فأشربها
أو من سبيل إلى نصر بن حجاج؟

وهناك مواقف أخرى عديدة لعمر رضي الله عنه نستنتج منها أنه كان أديبا ذواقة لين الجانب فيما يتصل بالشعر عكس ما هو شائع عنه من شدّة وصرامة، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه في بدء المقال من أن الإسلام لم يتجهم للشعر ولم يستنكره، وإنما تَدَخَّلَ فقط للذود عن الأعراض، فَسَمَتْ بذلك أغراض الشعر، وعفّت ألسنة الشعراء. ولكنّ ذلك لم يستمر طويلا، لانتشار اللهو زمن العباسيين، ودخول العناصر الأجنبية، فعاد الشعر العربي مرة أخرى يناوش الأعراض.

الشيخوخة
ليست مسألة تتعلق بالبيولوجيا

اتضح من دراسة بسيطة شملت ٦٠ مُسنًا من كلا الجنسين ومن مجتمعات أقطار عربية متنوعة، أن الشيخوخة مفهوم اجتماعي وليست قضية بيولوجية. فالإنسان العربي المُسنّ فاقد الأمل بأن يكون له غد أو حياة، أو دور، أو موقع، كما أنه يصنف نفسه بالمكان وخارج الزمان، ويصبح جزءًا من الأشياء فتنتفي معه الإرادة لتحقيق أي شيء. وطالما انتفت الإرادة والأمل، فوقته يذهب هدرًا ويعيش في الفراغ وطول الوقت. إنه لا يحاول اكتساب خبرات جديدة أو حتى يتكيف معها، موقعه الرفض لكل ما هو خارج إطار حيازته.

فالشيخوخة في المجتمع العربي، مرحلة يفقد فيها الإنسان الأمل بدور ومستقبل، ويصبح سلبي الإرادة، يشعر بأن الوقت يمر عليه دون فائدة، تتناقص خبراته وتقل يومًا بعد يوم، ويصبح قليل الحركة مضيِّقًا دائرة الحياة. والسبب في هذا الوضع ليس بيولوجيًا وإنما هو نتاج وحصاد لعدم تحضير الفرد نفسه لاستقبال الشيخوخة، فهو لم يع ضرورة بناء أرصدة خلال شبابه لشيخوخته، إذ لم يراع وضعه الصحي، ولم يحسب حساب الحالات الصحية التي من الممكن أن يصل إليها عندما يبلغ سن الشيخوخة، ومن الناحية المادية يصل المسن العربي لتلك المرحلة من العمر دون تخطيط مسبق لكيفية توفير رصيد من المال يكفي لإعالته، فقد أنفق العمر والجهد والشباب والمال في سبيل إعالة الأبناء ونسي نفسه. أما من الناحية العائلية فغالبًا ما تكون علاقة المسن بأسرته سلبية في شبابه وبالتالي تنعكس عليه في مرحلة شيخوخته، فالمسن كان في سن الشباب يمارس سلطة قوية تتسم بالتسلط والقسوة على الآخرين ممن يحيطون به، وبالتالي عندما يصل إلى مرحلة الشيخوخة تنعكس تصرفاته كمعاملات وعلاقات بينه وبينهم. وإذا تطرقنا للعلاقات الاجتماعية مع الآخرين، نجد أن المسن يشعر بأنه معزول، لأنه في شبابه لم يقم ببناء علاقات اجتماعية متينة، لأن العلاقات القليلة التي كان يقوم ببنائها في سن الشباب كانت تبنى على أساس الاستفادة الوقتية، لذا فعندما يصل لسن الشيخوخة يكون خالي الوفاض من أية علاقة اجتماعية تَردُّ لنفسه المتعبة بعض الأمان والاستقرار.

إضافة لكل ما سبق، نجد أن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقيمية التي طرأت على حياة مجتمعنا، أمعنت في تعقيد وتشابك الحياة والعلاقات الإنسانية والاجتماعية فيه، وكثرت بالتالي المتطلبات وارتفعت تكاليف المعيشة، وكثر التنافس على فرص العمل، وطغت الروح الفردية، وتفككت العائلة الكبيرة، وتناثرت إلى أُسر صغيرة تسكن مساكن ضيقة لا تكاد تتسع لأفرادها، وبالتالي أصبح عبء المسن الذي كان يتوزع على عدد كبير من الأفراد في العائلة الكبيرة الحجم، يتوزع على عدد صغير من الأفراد في الأسر الصغيرة، وأصبحت رعاية المسن والاهتمام به تُوَاجَه بالتبرم والشعور بثقل العبء، ولو أن غالبيتهم لا يجرؤ على البوح به علنًا، ولكن المسن يشعر به بشكل ملموس، ويشعر معه بأن الجهود والأموال التي صرفها، والشباب الذي أضاعه عندما كان فتيًا عاملاً منتجًا قويًا في سبيل الأبناء والأقارب قد نُسيت تمامًا، وبالتالي يشعر بأنه معزول فَقَدَ دوره في مجال العمل المنتج والتأثير في الآخرين، ومحيطه تخلى عنه وعزله عن كل مشاركة. ويزداد شعوره بالمرارة عندما لا يُسأل عن شيء ولا يَأخذ أحد برأيه، وأن مَن حوله يشعرون بأنه في أواخر أيامه والرعاية التي تُقدَّم له إنما تقدم كواجب ديني، فقيمنا الدينية تدعو إلى البرِّ بالوالدين والإحسان لكبار السن، كما تُقدم ارضاءً لعادات وتقاليد اجتماعية تُعَرِّض الفرد للنبذ الاجتماعي إنْ أهمل أو رفض رعاية الوالدين المسنين.

وختام القول: إن على الإنسان العربي أن يدرك تمامًا أن الشيخوخة ليست مسألة تتعلق بالبيولوجيا فقط، بل هي حالة وظيفية اجتماعية تحددها رؤية الفرد لنفسه وتخطيطه لأرصدة يعمل على ادخارها منذ سن الشباب.

د. تماضر حسون

العلم العربي
شروطه وتصنيفاته

د. بهاء لطفي قابيل

من المعروف أن كلمة «عِلم عربيّ» لا تعني العلم الإسلاميّ، ولكن العلم الذي كُتِبَ باللغة العربية أساسا (إذ توجد بعض الكتابات بالفارسية)، ومع ذلك فمن المؤكد أن للإسلام دورا مهما جدا في التفتح العلمي في القرون الوسطى العليا؛ إذ لم يكن الفاتحون المسلمون نهمين فقط في تمثل الحضارة القديمة السائدة في البلدان التي فتحوها، ولكنهم وجدوا في محكم التنزيل تحريضا وحثا على الدرس.

فالقرآن يدعو المؤمنين إلى مراقبة الأرض والسماء للعثور فيهما على أدلة للإيمان. وسنة النبي صلى الله عليه وسلم وأحاديثه مملوءة بالأقوال المادحة للعلم. صحيح أن العلم المذكور في الأحاديث النبوية هو قبل كل شيء يحث على معرفة الشريعة، ولكن الشريعة الإسلامية ليست مفصولة عن الدنيا. من ذلك مثلا أحاديث متعددة حول الطب والأدوية. فضلا عن ذلك لم يتوان العلماء عن التذرع بهذه النصوص لتدعيم نشاطاتهم، فقد كتب ابن رشد في «كتاب الحسم» أن الشريعة تحض على التأمل العقلي في الوجود، كما تحض على السعي إلى المعرفة، وهذا هو رأي كل المسلمين الذين قبلوا العلم وسعوا إليه. ويجب أن نذكر فكرة تواتر كلمة البحث والطلب، فقد أعطيت الأرض للإنسان ليدرسها.

حساب الأسباب

نعتقد أن القرآن ليس كتابا علميا خالصا، وإن رأى فيه البعض العلمَ كلّه، ولكنه شَحَذَ في الكثير من مواضعه الفكر العلميَّ المبني على الملاحظة الوضعية، التي طبعت بطابعها فكر العديد من العلماء العرب. فالآية (٦٣) من سورة الحج ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أنزلَ منَ السماء مَاءً فَتُصبِحُ الأرضُ مُخْضَرّةً إنّ الله لَطيفٌ خَبيرٌ﴾، هناك في بادئ الأمر طلب استعمال النظر وهو كثير الورود في القرآن، ولكن ما هو أكثر إفادةً هو استعمال الحرف «ف»، هذا الحرف ليس لإضافة أو عطف، فاللغة العربية تُراكِم ولا تربط. ويفيد النحاة أن الحروف «ف» و«و» و«ثم» تدل على نوع من الترابط فيه علاقة وثيقة يتوجب رصدها بين ملازم الجمل. وينتج من ذلك أنه في الظاهرة التي يتوجب لحظها يبدو «الله» هو السبب الأول والوحيد، فالماء ليس سببا للاخضرار. وفي هذا أساس لفكرة القانون الوضعي الذي لا يحسب أي حساب للأسباب وللجواهر أو للقوى الغيبية (الميتافيزيقية).

والإيمان بإطلاقية قدرة الله، نمّت في الإسلام نظرية سببية آنية موضعية تلائم جدا البحث العلمي، نجدها في كتاب «الباقلاني»، وضمن هذا الاهتمام في تأسيس مشيئة الله رفض هذا العالم الرباني المفاهيم اليونانية حول الجواهر والطبائع، ونادى بعقيدة ذريّة الأجسام والزمن، (أي إن حادثين لا يدومان أو يوجدان بذاتهما في زمنين محددين). والقوانين لا ترتكز على استمرارية الجواهر الأزلية كما هو الحال عند أفلاطون، بل على الإرادة الخالصة والبسيطة التي هي مشيئة الله الذي خلقها ويحفظها، والقوانين هي سنّة من سنن الله. وتذكر هذه الكلمات بما دعا إليه «ديفيد هيوم» و«مالبرنش».

العقلية الإسلامية

فضلا عن ذلك أثّر الإسلام في المنطق بهذا المعنى، فَحُكْمُ التلازم من النمط الأرسطي مرفوض لدى كثير من الفقهاء، فهم يرون أن الحكم هو الخبر المرسل من قبل المتكلم إلى المخاطب في موضوع إنسان أو شيء جرى القرار سابقا بالحديث عنه (مبتدأ). والحكم يُعَبِّرُ إذًا عن أحداث ووقائع، ويعطي القرآن أمثلة على ذلك ﴿والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبالَ أرساها﴾ (النازعات: ٣٠ ـ ٣٢) مبتدأ وخبر مرتين متتاليتين. وبكلمة موجزة: إن الإسلام قد شجع تطور الفكر الوضعي، ولدى مفسّر مثل «فخر الدين الرازي» عديدة هي الآيات التي تؤدي إلى مباحث علمية.

من ذلك أن القرآن يستعمل عدة مرات فعل «سخّر» للدلالة على أن الله أخضع المخلوقات لخدمة الإنسان، وبشأن هذه الآيات يعرض الرازي بتفصيل النظريات الكواكبية في زمنه. وعندما جاء في القرآن أن الله سخر لنا الفُلْكَ الجارية في البحار، استخرج الشارح منها فكرة الصفات المخلوقة التي تتيح للأجسام أن تعوم فوق الماء، فإذا اعترض معترض: ما معنى هذه الآية ﴿وسَخَّرَ لكمُ الفُلْكَ لتَجريَ في البحرِ بأمرِه﴾ في حين أن بناءَ السفن يعود إلى المهارة البشرية؟ نقول «لو أن الله لم يخلق الأشجار من مادة صلبة يمكن بها صنع السفن، ولو أنه لم يخلق الحديد والمعدات الأخرى، والماء بالصفة التي له وهي السيلان، الذي بفضله يمكن للسفينة أن تتقدم حقا، ولو أنه لم يخلق الرياح وحركتها القوية لما أمكن الانتفاع بالسفن».

وهنا فكرة مهمة عن العقلية الإسلامية: معرفة قوانين الكون ليست غاية نظرية بذاتها، إنها كلها موجهة نحو التطبيق المفيد. إن الجوهر (الميتافيزيقي) للقوانين قلّما يهم، فليس ضروريا تقصّي الإرادة الإلهية التي خلقتها؛ بل الضروري ملاحظتها للاستفادة منها. ونجد هذه القيمة للتقنية المطبقة التي بفضلها غلّب العرب ـ حتى في علومهم النظرية الخالصة ـ سيطرة وتفوق النشاط العملياتي على النشاط التأملي الفكري الذي كان المثال الأسمى عند اليونان، وبهذه الروح قرأ الكثير من العلماء في الحقبة الإسلامية كتب اليونان.

وراثية المادة والزمن

إن الإسلام الذي نستند إليه يتوافق مع التأويل الأصولي السني للقرآن، وبهذا المعنى أصاب «ماكدونالد» حين كتب أن وجهة النظر الذرية تشكل خلفية عقلانية من الناحية القرآنية، حول خلق العالم في الفضاء وفي الزمن. وهو عارض بهذا النظام فلسفة الحكماء المسلمين الأرسطيّي الميول، وكذلك الأفلاطونية الحديثة. إن الفكرة الذرية لا ترتكز على تكدّسٍ مبهم بل على «ملك الملوك وسيد الأسياد في الديانات السامية» وقد عجز عن العثور على أثر لأي شيء من هذا النوع في الفكر اليوناني، ثم استنتج أنه لا يعتقد بأن المسلمين هم مخترعو هذه الفكرة، ومع ذلك يبدو أن ذرانية المادة والزمن هي من منطق الوحي القرآني، وأنه لا مجال للبحث عن تأثيرات من ناحية الذرية الهندية كما فعل. ومع ذلك فالعالم الإسلامي حيث نما العلم العربيّ لم يكن تحت سيطرة السنّية وحدها، فقد أتاحت حركة شعوبية قومية للشعوب الفارسية تحت غطاء من الدعاية السياسية لصالح «العلويين»، تطعيم الإسلام بأفكار دينية وفلسفية، كان الشرق الفارسي والإسكندري مشبعين بها. وهكذا ولدت الفكرة الشيعية. إنها توفيقية معقدة من (الكوسمولوجيات) الغنوصية حيث اختلطت العناصر الأفلاطونية الجديدة، وعقائد الديانات ذات الأسرار بالرمزيات الصوفية والمعتقدات التنجيمية والسحرية. ولم يستطع الإسلام الصحيح أن ينتصر على هذا المناخ الكثيف من التصوفية الباطنية، ولم تنج الفلسفة من هذا، بل إنها في أغلب الأحوال أعارت أُطُرها ومبادئها لعلم عجائبي أكثر مما هو وضعي. علم جمع كل المجالات التقليدية الخفية.

اتساع العالم الإسلامي أتاح اتصالات ساعدت على تنمية العلم

تشابك التيارات

كان «ذو النون المصري» يعتبر كيميائيا، و«جابر بن حيان» ـ الذي مات أبوه من أجل نصرة العباسيين ـ درس التصوّف، وكان تلميذ الإمام «جعفر الصادق» وكان يعرف مفكري اليونان وعلماءها وكتبهم، والحقيقة أن العلماء غير العرب أدّوا دورا مهمًا في تطور العلم العربي الإسلامي. وإذن يوجد تياران مختلفان منبثقان عن الإسلام، عملا أحيانا منفصلين أو مجتمعين في روحية العلم العربي وفي مفاهيمه وفي طرقه. ومع ذلك لا

العلم العربيّ شروطه وتصنيفاته

مـجـال للقـول بعلـمين، إذ عـدا عن علمـاء الدين الخـالصـين، فـإن المفكرين العـرب ـ وبسبب فضـولهم العلمي وحساسيتهم تجاه التيـارات التي كانت تـتشـابك ـ قـد تأثروا بالتيـارين، والبعض منـهم جمع بينـهمـا في كتابات تلفيقية، والآخـر حقق تحقيقا أصيلا ومؤلفا مثل «ابن سينا».

الشروط البشرية

عند الكلام عن الـعلم العـربي، أقـصـد به العلم الذي نقل باللغة العربية بصورة أساسية، والذي ارتبط بمشـاكل لغوية طرحـتهـا هذه اللغة. ساهمت فيه ـ من الناحية العرقية ـ كل الشعوب التي دخلت تحت السيطرة العربية ، وكل الذين تأثروا بالإسـلام أثروا فـيه. كـان لبـعض هذه الشـعوب علوم مـتـقـدمـة (الهند وفـــارس). ولـكن الشـيء الأهم هـو تراث اليـونان القـديم والفكـر الهلنسـتي. ذكـر «مـايرهوف» أنـهم في الاسكنـدرية كـانوا يعتمدون على كـتب «جاليان»، وأضـاف أنه في أيام «حنين بن إسحاق» وجدت في بغداد مـدرسـة علمـية أسـست على نمط مـدرسـة الاسكندرية. وأصبـح نمط العـالم الضليع من عـدة علوم والمتـمـثل بـجـاليـان وباراتوسين، أصبح النمط العادي للعالم العربي الفيلسوف والرياضي والفلـكي والطبـيب والكيـمـيـائي وأحـيـانا الجـغـرافي والشـاعـر كـابـن سـينا والبيروني وغيرهما.

الحكمة العلمية

لا شك أنه لا يمكـن إهمـال تـأثير الـهند وفارس، ولكن النظرة القائلة بأن العلم العربي ناتج من خـليط أو من تلقـيح وتخـصـيب المعارف العلمـية عند كل الأمم،لا يثبت أمام الفـحص. إن هيكليـة الفكـر العلمي العـربيّ يونانيـة مـا في ذلك شك، والعنـاصـر التي يمكن ردها لتـأثيرات أخـرى هي مأخـوذات مهـمة نوعا مـا وقد امتـصت تماما. ولا شك أن اتساع الـعالم الإسلامي ووحـدته أتاحت قـيام اتصـالات واختـلاطات لا يمكن إلا أن تساعد على تنمية العلم. ولكن من المبالغ فيه القول عـن تمازج تركيبي بين عدة ثقـافات. فصاعد الأندلسي يعترف في كتابه «طبقات الأمم» بأسبـقـية الهنـد، ويرى فـيـهـا منجم الحكمة ومنبع الحق، وقد عكف علماء الهند على قـواعـد الهندسـة والفلك والأعـداد الرياضيـة، وتجاوزوا كل الشـعوب في الطب والدواء. ويشير «صـاعد» إلى الكتب الهندية التي وصلت العرب. ورغـم هذا المديح يقول صاعد: إن نبوغ هذا الشعب وصفاته العقلية تأتي من تأثيرات كواكبيـة وأنه استفاد منها. وعند الكـلام عن اليونان تخـتلف لهـجـة «صـاعـد» فيـقول: إن لسـانهم أوسع من كل الأمم وأمتن، وإن الرجـال اليونان أكـثر علمـا واهتماما. ولما كان لكل شعب موهبته نذكر رأيا يجدر أن نذكره لأبي حيـان التوحيدي، قـال: «يمتـاز العـرب عن بقـيـة الأمم، لأنهم، بخـلاف الإغريق والفـرس والهنود، لم يكن لهم أحد قـبلهم يتمـرسون مثاله ولا كـتاب يرشـدهم. إنهم سكان بلد فـقيـر صحـراوي قليل العـدد. وكل واحـد منـهم يحـتـاج في عزلته إلى تفكير شخصي ذاتي وعقل ذاتي، وهم يعــرفـون أن وجـودهم يأتي مـن نبـات الأرض. ولذا أعطوا لكل نبتة عـلامة فردّوها إلى صنفها وحـدّدوا الأزمنة والحقب العائدة لهـا. ثم إنهم راقـبـوا الفـصول وفـروقـاتهـا، والسـمـاء والمطر...إلخ». هكذا كـانت كل ثقـافة العـرب البـدو العلمية حكمـة عملية محددة ومرتكزة على ضـرورات الحياة، وقد اكـتُسِبـت هذه الحكمـة بفـضل الـتجـربة والملاحظة، وهذه الثقـافة العلمية ليس فـيـها شيء نـظري مكتـــوب، وســـوف نرى أن العلماء المسلمين الذين كتبوا لم ينقطعوا عن العلم التجريبي السابق.

الوصول إلى العلم وتنظيمه

إذا جـمـعنـا الشـروط الدينية والـبـشـرية فـسوف نفـهم وضع علمـاء المسلمين والدفع الذي أعطوه للعلمـاء من كل الملل والأعراق، وذلك بتجنيدهم من أجل عمل مشترك باللغة العـربية. إن العلم هو واحـدة من المؤسسـات في الحـاضـرة الإسلاميـة. ولا يشـجع عليـه محبو العلم ورعاته فقط، بل إن الخلفاء عملوا على بعثـه ونموه. ويجب ذكـر خالـد الأميـر الفيلسوف، والمنصور مؤسس بغداد، والمأمون الذي أرسل المبعـوثين لترجـمة المخطوطات. وبالفـعل في الـوقت الذي نمت فـيـه جـهـود التـرجمة، قـامت مدرسـة «أحمـد بن حنبل» القـائمــة علـى علوم القــرآن والسـنة. وهذا الموقف جعل «إرنست رينان» يقول بأن العلم في بلاد الإسـلام قد انتشـر رغمـا عنه. وهذا خطأ حـتى لو نظرنا بمنظار المدارس المتشـددة والمتعصبة، فهذه ليست كل الإسلام. ومهما يكن من أمـر فقد انتـصر حب العـلم. والأمر على صعيد البحث وعلـى صعيد التعليم ولّد الحـاجـة إلى جـرد المعـرفـة. وربما كـان هذا البعض قد ظن أن العلم قد اكتمل ولم يبق إلا تمثله، ولكن هذا التجميع للمـعارف المكتسبة شَكَّلَ تمهيدا ممتازا للبـحـث المنهجي والتقدم، فقد فـتحت الحاجة إلى الإحصـاء المجال أمام

تصنيف العلوم. ولا شك أن هذه التصنيفات لم تكن تجديدا، ولكنَّ الأقدمين قسموا العلوم بحسب مناهجها وصفاتها الأساسية وبحسب فهم موضوعاتها. وعند العرب يبدو التصنيف ذا قيمة هامة.

تصنيف الفارابي

يقترح الفارابي في كتابه «إحصاء العلوم» خمسة فروع: (١) اللغة والفقه (٢) المنطق (٣) العلوم الرياضية (٤) الفيزياء (٥) السياسة والحقوق. ونرى أن العلم يشمل كل مناحي المعرفة. وغالبية العلوم المذكورة تتضمن قسما نظريا وآخر عمليا. ولكن هذا التقسيم لا يبدو واضحا إلا في مجال الرياضيات الخالصة التي تتضاعف بالتقنيات التي تخضع لها: الحساب، علم الأعداد، المساحة، وغيرها من المهن التي تستعمل من أجل معرفة أبعاد الأجسام وأحجامها. ولكن الفارابي يدخل في علم الجاذبية موضوعين، ربما كان أحدهما أكثر تجديدا من الآخر دون أن يكون بالضرورة نظريا أكثر. فهناك دراسة الأوزان كمعايير، ثم هناك البحث عن مبدأ الآلات التي ترفع الأثقال وتنقلها. والميكانيك بدوره يعرف بأنه علم معالجة الأجسام الطبيعية المنسجمة مع العلاقات الرياضية القائمة، ومن جهة أخرى بأنه فن استحداث هذه العلاقات بين الأجسام. وهذا بالتالي هو التمييز بين الميكانيك العقلاني والفيزيائي.

اذن فهذا التصنيف يستخدم - رغم بعده عن كل تقسيم تحليلي للعلوم - لربط المعرفة التأملية والمهارة اليدوية في المهن.

تصنيف ابن سينا

يبدو تصنيف ابن سينا في كتابه «أقسام العلوم الطبيعية» أقرب إلى المفاهيم القديمة. فهو يميز العلوم النظرية من التطبيقية، وتهدف الأولى إلى الوصول إلى قناعة أكيدة في المسائل التي لا يتعلق وجودها بالفعل البشري، عكس الثانية. أما كلمة «عملية» فتؤخذ بالمعنى اليوناني وتردّ للتصرف البشري. فالعلوم المنتجة غير معتبرة. أما النظرية فتتردد بين ثلاثة: علوم الطبيعة، والرياضيات، وما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا).

وهنا يبدو التقسيم تحليليا خالصا ويتيح تقسيم هيكلية العلوم، ولكنه ليس إلا مواجهة، إذ يظهر نظام آخر للتصنيف إلى علوم أساسية وأخرى مشتقة. من ذلك أنه من بين العلوم الطبيعية تدرس الأساس والمادة والشكل والعناصر المجردة والنمو والزوال... حتى ننتهي بالإنسان نفسه.

ويميل ابن سينا في هذه المجالات كلّها إلى كتابات أرسطو. أما العلوم المشتقة كالطب والأحلام والسحر والكيمياء، فهي متطابقة.

إننا نكتشف إذن وراء واجهة جميلة على الطريقة اليونانية تعداداً بسيطا للعلوم التي كانت موجودة، وبصورة خاصة فإننا نقع على نفس العلاقة الضيقة بين النظري والإنتاجي. والأسماء وحدها تختلف، فالأساسية والفرعية ليست سوى الخالصة والتطبيقية. وهذا الاتجاه سوف تكون له عواقب خصبة، وهو منتشر بين المفكرين العرب كالغزالي، وابن رشد الذي خالفه ورأى أنه خطأ في المنهج والتصور أن يضع الطب كفرع من الفيزياء.

كانت كل ثقافة العرب العلمية حكمة عملية محددة، ومرتكزة على ضرورات الحياة

تصنيف إخوان الصفا

استلهم إخوان الصفا تصوفية فيثاغورية وأفلاطونية حديثة ليصنّفوا العلوم إلى أربعة أصناف: (١) الرياضيات (٢) الأجسام المادية (٣) الأنفس العقلانية (٤) الشرائع الإلهية. وهذا الترتيب ديناميكي ويتوافق مع صعود النفس العارفة كما ادعوا. ولا يوجد نفع من هذا التصنيف إلا بالنسبة إلى تاريخ العلم.

من المبكر تقديم عرض للعلم العربي ثم التقدير الصحيح لصفة هذا العلم وضخامته. فالعلم العربي كان موسوعيا، لذا فكل تلخيص تركيبي صالح يعتبر هنا سابقا لأوانه، والمسألة التي حاولنا طرحها هي ماهية التقدم التي أعطاها العرب للعلم، وهل كانوا مكتشفين أم نَقَلَة؟ وعلى الرغم من محاولتنا إلا أننا نعتقد بحاجة هذه المسألة لمزيد من البحوث والدراسات.

المراجع

بالإضافة إلى المؤلفات الوارد ذكرها في سياق البحث نشير إلى كتب أخرى للاطلاع:

(1) J. Sauvaget - Introduction a L'Histoire de l'Orient musulman - Paris - 1964.

(2) R. Taton - La Science Antique et Medievale - P. Univ. de France - Paris - 1989.

(3) Ph. K. Hi - Precis d'Histoire des Arabes - trad. Fr. - Paris - 1950.

(4) A. Anda - la Science chez les tures ottomans - Paris - 1979.

(5) C. Brockelmann - Geschichte der arabischen Litterature - Leyde - German 1953.

(6) A. Nallino - Raccolta di scritti editi editi e inediti - vol. 5 - Rome - 1949.

(7) Encyclopedie de l'Islam, vol. 4, leyde, W.G. - 1938.

لم نذكر أرقام الصفحات في سياق البحث ولم نشر لها في المتن أو في المراجع، لضخامة عدد الصفحات التي رأينا أنها سترهق الباحث.

قصة قصيرة

ذكرى صغيرة

مبارك بن الرواء

في ذلك اليوم البعيد نسي هل لبس ثوبه الجديد أو لا؟ كل الذي يذكره لون ذلك الثوب. كان أخضرَ. في البدء رفض الثوب لأنه أخضر، لون غير طبيعي، الأطفال سيضحكون منه، هذا ما فكر فيه صباح يوم (القرقيعان). الأطفال سيلبسون أبهى الأثواب وأجملها أما هو سيرتدي ثوبا أخضر، سيضحك أطفال الحارة.

قالت أمه وهي واقفة بجانبه عندما كان منبطحًا على فراشه القطني المبلل بالرطوبة:

ـ (محمد) انهض، اليوم القرقيعان.

نظر إليها، لمح وجهها، كانت تبتسم، تثاءب، غطى وجهه الشاحب، قال بصوت خافت:

ـ لن أذهب.

ـ (هه).

جلست بجواره ثم رفعت الغطاء عن وجهه، رائحة القطن المشبع بالرطوبة خنقتها، ابتعدت وقالت بصوت متحشرج:

ـ الأولاد كلهم يقرقعون، شاركهم.

ـ لا.

ـ لم؟.

ـ ثوبي أخضر.

رنّت رأسه الصغير، تململ من صوت الأساور، الرنين يتسلل إلى دماغه ويحدث فيه تصدعات وتشققات. قالت أمه بعدما رفعت يدها عن رأسه:

ـ لا عليك، انهض.

اعتدل، صوب نظره ناحية إخوته النائمين على الأرض بطريقة فوضوية. قال:

ـ عائشة وفاطمة.

ـ ما بهما؟

ـ ألن تقرقعا؟

ـ كبرتا.

ـ كيف؟

ضحكت أمه ومسحت على رأسه وعاد رنين الأساور ينخر ذاكرته، إلا أن حرارة يدها السمراء أنسته ذلك الصوت. قالت:

ـ انهض

في الشوارع الضيقة راح يردد مع أطفال الحارة الكلمات المعهودة غير مبال بما يدور حوله. يسمع بين الفينة والأخرى أصواتًا تصل أذنيه من الخلف والأمام:

(يلبس فستان أخته، شجرة صغيرة، السدرة التي في بيتنا قطعناها أمس)، رن في صيوان أذنه صوت طفلة تمشي بجانبه الأيمن:

ـ تشبه أختي (بدرية)

نكس رأسه ولم يلتفت إليها، راح يردد مع الأطفال بصوت منخفض:

قرقع قرقع قرقيعان
عطونا الله يعطيكم
بيت مكة يوديكم
ويرجعكم لأهاليكم

إلا أن أولاد الحارة لم يدعوه وشأنه، راح أحدهم يضحك منه ويجره من الخلف بشدة ويقول ضاحكًا:

ـ فستان، فستان.

وقال آخر، كان أطولهم، أبيض الوجه، يرتدي ثوبًا أبيض، نحيلاً ذا عينين عسليتين:

ـ (بنيّة، بنيّة، بنيّة)

وجاء صوت من خلف الأطفال:

ـ (ياه، ياه، محمد يلبس أخضر، محمد يلبس أخضر).

امتزج صوت الطفل الآتي من الخلف مع بقية أصوات الأولاد والبنات وهم يرددون تلك الكلمات. إنهم فرحون، لا يعون ماذا يدور حولهم، الفرحة تكاد تفجر أدمغتهم الصغيرة.

امتزجت الأنغام وتداخلت الأصوات وتحولت إلى ضوضاء وجلبة وصراخ:

عطونا الله يعطيكم
محمد يأخذ منكم
بيت مكة، محمد يضيعكم
عن المطر والرعد.

وأخيرًا قالت صبية ذات شعر مجعد، تلبس فستانًا كحليًا، صفراء ذات أنف مفلطح، ناحلة الجسد:

ـ (ويه، ويه، فستان أخته).

نكس رأسه واستمر في المسير معهم حتى آخر الممر الضيق الذي يؤدي إلى الحارة الثانية، لم يتكلم كانت تلك الكلمات ترن في صيوان أذنيه وتتناغم في ذاكرته محدثة صدعًا وشرخًا في كيانه (الملخبط). حاول جاهدًا مجاراتهم، لم يستطع، الأسى تمكن منه وحوّله إلى كتلة من العذاب، رفع رأسه وردد معهم أنشودة العذاب لعله يلهو، شعر برجفة في جسده وإحباط يتمكن من قلبه، انتحى جانبًا ليبتعد عنهم، جلس على أحد أدراج المنازل، أمعن نظره في الكيس الأبيض، قال في نفسه:

ـ لم يمتلئ، بخلاء.
تذكر كلمات أمه وهي تقول له:
ـ دائمًا كن في الأمام.
كان يقول لها:
ـ لا، في الخلف أفضل.
تغضب حينما تسمع كلامه فتقول له:
ـ بقرة، لن تحصل على شيء.
نبهه أحد الأطفال وقال له:
ـ لا تجلس، وصلنا الحارة الثانية، إنهم تجار.
(تجار، تجار، تجار ررررر).
جدته كانت تقول له:
ـ الخير عند التجار.

لم يبال بما قاله الطفل، ترددت الكلمة في ذاكرته إلا أنه لم يع معناها، نثر ما بداخل الكيس في حضنه وراح يقلب غنائمه، حبات من الفستق والجوز واللوز والبندق، وقطع من الحلوى الصغيرة متسخة، لمح قطعة معدنية تبرق، زغللت عيناه، إنها ريال، ريال، ريال! أدارت به الدنيا أم هو الذي دار رأسه؟، راح يردد: ريال، ريال، ريال. بيسي، لا، لا، سمسم من بقالة (سعيد العماني) ماذا سيفعل اليوم؟... لا يدري.

أمسك القطعة وشدد القبضة عليها، انتفض من جلسته ثم انطلق مسرعًا ليلحق المتخلفين من الأطفال وهو يردد:
قرقع قرقع قرقيعان
عطونا الله يعطيكم

استمر في الركض والفرح يكاد يتطاير من دماغه، إنه في عالم جميل، نسي الثوب الأخضر وكلام الأطفال الذين من حوله.. يمتلك ريالاً، حدق فيه مرة ثانية وثالثة، تعرق كفه من شدة القبضة، توقف، أعاد النظر إليه، قرأ ما كتب عليه (ريال واحد)، انطلق مرة ثانية وذاكرته توزع الفرح في جميع أجزاء جسده الناحل.

آه... شعر برأسه يرتطم بالأرض، دم يخرج من جبهته، ألم في ركبته اليسرى، سمع رنين الريال على الأرض، الريال، الريال، أين الريال؟.. رآه يقع بقرب إطار السيارة الزرقاء، ولكن من أخذه؟.. لا يدري.. تجمهر الأطفال حول الإطار وأهدر دمه هناك. الصبية يضحكون منه ومن شكله، خدشت جبهته وأنفه، شفته السفلى تورمت، ركبته آلمته، كل ما فيه تبلد وتضخم.

تبلل ثوبه بالدم وتحول إلى فستان مزركش بالورود الحمراء القانية المائلة إلى السواد. ضجت الحارة بالضحك حتى الرجال الجالسون في الشارع، طأطأ رأسه وأمسك بالكيس القماشي وتراجع إلى الخلف، لم يدخل مع الحشد الداخل إلى فناء البيت، ظل واقفًا أمام الباب، كانت الفتاة التي توزع قطع الحلوى واللوز بيضاء تميل إلى الحمرة، راح يمعن في قوامها.. كانت تضحك على الأطفال، تنظر إليهم كيف كانوا يتسابقون للحصول على الفستق والجوز وقطع الحلوى.

لفت انتباهه خصلات شعرها الساقطة على كتفها، وعندما استدارت لإحضار المزيد من الحلوى رأى باقي شعرها الذي كان يغطي كامل ظهرها وردفيها.. ما هذا؟.. فتيات الحارة شعورهن قصيرة وأغلبهن سمراوات، وأخت (سالم) مزيج من الألوان، والدته تقول إنها (حوّة) لماذا هذه الحارة تختلف عن حارتنا؟ طرح هذا السؤال ولم يصله من أعماق ذاكرته ردّ يريحه. ظل متسمرًا يرقبها من خلف الصبية، كانت تلبس فستانًا رماديًا، وفي صدره وردة سوداء بها فص أزرق لامع، وتلبس في رقبتها عقدًا صغيرًا محلى بفصوص حمراء، وفي وسطه حلقة مفصصة بالأخضر وبداخلها حرف (ن)، كل هذا رآه دون علمها. لمحها وهي تتراجع للخلف وتصرخ بحدة:
ـ يا حمار.

ظن أنها تعنيه فتراجع للوراء خوفًا، إلا أنها قالت وهي تبتسم:
ـ (يا بثوب أخضر، تعال)
أشار بسبابته إلى نفسه وقال:
ـ أنا؟
ـ أين كيسك؟

مد يده إليها والحياء يكاد يعصره، لم يتكلم، فتح الكيس وأسقط نظره إلى الأرض. دنت منه وقالت:
ـ اقترب، خائف.
ـ (هه)، لا.

أدخلت يدها في الكيس الكبير الذي كانت تمسكه بيدها اليسرى (وهشت) له بكامل قبضتها، ثم نثرتها في ثوبه بعدما قالت له أن يرفعه من تحت ويحوله إلى كيس. حدقت فيه وقالت بهدوء:
ـ تريد أكثر؟
رفع رأسه، بهرته عيناها، كانتا واسعتين، قال باستحياء:
ـ لا.
ـ انتظر.

أحضرت كيسًا من الداخل وقالت: انثر هذا في الكيس، وتابعت وهي تبتسم:
ـ ما اسمك؟
ـ (محمد)
وضعت يدها على رأسه ثم قالت:
ـ (عاشت الأسامي)، وتابعت:
اسمي (نورة)

لم يتكلم هز رأسه وضحكا، ودعته بابتسامة عريضة.

في اليوم الثاني جمع أفضل (الكنار) المتساقط تحت سدرة بيتهم ثم وضعه في كيس ورقي، وراح يغذ في سيره وكله أمل أن يراها ليعطيها ما جمعه لأجلها. اقترب من دارهم وشعر برجفة في ساقيه وجفاف في حلقه، دقات قلبه تتسارع، وقف أمام الباب لحظة، رفع يده، ضغط على زر الجرس، وتراجع، وصل إلى أذنيه صوت هادئ وناعم من الداخل، هي، أجل هي، سيتكلم اليوم معها. رد عليها فسمعها وهي تضحك.

لم تكن تتوقعه، شعر أنها ذهلت، صمتت، نظر إليها وتبسمت. اليوم تلبس فستانًا أخضر وفي وسطه حزام ذهبي، شعرها مسرح كذنب الخيل. مد يده وأعطاها الكيس الورقي، أخذته بعد تردد، فقال لها:
ـ من سدرتنا، كلي.
نكست رأسها وقالت بخفر:
ـ شكرًا.
دنا منها حتى رأى صدرها يعلو ويهبط:
ـ كلي.
ـ إني صائمة.
ـ أختي صائمة وتأكل.

ضحكت حتى القهقهة، احْمَّرَ خَدَّاها، استندت إلى الباب الحديدي بعدما أفل منها الحياء، وقالت:
ـ غدًا تصوم وتعرف.
تبسم، ودعها.
جاءه صوت من خلفه:
ـ مع السلامة.

سار متمكنا، أهمل رجليه وتركهما يضربان الأرض بخفة، شحنة من الأفكار تسري في رأسه الصغير، كتلة فرح ترفعه للأعلى وموجة أسئلة ترميه للأسفل. تساءل:
هل سيراها غدًا؟
غدًا يعرف. أطلق قدميه للريح وكله أمل بلقاء آخر.

معلم المدرسة والعقوبة التربوية

علي خطيب

قد يشعر المرء بصعوبة وحرج حينما يُطالب بإماطة اللثام عن تصوره فيما ينبغي أن تكون عليه العقوبة التربوية، وبخاصة إذا كان معلما في صَفّه، فقد يعتبر تصوره متسرعا لقضية تحتاج إلى تسليط أكثر من ضوء بغية كشف ما غمض، فمن خلال التصدي الميداني لهذه المشكلة تبين بشكل جلي أن التلاميذ في المجتمع المدرسي يتعلمون ما يُطلب منهم تعلمه عن طريق معاقبتهم على أخطائهم، غير أن الدراسات المتقصية أثبتت عمليًا أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يتعلمه التلاميذ هو (تحاشي الوقوع في قبضة المعلم).

فقد تبين من خلال تجارب الميدان تلك التي أجراها العلماء (أن المجتمعات البدائية مثل أستراليا والأسكيمو والهنود الحمر يرفضون عقوبة الأطفال، وأن ما يسود في تربيتهم للأطفال هي عادات التسامح المطلق). وقد أجرت الدكتورة (إيلاوود يارد) دراسة على ألف حالة من تاريخ حياة الأفراد لمعرفة آثار الثواب والعقاب في تنشئة الصغار تبين منها أن الاستعمال الفعلي للعقاب مقصور على حالات نادرة جدا، ففي بلاد كغانا الجديدة تجري تربية الطفل بأقل عقوبة أو تأنيب، حيث إن الآباء يسمحون لأولادهم بالحرية الكاملة، أما الصغار فلا يُطالبون بعمل أي شيء لآبائهم ولا يَطلب منهم المجتمع إلا احترام الملكية وتجنب ما يجلب العار.

البحث في العقوبة التربوية ودواعيه

مقولة النظرة إلى الطفل على أنه: (راشد مصغر.. رجل صغير) حددت الدلالات الفلسفية بحيث تجعله ينوء بحمل ما يُطلب منه.. (تعويده النظام أمر حتمي لا يتعوده إلا بضربه حتى يتمكن المربي من غرس جذور الاحترام والطاعة في نفسه).

كل ذلك يتطلب استخدام العنف والقهر والإرهاب، فحتى نهاية القرن العشرين ومبدأ العنف والقهر سائد في مدارسنا، حيث يمكن تلخيص فعالياته بالمفاهيم التالية:

- (العصا لمن عصى) إذا أقللت من العصا فسد الطفل وتعثر..
- (العصا خلقت من الجنة) الخيزرانة والعصا والمسطرة هي المكونات الأولى في نظريات التربية السائدة.. والنظرة العبودية في الإدارة هي الفعالة في عمليات التعليم وتعويد النظام، وليس ما يبلور هذه النظرة إلا خلفية فكرية تعود جذورها إلى العبودية والجلد بالسوط.

إن الحرية وقنواتها هي المضمون الواقعي للواجب، والمعلم الناجح هو من يفهم النظام بما يهب العقل حريته، والعفوية الطفولية فعالياتها... وليس ثمة بدائل بالرغم من كل التطوير الذي أدخل على نظرية التربية العقابية وقوانين ممارساتها، إلا بتوليد القناعة لدى المربي بضرورة التخلي عن فلسفتها الخاطئة التي غلفت عقولنا بالنظرة الأكثر خطأ على أنه راشد مصغر وعقله صفحة بيضاء يمكن للمعلم أن ينقش عليها ما يشاء. ناهيك عن الفهم الخاطئ، الذي يؤكد أن الخوف والمهابة من المعلم هما بداية التعقل الدراسي.

- (مَنْ لا يُرْهِبْ لا يُهَبْ) من هذه النظرة نتبين ما تعانيه التربية من حقيقة التناقض بين المعلم وسيكولوجية التسلط، والتلميذ الذي يعيش جو الإرهاب والتسلط الكابح لإمكاناته، بحيث تتراوح العملية التربوية في تركيزها على التعليم بين المعلم العنصر الفعال، والتلميذ العنصر المنفعل من جهة، وبين المعلم الإنسان الذي ينظر إلى التلميذ على أنه محور العملية التربوية من جهة أخرى. على أن النظرة التسلطية والتركيز على التعليم بكل ما فيه من سلبيات قسرية لا تزال هي السائدة، ولا يزال الحفظ والتذكير كاختبار للتعليم الاسترجاعي العقيم أو الحفظ الأجوف هو المعيار، على الرغم من جميع الصيحات التربوية الجديدة التي تنادي بالانطلاق من حاجات واهتمامات الأطفال.. على أن مقولة: (التعليم من أجل الحياة) هي الهدف النهائي والأسمى للمجتمع المدرسي.

الآثار السلبية للعقوبة

لاستعراض الممارسات الخاطئة لقيادة العملية التربوية داخل غرفة الصف أهمية بالغة في تحديد واقعية النظرة إليها، لأنها ذات آثار سلبية، وتترك

بصماتها على نفسية الطفل لوقت طويل:

١ - حجز الطفل في غرفة الصف أثناء الراحة (الفرصة)، أو بعد انتهاء اليوم المدرسي.

٢ - خصم درجات من سلوكه، أو حتى من مهاراته، أو مواد عمله في الشهادات المرسلة لولي أمره.

٣ - اعتماد أسلوب التهكم أو السخرية أو التكدير كرادع للتقيد بالنظام أو التنفيذ.

٤ - تجاهله فترة طويلة، أو احتقاره بتعابير الوجه، أو مطالبته بتأدية أعمال فوق طاقته.

٥ - حرمانه من نشاطه المحبب كالرياضة البدنية، بسبب سلوك غير مرغوب فيه في لون آخر من فعاليات المدرسة مثل الرياضيات أو اللغة العربية.

٦ - ضرب الطفل أو لطمه على العجز أو الوجه.

٧ - المطالبة المستمرة في تذكر أو كتابة عبارات لامعة (حكمة اليوم)، تلك العبارات التي يراد بها تقويم أخلاقه.

٨ - تحميله واجبات ثقيلة في معرض التمرين (كالطلب إليه حل خمسين مسألة حساب أو كتابة الدرس عشرين مرة).

٩ - وضع التلميذ موضع السخرية أو الإحراج (كإخراجه ليقف خارج غرفة الصف، أو إرغامه عنوة على مواجهة الحائط وأنفه إلى السبورة، أو حمله لسلة المهملات، أو صندوق الطباشير... إلخ).

على أن لكل ما ذكرناه آثاره السلبية في نفسية التلميذ، ولكل شكل من أشكال العقوبة المنفذة نتائج هدامة وفعاليات تخريب في البيئة النفسية، بحيث تدفع الطفل للبحث عن البدائل التي قد تكون بمثابة ساتر شفاف عاجز عن حمايته من تهكم معلمه وزملائه في غرفة الصف.

معقولية العقوبة

ليس من المسلَّم به أن تنتفي العقوبة من المحيط المدرسي، لكنها العقوبة المعقولة تلك التي تأتي نتيجة طبيعية للسلوك غير المرغوب فيه.

سلوك غير مرغوب فيه ـــ عقوبة تربوية ـــ سلوك أفضل.

إن المعلم الناجح هو الذي يتقن فن (معقولية العقوبة)، تلك التي يمكن أن تؤدي بالتلميذ إلى السلوك الأفضل.. ذلك السلوك الذي يفهمه التلميذ ويتقبله، فالتلميذ المتوسط لن يمارس الدور المطلوب منه للسيطرة على التذكر الآلي للمادة ما لم تتولد لديه القناعة بالنتائج الإيجابية لذلك الدور. وهنا يكمن دور المعلم الناجح الذي يمتلك مهارة الإقناع بأن تنفيذ التلميذ لهذا العمل سوف يؤدي به إلى الهدف المنشود، ثم إلى الشعور الحتمي بالرضى والارتياح. من هذا المنطلق يكون دور المعلم محرضا للطفل للإنهماك في الدرس، باذلاً جهده في تذليل الصعوبات التي قد تعترضه. ولن تكون ثمة صعوبة ما دام المعلم هو الذي حدد الأهداف بصورة مشوقة من خلال اختياره للمادة التي تتصل اتصالا وثيقا بحاجات التلميذ، لأنه يرغب في أن يكون مثل معلمه كفئًا لأعماله اليومية... أي إن الاستعدادات والقابلية كامنة في ذات التلميذ، فإذا هيأنا له المواقف التربوية المختارة والمحددة، وجابهناه بالمشكلات المبرمجة من قبل المعلم، بحيث تتولد لديه القناعة بأنها مما يؤدي إلى خبرة تجعله مركز اهتمام، عندئذ سيندفع راغبا في العمل منهمكا فيه باذلا أقصى ما يستطيع.

إذا كان المطلوب من التلميذ أن يربط العقوبة بنتائجها فمن المهم جدا أن يكون سلوك معلم الصف متفقا مع تحقيق هذه الغاية.

أي يجب أن يعرف التلميذ ما هو مطلوب منه، وأن يمارس ربط العقوبة بنتائجها، وهنا يكمن دور المعلم وحساسيته بحيث يكون على اتفاق دائم وتفاهم معقول مع تلاميذه حول تجنب آثار هذا السلوك في المستقبل، مبتعدا عن التشدد والتصلب في المواقف التي لا تتطلب ذلك، بغية تهيئة المناخ النفسي الذي يَنْتُج عنه الأمان النفسي، ومن خلال رؤية التلميذ اتساق وتناغم تصرفات الكبار، يسعى لمحاكاتها.

لكن الواقع يفرز معطيات تؤكد أن كثيرًا من التلاميذ يتعرضون - في البيت والمدرسة - لعقوبات هدامة ومهينة لا داعي لها.. وليذكر معلم الصف دائما أن العقوبة مهما كانت إيجابية، لا تعدو أن تكون وسيلة قل أن تكون مقبولة.

تجارب الميدان

إن التجارُب التي تناولت العقوبة وأثرها في العملية التربوية كثيرة جدا، وتكاد تكون مجدية في تعليم الحيوان، فقد أثبتت التجارب التي أجراها الباحث الاجتماعي (سبون) على الحيوان، أن الحيوان، غالبا ما يتعلم القيام بعملية ما إذا عُوقب على إخفاقه فيها بشكل أفضل مما لو لم يعاقب.

أما (مس تشيرا) فقد توصلت من خلال تجاربها العملية إلى نتائج مذهلة لخصتهابالنظرية التالية: «إن الدراسات التي تثبت أن العقوبة أكثر جدوى من المثوبة أكبر عددا من الدراسات التي تثبت العكس».

على أن جميع هذه التجارب تناولت الحيوان وفعاليات تعلّمه، وهي قليلة الجدوى في تعلم الإنسان، ذلك لأنه يمتلك ذاكرة وقدرات عقلية وفعاليات نفسية ترتفع به إلى حالة شعورية من الوعي موضوعها مضار سلوكه دون التسليم بفوائده.

لذلك نجد الحقد والكراهية التي سوف تتخلف في ذاكرة التلميذ المُعاقَب تفوق كثيرًا ما

للعقوبة مضار كثيرة تفوق فائدة المثوبة بأكثر من ضعف

يُفرح المعلم من تحسن ظاهري يراه.. لذا يُجمع علماء النفس على أن الثواب يفوق العقاب في نتائجه. وأن مجتمعنا المدرسي يمارس العقوبة بكل أشكالها لمنع السلوك غير المرغوب فيه، وليس ثمة ما يمنع المعلم من إنشاء علاقات احترام للتقاليد والنظم المدرسية التي يمكن محاكاتها وتقبلها من قبل التلميذ.

ولقد أثبتت نتائج الدراسات والتجارب الميدانية التي أجراها علماء التربية: «أن الثواب يحظى باعتراف جماعي بالفائدة التي يمكن أن تعود بمردود إيجابي على التلميذ، بينما للعقوبة مضار كثيرة تفوق فائدة المثوبة بأكثر من الضِّعف. حتى لو تمكن المعلم الماهر من إتقان بعض المهارات التي تجعل المعاقب يشعر بالسعادة». والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل يتخلى المعلم عن ممارسة العقوبة في قيادته للعملية التربوية؟ وهل تتلاشى العقوبة من أجواء مدارسنا؟ أسئلة عديدة تتطلب الإجابة.

البيت والعقوبة التربوية

من خلال تجارب الميدان والدراسات المتقصِّية ظهرت سياسات تربوية منزلية تركت آثارا واضحة في سلوك التلاميذ، فلنسلط الضوء على أنموذجين تظهر فيهما الممارسات الميدانية للعقوبة:

البيت الديمقراطي: أظهرت دراسات عديدة أن الأطفال الذين يتربون في ظلٍّ تربية منزلية ديمقراطية يتصفون: (بالحيوية... والجرأة.. والقبول الواضح للزعامة.. والاستعداد الأكثر جدية لرسم خطط أفعالهم بأنفسهم..) هذا في الجانب الإيجابي، لكنهم بالمقابل يتصفون بكونهم أكثر استعدادا لإظهار اتجاهات القوة في تعاملهم مع أقرانهم، والمعلم المبدع ذلك الذي يأخذ بعين الاعتبار هذه الدلالات.

البيت الديكتاتوري: كما أظهرت تجارب الميدان والدراسات المتقصِّية أن الأطفال الذين يتربون في ظل تربية قاسية يخضعون فيها لنظام مراقبة يتصف بالشدة والعنف فالاحتمال الأرجح أن يتصفوا (بالهدوء والسلوك الحسن)، إلا أنهم يجنحون لأن يكونوا أكثر تعقيدا في ميولهم واستطلاعهم.

من كل ما ذكرناه نستخلص القول بأن الأطفال الذين يعيشون في جو مشحون بالعقوبة كثيرا ما يظهرون عدوانية ملحوظة، حينما يخلون إلى أنفسهم، فيحطِّمون أثاث المدرسة والمقاعد ويمزقون الدفاتر ويرمونها تحت المقاعد، على الرغم من التوجيهات التي يتعب المعلم من تكرارها.. وقد يحطمون لعبهم التي يحصلون عليها من أهلهم.

دور الميول والاهتمامات

لما كان المديح شيئًا خارجًا عن عملية التعلم (الحصول على بعض المزايا، الوظائف، المكافآت، درجات السلوك، المنح المدرسية... إلخ) فإن الجانب الآخر السلبي يتجلى في (التوبيخ، اللوم، التشهير،الإذلال، العقوبة البدنية، الطرد من المدرسة، العزل، التغريم المادي.. إلخ). كل ما ذكرناه دوافع لتحسين السلوك وهي ذات قيمة ثانوية على الرغم من كون بعضها إيجابيا في



تحسين الفعل السلوكي وبعضها الآخر سلبيا..

جميعها تتصف بآثار قصيرة الأمد وقتية التغيير، بسبب اعتمادها على الأسس الانفعالية لا على أسس تنمية الميول والاهتمامات، وثمة من يقول بأنها تنطوي على ميل أو اهتمام، لكن الحقيقة المتقصية لما تنطوي عليه من ميل يتجلى في كونه ميلا سطحيا إلى الفوز الظاهري مثل (إرضاء المعلم عن الواجبات اليومية.. إلخ) دون تنمية القدرات الحقيقية للتلاميذ، تلك التي تدفعهم إلى الانهماك في نشاطات الدرس، وجميع الارتباطات التي يحاول معلمنا توثيقها ارتباطات عرضية، وناهيك عن المواقف المحرضة للصراعات النفسية، تلك التي نسهم ـ باختيارنا ـ في خلقها. والخطورة تكمن في الانفعالات السلبية التي تؤدي إلى تقوية الميول الانفعالية السلبية مثل: (الخجل.. الخوف.. التسرب من المدرسة ـ العدوانية ـ الكراهية ـ القلق ـ الحقد ـ العدوانية ـ التحطيم... إلخ) التي ينجم عنها حالات توتر انفعالي تدفع بالتلاميذ إلى مواقف سلبية مثل تحطيم بعض أثاث المدرسة.. أو تعذيب الحيوانات أو تحطيم أشجار الحديقة الجديدة.. إلخ. ولسنا نملك الأمر في بناء شخصية التلاميذ، فالمجتمع المحلي عنصر فعال في هذا البناء الصعب، فكثيرا ما يُبدع المعلم ويجتهد في إعداد المواقف التربوية وتشخيصها بالأمثلة التي تتلاءم مع الميول والاهتمامات، وسرعان ما يفاجأ بعناصر اجتماعية أسهمت سلبيا من خلال تعلم مصاحب أو غير مصاحب. فليس ثمة حل للمشكلة ما لم تتولد القناعة لدى المربي بأن التلميذ (يتعلم ما يحياه)، ولذلك يتحتم علينا معشر المعلمين اعتبار نوع حياة التلميذ الهدف الأساس لجميع فعاليات التعليم. وعلى هذا لا بد أن يقتنع المعلم بالدرجة الأولى بأن التعلم تشجيع وتنمية نوع راق من الحياة الملائمة لبناء الطابع المستقر في شخصية التلميذ. كل ما ذكرناه يؤكد أن استجابات التلاميذ الفعالة لا تأتي نتيجة للضغط والعقاب، بل بإحلال فعاليات التعامل مع عناصر حياة التلميذ ألا وهي (التوجيه ـ الإرشاد التشجيع.. إلخ) حيث إن التشجيع والأخذ باليد يساعدان على تنمية الميول والاهتمامات وبالتالي تؤدي إلى تعلم مثمر وناجح.

المناخ التعليمي والعقوبة

في نهاية البحث يمكن أن نتوصل إلى الإجابة المعقولة على السؤال الذي يطرح نفسه علينا معشر المربين: (متى يتوصل معلم الصف إلى الحدِّ الذي تنتفي فيه العقوبة أو تتلاشى على الأقل؟ وهل ثمة ما يؤكد تلاشيها حتى عندما يعيش التلميذ (حياة ذات طابع مستقر) ويقتنع معلم الصف بأن نوع حياة التلميذ الهدف الأساسي والحتمي أمامه؟). في الحقيقة لا تنتفي العقوبة بشكل نهائي فذلك أمر مستحيل.. لكنها تقل في المناخ التعليمي الصحي.. ذلك المناخ الذي يتطلب وجوده مجمل تغيرات جذرية تسبق تهيئة الظروف المادية والاجتماعية، تلك التي يسهم فيها معلم الصف بدور فعال ومتغير، الأمر الذي يدفع به إلى القناعة: (بأن الطفل يتعلم ما يعيشه)، وبأن التعليم يجب أن يكون تشجيع وتنمية نوع راق من الحياة التي اعتبرها المعلم الهدف الأساسي والحتمي أمامه.. ويمكن تحديد تلك المكونات الفعالة في التعلم الصحي لتكون بمثابة الضوء الذي يهتدي به معلم الصف في تحسين ممارساته الصفية. واستناداً إلى ذلك نجد أن مكونات المناخ التعليمي غير الصحي تقوم على أنه:

الجو المشحون بالعقوبة يولد عدوانية ظاهرة عند الأطفال

- عندما يعيش الطفل الانتقاد يتعلم الإدانة.
- عندما يعيش الطفل العداء يتعلم المقاتلة.
- عندما يعيش الطفل السخرية يتعلم الخجل.
- عندما يعيش الطفل التخجيل يتعلم الإحساس بالإثم.

والمعلم الناجح، هو المربي الذي يحاول الابتعاد عن ممارسة التفاعل اللفظي الذي يؤدي إلى المناخ التعليمي غير الصحي.

وأما فيما يختص بالمناخ الصحي، فأغلب المعلمين في مدارسنا مازالو يهتمون بالجوانب المادية للمناخ التعليمي مثل: (الإضاءة، التهوية، الجلسة الصحية.. إلخ) أكثر من اهتمامهم بالجوانب النفسية والاجتماعية، تلك التي تسهم في تهيئة المناخ الملائم (لحياة ذات طابع مستقر) ولا يتوفر ذلك المناخ ما لم تتولد القناعة لدى المعلم بأن الطفل (يتعلم ما يعيشه):

- عندما يعيش الطفل الأمن يتعلم الثقة بنفسه وبمن حوله.
- عندما يعيش الطفل التسامح يتعلم الأناة والصبر.
- عندما يعيش الطفل القبول يتعلم الرضا عن الذات.
- عندما يعيش الطفل القناعة يتعلم التذوق والتقدير.
- عندما يعيش الطفل المساواة يتعلم العدالة.
- عندما يعيش الطفل الأمانة يتعلم احترام الحقيقة.
- عندما يعيش الطفل الطمأنينة يتعلم الإيمان.
- عندما يعيش الطفل الصداقة يتعلم حب الناس وحب عالمه.

فهل يلتفت المعلم في المدرسة إلى تهيئة الجوانب النفسية والاجتماعية للتعلم الصحي .؟؟

المراجع

١ـ علم النفس العقابي، د. كمال دسوقي.
٢ـ علم النفس التربوي، آرثر جيتس.
٣ـ التعليم والتعلم الإبداعيان، التدريب المستمر في وزارة التربية السورية.
٤ـ الإدارة التربوية، مديرية المناهج والبحوث في وزارة التربية السورية.



الجزيرة
تكفيك

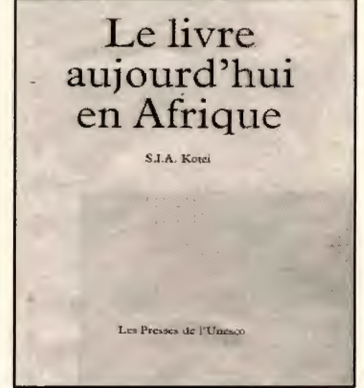


المسائية

تثري
مساءك

تصدران يوميا عن «مؤسسة الجزيرة» للصحافة والطباعة والنشر. ص.ب: ٣٥٤ الرياض: ١١٤١١ هاتف: ٤٠٢٥٥٥٥ . تلكس ٤٠١٤٧٩ جزاتي اس جي.

الكتاب وأفريقيا اليوم



تأليف: البروفسور س إ.أ كوتي
ترجمة وتلخيص:
نور الدين بلبيل - الجزائر

يحاول هذا الكتاب (Le Livre aujourdhui en Afrique) الإجابة عن عدد من الأسئلة ذات الصلة الوطيدة بعادة المطالعة ودوافعها عند الأفريقيين.

وينطلق المؤلف من فرضية تقول: ما دامت المطالعة تشكل الهدف النهائي لكل أنشطة الكتابة والنشر. فبإمكاننا التخطيط بمنهجية لعملية تموين أفريقيا بالكتب إذا كنّا مُلمِّين بالحاجات والعادات.

يقول البروفسور كوتي: في ظل غياب المعلومات الدقيقة لا يمكننا إلاّ وضع بعض الأحكام ذات الدلالة على صناعة الكتاب في أفريقيا، ولتقديرات تخص الآراء والحاجات والمواقف، وعادات القرّاء.. وإنه من التناقض أن ننتظر من الأفريقي المتوسط الدخل الذي يتقن القراءة أن يخصص أوقات فراغه للقراءة. دون الاهتمام بأشياء أخرى حيوية. بيد أن بعض الدراسات بينت أن الأفريقيين يخصصون فعلا جزءًا من أوقاتهم للقراءة. ويؤكد الباحثون «كوتي وتويماسي» من غانا، و«بولين فيبس» من أوغندا أن التوجه صوب التلقين الجماعي يلتقي مع القراءة الخاصة. وقد تفوق بعض الأشخاص على الضجيج المحيط بهم عند القراءة. فكل شيء يرتبط بعمق الرغبة في القراءة.

يذهب هؤلاء الباحثون إلى أن جيل القدامى يقرأ على الأرجح بسبب أن القراءة كانت مرتبطة أو مشروطة بالتربية.. أما الجيل الأصغر، فعناء البحث عن العمل في المدن قطع الصلات التي كانت تربطهم بالقرية، وفي المحيط الحضري المعزول جزئيا، عوضوا الأصدقاء بالكتب، والاندفاع صوب المدن الذي يميز كل البلدان الأفريقية أدى إلى تحطيم العادات القديمة، وبَعَثَ نوعًا من التجربة المتسمة بالفردية التي تمخضت عن العيش في الحضر.

الأمية متغير حاسم

في كل بلد، نجد درجات متباينة لقدرات المطالعة: نصف الأمية، الأمية الأولية، الأمية المشروطة. وهذه الأنواع من الأمية تمتد من الطفل إلى الباحث المرموق مروراً بأميات الكبار. وهذه القدرات المتنوعة تبين أن الأمية متغير حاسم بالنسبة لنوع الكتب التي يجب نشرها ومحتواها.

ومفهوم الترفيه أيضًا متغير مهم، وهو يخص الصيغة التي يفضلها معظم الأشخاص الذين يعرفون القراءة ويفضلون الاستراحة عقب العمل، ومن الأسئلة التي يجب طرحها هنا: هل توجد في البلد (محل البحث) ثقافة أدبية كافية ومتطورة؟ وما وزن ومكانة الأنشطة الترفيهية الأخرى موازنة بإغراء القراءة؟

ولنفرض بأن القارئ المداوم على المطالعة يتوافر له الوقت الكافي مع الرغبة لتعلم القراءة، فهل المؤلفات المتاحة تتلاءم مع برامج الدراسة المقررة عليه؟ وهل كُتب المطالعة المكملة تقوّي رغبة طلب المعرفة في إطار الآلية الاجتماعية والسياسية والثقافية لمجتمعه؟ وهل تسهم النصوص المكملة في إنجاح تقنيات التعليم في المدرسة أو تنبذها؟ وإلى أي حدٍّ تتأثر المطالعة باختيارالوقت؟ وهل حجم المكافأة أو التشجيع حافز كاف للطاقة الموظّفة في القراءة من أجل تحسين المستوى؟

وإذا أخذنا في الحسبان المداخيل المتوسطة للأمي، ووازناها بنمط المصاريف، ما النسبة التي يخصصها للأدوات غير الضرورية للعيش؟ وفي أي مستوى من سلم المواد غير الضرورية هي مرتبة الكتاب؟

ومكان الإقامة، هل يؤثر في نوع الكتاب الذي يُقرأ؟ وفي النسق نفسه من الأفكار، هل للتغييرات الأخلاقية بعض الأهمية؟ أو أليس لها أفضلية بارزة بين مختلف المجموعات الأخلاقية؟

هل تجب المحافظة من خلال النصوص على

ثقافات الأقليات ولغاتها، أو يجب التضحية بها لصالح إقامة هوية وطنية؟ وإذا راعينا الاختلافات الدينية، وسلمنا أن المعتقدات الدينية لها تأثيرها في اختيار مطالعات الفرد، فما كمية الكتب التي يجب إنتاجها لتلبية هذا الاحتياج؟

بواعث المطالعة

يشير المؤلف إلى أن أكثر من ٧٠٪ من سكان أفريقيا يعيشون في تجمعات ريفية، ويمارسون اقتصاداً فلاحيًا، وأن الصلات الأبوية قوية وملتحمة، والعادة الجماعية متينة في نظام العائلة الصغيرة، غير أن هذه الصلات قد تمتد كذلك إلى العائلة الكبيرة، وأعضاء كل واحدة منها مندمجة فيما بينها في علاقة وطيدة جدًا.

وتمتلك مثل تلك العادات سلطة الانسجام التي تمتد لإلغاء وإزالة كل تأثير أجنبي، بما فيها حضارات الكتابة، فالفرد يقتسم مساواة الإرث الثقافي لمجموعته إلى درجة أن معظم الحالات تضعه في اتصال مع أنماط تفكير وسلوك عمل الجماعة.

فرديته تعني رغبته في القيام بسيرة فردية غارقة في الوعي الجماعي، والتقليد الشفوي يدعم هذه التيارات، لأن شكلها يقيم هيكلا اجتماعيا صلبا لدرجة أن القوانين والأدوار تصبح علامات استراتيجية. ذلك كله ينطوي على الاستقامة تجاه الجماعة، وتسمو معه الهوية، وتقلل من التجارب الفردية التي تنمو نحو القراءة. ويلاحظ المؤلف أن التنظيم الاجتماعي التقليدي في معظم مناطق أفريقيا الاستوائية لا يحث على معارضة أو نقض عادة المطالعة. ففي أوغندا، اكتشف «بولين فيبس» أثناء تحقيقه عن المطالعة أن الطلبة الذين يحاولون القراءة في بيوتهم يشتكون - بالخصوص - من «الضجيج»، وأن المنزل التقليدي أشبه بمكان عمومي حيث الانعزال ليس مشجعًا.

إنّ الفرد يفكر بشكل أحسن بلغته الأم، وإنّ استعمال لغة ثانية في النشر يمثل عائقًا حقيقيًا في فهم النص، ولكن باستثناء المناطق الشمالية والشرقية لأفريقيا، حيث يتكلمون على التوالي: العربية والسواحيلية، فإن بقية القارة ترتبط بالمؤلفات المكتوبة بالإنجليزية، والفرنسية والإسبانية والبرتغالية، ونادرة هي البلدان التي تنشر اليوم كتبًا باللغات المحلية.

ويرى المؤلف أنّ الذين يستعملون الفرنسية أو الإسبانية أو البرتغالية كوسائل وحيدة لنقل التعليم أو الاتصال الرسمي لديهم امتياز محسوس: القدرات اللغوية متطورة أكثر مما هي عليه في المناطق الناطقة بالإنجليزية، وحتى الذين لم يتمكنوا من التعلم، فإنهم يستعينون بالفرنسية أو الإسبانية في علاقاتهم الشخصية. وإذا قارنا قدراتهم اللغوية بمثيلتها لدى الأفارقة الناطقين بالإنجليزية لاحظنا أحيانًا، بالنسبة لمستوى تعليمي متساوٍ أنّ الفريق الأول يُعبِّرُ بطلاقة.

وأما في البلدان التي احتفظت باللغات الأفريقية كوسيلة للاتصال، فإن هناك مشكلات قد تظهر أحيانا بسبب البنية النحوية القوية للنصِّ المكتوب. ومن أجل معالجة هذه المشكلة فإن صحيفة بـ (سيراليون) تعتمد على لهجة «كريو» -- KRIO التي هي خليط من الإنجليزية المستعملة محليا والتي لا تلتزم قواعد الإعراب والصرف وغيرها. وهناك الآن منجد وكتاب مدرسي بلهجة «كريو» في طور الإعداد، وكذلك مجموعة من النصوص منشورة من طرف مجموعات، (CLIFFORD FYLE ET ELDRED GONES).

وللسبب نفسه (سهولة المطالعة)، فإن طبعة خاصة للإنجيل بالإنجليزية قد تمت ترجمتها في بداية القرن إلى «رطانة إنجليزية» بجمهورية الكاميرون، وإن لهجة «كريو» التي تمثل شكلا من الرطانة الإنجليزية لغرب البلاد قد انتشرت بشكل كبير عند البالغين والأطفال، الذين يوظفونها بسهولة أكثر من لغتهم الأصلية، وقد ظهرت هذه الطبعة بعدما لوحظ عدد من الأخطاء في المعنى، أدخلتها الترجمات إلى اللغات المحلية التي اضطلع بها باحثون ألمان.

ويؤكد المؤلف بأن القارئ يستطيع فعلا تعلم الإعراب ومفردات الكتاب، لكنه لا يفهمها حقيقة إلا عندما تتفق مع رصيده اللغوي وتجربته العامة في الحياة. وإذا لم يفهم مدلول كتاب حُرِّرَ بلغة ثانية، فإنه يتلقى تعريفات ويقدم أجوبة أخرى غير التي يقصدها المؤلف. وإن التلاميذ الذين لم يألفوا الأشكال الجديدة الشفهية والكتابية للإنجليزية، يبدو أنهم غير قادرين على التنسيق بين آذانهم وأيديهم وأعينهم عندما يُملى عليهم، وإن عملهم يُبين أنهم لم يسمعوا بدقة الكلمات، وأنهم لم يفهموها بعد.

اللغة الأم في النشر

إذا كان صحيحا أن التلقين يكون أجدى باللغة الأم، فيجب إذن النشر فقط باللغات المحلية، لكن هذا ليس بالسهل كذلك، فإذا كانت السواحيلية هي وسيلة التعبير لدى الأغلبية في شرق أفريقيا فإنها ليست الوسيلة الوحيدة للاتصال، حتى في تنزانيا حيث تنتشر السواحيلية بشكل كبير توجد على الأقل ١٢٠ مجموعة عرقية لا تُعبِّر إلا بلغات أخرى أو بلهجات محلية خاصة بها. إذن الأفضل الالتجاء إلى أبدال متنوعة، ويمكن كذلك تحسين القدرات في اللغة الثانية، أو اعتماد لغة واحدة كدعامة وطنية رسمية للنشر.

ويقول المؤلف: «إذا كنا نعتقد بضرورة ترجمة مجموعة من النصوص فيجب تجميع

المعاجم التقنية المتعددة اللغات، وكذلك القواميس. بيد أن الكثير من البلدان الأفريقية ليس باستطاعتها الاضطلاع بذلك، لأن المهمات الأخرى في مجال النشر ضخمة جداً، (في عام ١٩٧١م مثلا كان (١٠) ملايين تنزاني قد تداولوا ٥٠٠ عنوان فقط بالسواحيلية)، ويجب تجنيد اليد العاملة والمصادر المالية الضخمة من أجل إنتاج كميات كافية، والقيام بعدد من ترجمات المصطلحات والمفردات التقنية إلى اللغات الفقيرة ومن ثم صياغة تعابير جديدة، أو تعويض القديمة بألفاظ جديدة، لكن ذلك سيكون عملا مستحيلاً قبوله من أصحاب اللغات المتطورة مثل العربية والهاوسة HAOUSSA واليوروبة YOUROBA والسواحلية KISWAHILI.

غياب النصوص الموجهة للطفل

من بين النقائض الصارخة والخطرة في ميدان الأدب ونتاج الكتاب بأفريقيا اليوم - كما يقول المؤلف - ندرة النصوص الإبداعية الموجهة للأطفال والمراهقين (من ٤ إلى ١٥سنة). ومما يزيد في خطورة هذا التفريط كون المؤسسات الخاصة التي أُنشئت بمساعدة من الدولة للتكفل بالنشر المدرسي، وبإنتاج الكتب المدرسية والفكرية لم تُقدم أعمالاً مهمة في ميدان أدب الأطفال.

وإذا كان الأدب العام الموجه للكبار غير مدعم، فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل الكتب معروضة بشكل كاف ومتنوع من طرف الناشرين الأجانب والمتعاملين المحليين؟ وبالرغم من أن الأطفال يشكلون ٤٠٪ من عدد السكان فإن الكتب الموجهة اليهم لا تمثل إلا ٥٪ فقط من النشر بأفريقيا.

أما في أفريقيا الشرقية الناطقة بالإنجليزية، فإن علماء التربية قد قاموا بمحاولات جديرة بالتقدير من أجل تقديم الكتب الكلاسيكية إلى أطفال KIKOUYOU, LUO ET BEMBA ويبدو أن خيال هؤلاء الأطفال قد عرف طريقة إلى التفتح، لكنهم في مقابل ذلك لم يستطيعوا القرب من الحكايات والأساطير القديمة لبلادهم.

ويقدم المؤلف التهنئة لكون الأساطير والخرافات بأفريقيا هي الآن متوافرة في النص، كما توجد أناشيد خاصة بأبطال التاريخ أو الأساطير..

إن سلسلة «وجوه الأفارقة الكبار» التي تصدرها دور النشر الأفريقية الجديدة تركز على الشخصيات الكبيرة التي أنتجتها هذه القارة، كما تم نشر قصص عن شخصيات من الساحة الجغرافية الأفريقية، لقد تحدثت هذه القصص عن شاقا Chaka ملك زولوس، أوزي توتو، السلطان سيمون كامبانغي من زامبيا، عثمان دون فوديو من نيجيريا، وعن أربعين وجهًا أسطوريًا آخرين.

إن عادة المطالعة تتطور بسبب وفرة كتب الأطفال والمراهقين، في حين أن مضمون نصوص هذه الكتب يجب أن يرمي إلى شد انتباه القارئ وإغرائه حتى يشتد طلبه لها.

وتبين التطورات الحالية أن العمل الجماعي يعتبر تمهيدًا حاسمًا من أجل إنتاج أعمال تلبي وتستجيب لاهتمام اجتماعي محدد بدقة. وما يقتضي أن نعيد قوله هو أنه بغية إتاحة فرصة منح الانبعاث لإنتاج كتب الأطفال، من الأفضل اعتماد تمهيد جماعي متعدد التخصصات والمؤسسات. كما تفعل الدولة من خلال دعمها لإنتاج الكتاب المدرسي.

وفي بعض البلدان التي هي في طور التنمية، تم إنشاء مؤسسات بهدف مساعدة نشر كتب الأطفال، وإن مسابقات في المخطوطات قد تم أيضا تنظيمها، وقد اختير من بينها التي حققت نجاحات أكبر، عقب ذلك أُرسلت تلك المخطوطات إلى الناشرين التجاريين الذين يتلقون قروضاً حتى يتسنى لهم نشرها في دور النشر المشهورة لكن بأقل تكلفة. وفي بلاد أخرى يوجد مجلس لكتاب الطفل مستقل عن الحكومة. وهو مهم لوجود باحث في المكتبات مختص في أدب الأطفال بين موظفيه، وهو يستطيع بما يملكه من حس نقدي، أن يقرر إذا كانت لغة المخطوطات وأسلوبها من النوع الذي يُناسب الطفل.

إن المؤلفين الأجانب والكتّاب المحليين الذين يمكننا أن نحصل على كتبهم في المكتبات الأفريقية يعتمدون حتى الآن القاعدة المتعددة التخصصات، والعديد من البلدان المتطورة تتكفل فعلاً بصناعة الكتب الموجهة للأطفال بفضل المصالح المجانية للمكتبات، أما الوضع في البلدان النامية فهو متباين بوضوح، والتقدير في هذا الحقل أعطى ٤٠٪ في ماليزيا (وهو أعلى رقم) ٤٪ فقط في سري لانكا، و٠,٤٪ بالتقريب في غانا.

دور المكتبات العمومية

يرى المؤلف أنه لا الآباء، ولا المدارس باستطاعتهم حثّ الأطفال على القراءة، وأن الحل الوحيد لغرس حب المطالعة، يكون بواسطة المكتبات العمومية التي جعلت الوصول إلى

Le livre aujourd'hui en Afrique

S.I.A. Kotei

Les Presses de l'Unesco

الكتاب وأفريقيا اليوم

الكتاب أمرًا ميسورًا، والهدف من التمهيد الجماعي هو تقديم كمية كافية من الكتب التي تكون في الوقت نفسه ذات نوعية حسنة وجذابة، وبما أنها تخدم عملية تدعيم العمل المُنْجَز من طرف النظام التربوي، فإن المكتبات تُعنى بتخزين أعداد من الكتب المدرسية أكثر من عنايتها بجمع الكتب ذات الطبيعة المختلفة. وهنا أيضا تجدر الإشارة إلى أن المؤلفات الموجهة للكبار أكثر من الكتب المخصصة للأطفال، وهذه السياسة قد تم المحافظة عليها، حتى وإن كان عدد الأطفال الملتحقين بالمدارس موازنة بالكبار يمثل نسبة مقلوبة، والإحصاءات المتعلقة بالاستعارات في المكتبات، على الأقل في أفريقيا الناطقة بالإنجليزية، تؤكد في البلدان التي توجد بها مكتبات الأطفال، أن القراء الأطفال هم أكبر عددًا من الكبار.

في الوقت الذي تم فيه إعادة تنظيم المكتبات المدرسية كذلك تتم مناقشة إعادة تهيئة المكتبات العمومية. ويرى المؤلف أنه يجب على المسؤولين تخطيط شراء كتبهم بصفة تضمن توزيعًا أكثر اتزانًا بين كتب الكبار وكتب الأطفال، ويقتضي ذلك أن تشتمل الأجهزة الجديدة على جناح خاص للأطفال لا يوفر الكتب فقط، بل يشمل النشاطات المؤدية إلى تشجيع عادة المطالعة، مثل مطالعة النصوص المسرحية، واجتماعات نوادي الكتب، وحصص قراءة الروايات، كما يجب الاستعانة بصفة دائمة بالخدمات الوطنية والمحلية للراديو والتلفاز بهدف خلق جو ملائم للمطالعة، والتنظيم الدوري للملتقيات المكتبة لفائدة الأطفال، ويقتضي الأمر تشجيع نشاطات ترقية النشاطات المكملة المخصصة للأطفال أنفسهم، مثل تحرير ونشر وتطوير مجلاتهم الخاصة، أو إنشاء نواد للكتاب لمصلحتهم وذلك من أجل تسهيل اختيار النصوص الملائمة.

وعلى الجمعية الوطنية للمكتبات أن تطلب من الناشرين الأجانب أن يعطوها مسبقًا النسخ حتى يتسع لها الوقت لاختيار الكتب التي تتناسب مع المحيط الاجتماعي الثقافي للطفل.

عواقب النشر الاستعماري

يقول المؤلف إن البعثات التنصيرية ودور النشر الأجنبية الأخرى في أفريقيا البريطانية (سابقا) قد ساهمت في تطوير اللغات المحلية، ولكن ليس في كل الأمكنة، وهكذا فإن مكتب النشر المعروف باسم Le Northern Rhodesia والمؤَسَّس عام ١٩٤٨م بهدف تزويد المنطقتين المحتلتين اللتين تحملان اليوم اسم زامبيا ومالاوي، قد اختار في المقام الأول الكتب المدرسية المخصصة أساسا لدراسة اللغة الإنجليزية، وقد نظم مسابقات أدبية بالإنجليزية، وقام بترجمات إليها. ومن النتائج السلبية لهذه السياسة أن الطلبة مع مرور الوقت، وكلما تقدموا في دراستهم بدؤوا يحتقرون لغتهم، كما أن كتبهم الخاصة بالقراءة كانت مزينة بصور ورسومات أوروبية حتى وإن كان الموضوع المُعَالج يخص أمرًا أفريقيًا، وإذا وضعنا جانبا قضية إهمال اللغة المحلية، فإن النشر الاستعماري في هذه المناطق قد أعطى الطفل صورة مبالغًا فيها للمظاهر الأوروبية التي تضع إحساسه بكرامته وثقافته وعزة ماضيه التاريخي في الدرجة الثانية.

ففي أفريقيا تتم القراءة من أجل الوصول إلى شيء ما، وبعبارة أخرى ترتبط بقراءة وظيفية، وفي تحقيق أُجري بأوغندا يصرح ٦٩٪ من الأشخاص المُستَجْوَبين: «بأن التلقين هو السبب الأول للمطالعة»، وفي دراسة أخرى أجريت في غانا عن «عادة المطالعة في هذا البلد» طُلب من الأشخاص التعليق على الحكم بأن المطالعة لا تمنح أية مكافأة اجتماعية إلى الشخص المطالع، وكان ٧٤,٤٪ من المُسْتَجْوَبين مع الرأي المضاد، الذي يعني بأنهم ينتظرون بعض أشكال المكافأة من أجل المعارف التي حصلوا عليها من المطالعة، وكذلك فإن الكُتّاب والنقاد، والكتبيين، يفكرون جميعًا بأن أغلبية الأفريقيين يقرؤون على أساس هدف محدد، ولذلك فإن أغلبية الكتب المستوردة كانت من الكتب المدرسية، وهي تمتد من الابتدائي إلى التعليم العالي. ويمتاز الإنتاج الراهن بالاختلال، ولا سيما أن دور النشر الأجنبية تتحكم أكثر في تجارة الكتب المدرسية.

مؤلفات المنفعة

إن النظام التربوي (البيداغوجي) يدعم المطالعة النفعية، وهناك عدة تحقيقات تم القيام بها بطلب من الحكومات الوطنية أو جهات مستقلة، من أجل مراجعة البرامج في المدارس والجامعات. بهدف جعل التعليم والدراسات أكثر تطابقًا مع الوضعية الأفريقية. غير أنه في أحيان كثيرة كانت التوصيات لا تركِّز على العلوم الإنسانية (الآداب الكلاسيكية، الفلسفة اليونانية القديمة، التاريخ القديم والوسيط وغيرها) لكنها كانت تعطي الأولوية للعلوم التطبيقية والتقنية (التكنولوجيا).

وحسب التقديرات فإن حوالي ٩٠٪ من النشر الأفريقي يخصص لإنتاج مؤلفات المنفعة حيث لا تبقى إلا نسبة ١٠٪ للأدب العام والتكميلي، وهو ما يعني أن جزءًا غير متناسب من المصادر مخصص للكتب الموجهة إلى السكان ذوي العمر المدرسي (في حين أن هذه الشريحة لا تمثل إلا ٢٠٪ في معظم البلدان).

ماذا يقرأ الأفريقيون؟

لم يؤكد التحقيق الذي نُظِّم في غانا، بطلب من مجلس ترقية الكتاب، الفرضية التي تقول

بأن الناس لا يقرؤون خارج المدرسة أو خارج مهنتهم بسبب نقص الاهتمام، أو الحافز أو المكافأة الاجتماعية، فقد تبين على العكس بأن الأفريقيين يبحثون عن المطالعة المختلفة لإدخال التحديث في حياتهم، وبالتدقيق للحصول على معلومات خاصة، فمن بين ٥٨٦ - ٦١٠ شخصًا مستجوبًا صرّح ٩٦.١٪ إلى المحققين بأنهم يقرؤون الكتب والجرائد والمقالات المختلفة بهدف تطوير معلوماتهم، وتوسيع أفقهم الثقافي ومكافحة الملل، وهناك فقط ٣.٦٪ أكدوا أنهم توقفوا عن القراءة بعد تركهم المدرسة من جراء نقص الحافز.

وبشأن المطالعات المفضلة تشير دراسات أن القرّاء الصغار يحبذون الحصول على ما يناسب ذوقهم من أعمال المؤلفين الأفريقيين بعدما قرؤوا للبعض منهم في المدرسة، في حين أن الذين يزيد عمرهم عن ٥٤ سنة يفضلون أعمال المؤلفين الأجانب.

وهناك تحقيقات أخرى، وإن كانت ذات عمق محدود، أبرزت أن الأفريقيين يقرؤون فعلا الدراسات التاريخية، والمؤلفات الاجتماعية والقصص السياسية، والتقارير المُعدَّة على إثر تحقيقات حكومية، وكتب الطهي، وسير الأشخاص والجرائد والمجلات بشكل خاص. وهؤلاء القراء يبحثون عن توسيع أفقهم الفكري والثقافي، وعن المعرفة الجيدة للإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية المطبقة، ويبحثون كذلك عن معلومات تخصّ القضايا العالمية المعاصرة، والاختراعات الراهنة والاكتشافات الجديدة والتقدم العلمي المُحقَّق في دول أخرى، وأن عددًا كبيرًا من البالغين الذين يغادرون المدرسة يواصلون قراءة الكتب المدرسية دون أن يكون في نيتهم إجراء امتحانات ولكن فقط من أجل الحصول على معلومات.

وفي أفريقيا الغربية ظهرت سلسلات ذات اهتمام شعبي «كيف تحرر البريد التجاري»، «كيف تدير الاجتماعات» بالإضافة إلى الموضوعات ذات الاهتمام الدائم، وحظي الكاتب «غي مانقا» Guy Menga (أفريقيا الوسطى) بشعبية كبيرة من خلال كتابه «نقاش عقيم» الذي يعاد طبعه باستمرار.

وبالنسبة للقراء الفرونكفونيين (القارئين بالفرنسية) على العموم، فإن دور النشر مثل «مونت نوار» التي يوجد مقرها في زائير قد أنشأت سلسلة بعنوان «خدمة» تتركز موضوعاتها حول قضايا يومية مثل: (السوق، العمل الرعي، التجارة..) وإن المبيعات الأولى من هذه السلسلة كانت مهمة جدًا. وضمن مبدئها الداعي إلى الملاءمة مع الوقائع الاجتماعية المعاصرة، لم تعد هذه الدار تلح كثيرا على مؤلفاتها «تطوير الأخلاق» أو «كيف تفسر الإنجيل؟»، بل أصبحت تركز على موضوعات جديدة من نوع «كيف تربي الدجاج؟».

ويلاحظ خبراء ذوو تجربة بارزة أن الأدب الديني يشكل جانب المطالعة الأكثر شعبية بأفريقيا، وهناك مثال تقليدي يخص الطبعة الخاصة بالقرآن الكريم والصادرة عن المطبعة الوطنية الكينية، فهي تباع بكميات كبيرة بكوناكري، ودكار وأبيدجان، وفي مدن إسلامية أخرى. وقد تمت ملاحظة أذواق مماثلة في أفريقيا الشمالية حيث إن «الكتب الرائجة هي المؤلفات الأدبية الدينية أو التي تعالج التراث الإسلامي»، ولوحظ أن الناشرين «يهملون أصنافًا أخرى من المؤلفات».

Le livre aujourd'hui en Afrique

S.I.A. Kotei

Les Presses de l'Unesco

الكتاب وأفريقيا اليوم

شراهة الأميين الجدد

يربط المؤلف الإقبال الكبير على الجرائد والمجلات في أفريقيا بسعرها الزهيد والأهمية التي تثيرها لدى القراء، ويقول أيضا: إن الكثير من الباحثين صرحوا بأن طريقة المطالعة في شكل مسلسلات ذات شعبية كبيرة، حتى بين الأميين الجدد. ففي الفترة ما بين ١٩٧٠م و ١٩٧٣م تم في زامبيا القيام بعملية لرصد الآراء حول استفحال وسائل الإعلام وبالتحديد (الجرائد والدوريات) وذلك بطلب من إدارتي التلفاز والراديو، وتقول النتائج بأن هناك «جمهور قراء شره» لدى الأميين الجدد.

وتقول ملاحظة حول المطالعة سَجّلها مكتب بجامعة نيجيريا بأنه حتى الأشخاص المتعلمون يفضلون الحلقات. ويعلن أن «الطلبة أنفسهم يجدون الوقت لقراءة المجلات، ولكن ليست المجلات الأدبية التي ترفع الحس الجمالي، ولكن الفكاهية التي تدغدغ الشهوات الإحساسية الكامنة في ذاتهم».

ويرى المؤلف في الختام بأن أسباب هذه الظاهرة مَردُّها: أولا: إلى أن المواد الأساسية سهلة وقصيرة ولا تتطلب الوقت الكبير أو المجهود الفكري لفهمها. ثم إنها تعالج أحداثًا راهنة، ولها اتصال مباشر بواقعهم، على نقيض الكتاب، وأخيرًا هي تركز على الزاد المحلي الذي يهم معظم الأشخاص وله في القراء تأثير فكري ونفسي قوي جدًا.. وعندما نضيف إلى كل هذا، قضية توافرها نفهم مدى شعبيتها.



الضحك حتى الموت
أو: من رسائل مثقف سعودي (٣)

يوسف الشاروني

«هذه هي الحلقة الثالثة والأخيرة في سلسلة رسائل مثقف سعودي هو المرحوم الأستاذ سعيد سليمان كردي يعبّر فيها عن تلك الصداقة الأدبية الحميمة بينه وبين الأديب المصري الأستاذ يوسف الشاروني، والتي ارتفعت لتعبّر عن علاقة وثيقة بين بلدين شقيقين. وكان الشاروني قد سبق أن أشار إلى تلك الرسائل في كلمة موجزة نشرها عقب وفاة هذا الصديق منذ عشر سنوات. لكننا رأينا أن نفسح له على صفحات «الفيصل» مزيداً من عرض مقتطفات من رسائله التي كانت فنه الأدبي الأثير».

«أنقل حبي لك من عام لعام،
أنقل صورتك، وصوتك، ورسائلك، ورقم هاتفك وعنوان بيتك،
أعلقها في بهو العام الجديد،
وأمنحك تأشيرة إقامة دائمة في قلبي،
لن أتركك وحدك على ورقة ٣١ ديسمبر.

تسلمت من صندوق البريد بطاقتك الجميلة، على جانبها فيض من شعورك، وعلى جانبها الآخر صورة رائعة لمسجد الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما.

أيقظتَ ذكريات كانت نائمة، ورددت ماضياً أعادني لأيام مشرقة، وليال مضيئة. حَرَّكَتْ أحاسيس غافية، أزاحت ما كان عليها من ستار مرهف، غمرني النور فاستيقظت، شكراً لما نبَّهت وحرَّكت.

لي في المشهد الحسيني ذكريات وذكريات: جلسات في مقهى الفيشاوي، ومطعم الدهَّان، والحَلُوَجي، وفندق رضوان، وتجوالي حول الباب الأخضر لرؤية قائد جيوش السماء السابعة، كان يتخذ من أحد مقاهي الباب المتواضعة مقراً لقيادته، ورسم خطط المعارك التي سيقوم بها ضد الباطل والضلال، ومن حوله شيعته في مستواه العقلي أو يزيدون. كان يتقدم - دائما - موكبه وصدره الأيسر ممتلئ بأوسمة نحاسية ونياشين من صفيح ملون.

رائحة الفاسوخ، واللبان والجاوي، وعطر العود، وعطر الورد، تسد خياشيمي وتعلق بثيابي. تمصمص شفتاي حلوى المولد.

أحتفظ بكتب حرز الجوشن، وسورة يس، والإسراء والمعراج، ودعاء نصف شعبان. كل هذا جمعته من مكتبة عبد الحميد مراد في شارع الصنادقية بالمشهد الحسيني. شارع طوته معالم التنظيم وحل مكانه قصر على الطراز الإسلامي.

يرن بأذني صوت ذلك الضرير المدمدم، أشبه ما يكون ببرميل طرشي يتدحرج من منحدر، يحمل مجموعة كتب، يهتز في مشيته كأنه يكاد يقع في كل خطوة، ينادي بصوت صارخ: عندي الأدب.. دُرَر الأدب.. جواهر الأدب.. بين يديَّ وفي قبضتي الفارابي وابن رشد والمتنبي والبحتري.. أين المشتري؟ وفعلا كنت أنا ممن اشتروا كتاب جواهر الأدب. انتقل الضرير إلى رحمة الله، وبقي منتظراً ماسح الأحذية، العقيد الأسطى مصطفى، لم يترك هذه المهنة، لا يزال يمارسها لرواد المقهى وما جاوره.

كان هذا قبل سنوات طحنها الزمن، أما اليوم

فلا قدرة لي على السهر الطويل والتجوال واقتحام ليالي المولد لأكون في الصف الأول قريبا من الزامرين والمهللين.

يحتفظ مقهى الفيشاوي بسجل يكتب فيه الزوار الأجانب انطباعاتهم، سجلت فيه ما يلي: كلما جئت المقهى أشعر بأني في عصر المماليك، أو في زمن الحاكم بأمر الله، وقليلا ما أعيش في عهد قراقوش.

يعجبني في المقهى الشاي الأخضر، وآخذ أنفاسا متلاحقة من الشيشة الزجاجية المتوجة بالتبغ على الطريقة العجمية، وبين آونة وأخرى يمر بي نادل المقهى فيصلح ما فسد ويزيدها ولعة متقدة فيتصاعد الدخان كثيفا، وكركرة الشيشة وصوت بائع الكبدة والمخ يصل سمعي.

لا أدخن كمحترف أو صاحب مزاج معتاد، حتى السيجارة لا تلامس أصابعي إلا نادرًا، لكن كل ذلك كان استكمالا لديكور الجلسة المملوءة بالعجائب في ذلك الحي.

لا يزال بريق المقهى يجذبني كلما جئت القاهرة ووجدت متسعًا من وقت، وإن فقد المقهى في حاضره أصالته القديمة، ولم أعد أرى فيه زبائنه وروداه القدامى.

هوايتي التجول في الأحياء القديمة لرؤية ما فيها من فن معماري خالد وذكريات تاريخية. أعرف بيت السلطان الغوري، وبيت القاضي، وزقاق شق الثعبان، وحارة السكر والليمون، وخارطة أبو السعود، وبوابة المتولي، وكل المساجد القديمة، ومسجد عمرو بن العاص، وكنيسة ماري جرجس وما حولها، وشارع الشيخ العبيط سابقا.

تسألني عن صحتي، إنها في هدوء ما يسبق العاصفة، في حالة خمود لبركان نتوقع ثورته بين لحظة وأخرى. إن أصبحت منتعشا، أمسيت مرتعشا. السكر هبط، لو كان السكر رجلا لقتلته. من قال لي يا سكر زعلت منه. أحب المرح والبسمة الواسعة والنكتة الساخنة الحارة، المعقول منها واللامعقول. هذا الأسلوب وهذه النظرة تخفف عني ثقل المعاناة وتدهور صحتي. وأحب بعد ذلك من استمع لحديثي القصير، وقرأ رسائلي الممتدة كخطوط التليفون».

ثم حدث أن نزلتُ ضيفًا على سلطنة عمان وكنتُ قد تباطأتُ في الكتابة إليه لانشغالي بأمور السفر فأرسل لي يقول: «في الأسفار خمس فوائد: تفريج هم، واكتساب معيشة، وعلم، وآداب، ونسيان صديق. مَنْ وجد أصحابه العمانيين، نسى أحبابه السعوديين، الصبر جميل».

وعندما فاز الأديب السعودي الكبير الأستاذ أحمد السباعي - يرحمه الله - بجائزة الدولة التقديرية أرسلتُ إليه أطلب منه موافاتي بالمجموعة القصصية الوحيدة لأحمد السباعي «خالتي كدرجان». فأرسل لي مجموعة كبيرة متنوعة من المؤلفات القصصية السعودية، ورد عليّ قائلا:

«هل تصدق أن طلبك البسيط حركني وأورثني نشاطًا كنت مشتاقا إليه. متقوقع كسلحفاة عجوز، حركتي: الخروج من غرفة والدخول لغرفة، الهبوط لمكتبتي الصغيرة بالدور الأول، والصعود ثانية لتناول ما صنعته ست البيت من غذاء شهي، أو رؤية حلوى يسيل لها اللعاب لا إذن لي بتذوقها.

ثلاثة أرباع وقتي قراءة، إذا هرب النوم من عيني - وكثيرًا ما يهرب - أو انتابني القلق، ودائما ينتابني. وتضغط على مخي أفكار ملونة منها البيضاء والسوداء وما بينهما. أفتح الكتاب لأقرأ، لا دعوةً للنوم بل طردًا له. سيدة البيت تقول لي:

- لو كنتَ متزوجًا ثلاثا غيري لهان الأمر ورضيتُ بحكم الله، وعلى طول المدى لا تفقنا عليك، وأرهقنا صحتك وأعصابك، ومزقنا جيبك من كثرة الطلبات.

- كنت سأدعو الله أن يسلط عليهن شهريار جديدًا.

- ستأتي شهرزاد أخرى تفك رقابنا.

وواصلت ست البيت دردشتها:

- ما العمل في هذه الكتب المرصوصة في صفوف لا يقل مجموعها عن ألفي كتاب أو يزيد، منها الكبير الضخم والصغير المراهق. أرى في كل كتاب ضَرَّة تأخذك مني، وتنفرد بك.

وهات يا لمس يا همس.

«عيناك في عينيها
في شفتيها
في كفيها
في قدميها
ويداك ضارعتان
ترتعشان من لهف عليها»
«ويشب في قلبي حريق
ويضيع من قدمي الطريق
شك! ضباب! حطام!
بعضي يمزق بعضي»

تصرخ على الأولاد إن عبثوا بأحد الكتب أو لم يعيدوه إلى موضعه.

- بحق أم هاشم والأولياء والصالحين والصالحات أن يصد نفسك قليلا عن خلوة الكتب فهي شغلك

- فال الله ولا فالك، حوالينا ولا علينا... احمدي ربك أن سَخَّر لكِ زوجا كالفالوذج.

ابْتَسَمَتْ

«وناظرتني... وألقت
برأسها فوق كتفي
تباعدت وتدانت
كأصبعين بكفي»
وقامت من مجلسها بصعوبة
«ودنت لتسألني على حدة
عما أريد... فقلتُها: أنت».

حوار معاد، وأسطوانة يتكرر سماعها، وشريط يلف ويلف».

ثم يختتم رسالته بتبرمه من أن قلمه ينساب عند كتابة الرسائل ويتوقف عند كتابة القصة:

«لمن أشكو؟
لمن أحكي؟
لمن أقول: أنا مظلوم؟

من هذا القلم اللعين، يتمطى في الرسائل

الضحك حتى الموت

أو من رسائل مثقف سعودي (٣)

الخاصة، ينكمش حتى كأني به يتلاشى ويذوب فلا يمدني بمشروع أقصوصة. أسمعه يقول: ذلك يحتاج لهندسة وتخطيط، فلا ينفع في البناء الطوب النيء ولا طمي النيل. أطأطئ رأسي في صمت وأقول في سري:

ـ مقادير، إيش ذنبي أنا؟ هكذا خُلقتُ.

ثم أخاطب قلمي:

ـ لم أرَ منك يومًا ضوءا أحمر أو علامة توقف أو إشارة انتظار. منطلق، الأنوار كلها خضراء أمامك في الطرق والمنعطفات، والبترول في بلادي رخيص».

فلما وصله خطابي بالشكر على ما أرسله من مؤلفات الإخوة الأدباء السعوديين جاءني رده:

«قلتَ في رسالتك إنك لم تطلب سوى خالتي كدرجان فبعثتُ لك بأبنائها وأحفادها وإخوتها وأخواتها.

خالتي كدرجان أمست عجوزًا وَهَن العظم منها، واشتعل الرأس شيبًا، تساقطت أسنانها، تلعثمت وتفأفأت في حديثها. ارتعشت أطرافها، تفككت مفاصلها. كان لزامًا أن يرافقها بعض أحفادها لمساعدتها في تحركها، شارحين حديثها، ذاكرين حياتها. ابن أختها السباعي ٩١ سنة، عرفها في طفولته شابة على أعتاب الزواج، فلا بد أن تكون من عمرها المديد الآن تزداد خريفا وتكثر تخريفًا. بأسلوب الحريري وبديع الزمان:

عجوز دردبيس، تأكل الهريس، تؤنس الجليس، تتحدث عن حرب البسوس، تشرب العرقسوس. ابن أختها السباعي، لقولها واعٍ، لأمورها راعٍ. بعثتُ معها مرافقين، خوف أن تكون من التائهين.

لاتعرف شوارع عُمان، ولا قصر السلطان. لتذهب إليه، وتشكو بين يديه، ما فعل بها الزمان، فأحوجها لترجمان، وبيديها عكازان.

تقول بصريح العبارة: فوجئتُ بالشرائط ولم يكن هذا من المتفق عليه. وهل الهدايا مما يُتفق عليها؟ سرَّني أن أعجبك الشريط الذي يحمل صوت المغنية ابتسام لطفي. فكلامها بالفصحى، لذا تمكنْتَ من تتبعها والاستماع إلى طبقات صوتها، وهو يعلو حينا وينخفض حينا مرددًا:

ـ تعالَ من نهر الحب نشرب.

كأنما الصوت ينخفض بدوره على نهر الحب ليشرب منه هو أيضا!

ابتسام أخذ الله بصرها، ومنحها جمال الصوت وحُسْن الأداء. سعودية بالتبعية والولاء، والولادة وطول البقاء، لا بالأرومة والأصالة... لا يبعد أن تكون تركية من سلالة العثمانيين، أو مغربية هاجر أجدادها، أو مصرية ـ وهو ما أميل إليه ـ من شارع محمد علي، استضفنا إحدى جداتها لإحياء حفلة عرس غنت فيها وقالت:

ـ مبروك عليك يا معجباني يا غالي، عروستك الحلوة أمَر (قمر) يلا لي.

لا شك أعجبتها الإقامة فاستدعت زوجها وبقية الأسرة، وَخَلَّفا صبيانا وبنات. أيامها لا رُخَص إقامة ولا جوازات سفر، لا شرطي يتعقب ولا شيخ حارة يقتفي الأثر. البلاد مفتوحة الذراعين عندنا وعندكم. أهلا وسهلا.

لابتسام أخ يمارس الغناء، يجيد غناء قصيدة مطلعها:

هل بالطلول لسائل ردُّ

أم هل لها بتكلم عهدُ».

وجاءتني آخر رسائله، تحية حزينة من حزين.

«اتصلت بي أسرتي هاتفيا بالمستشفى، وأخبرتني بسؤالك عني.. دمعت عيني تأثرا لصديق يتتبع أخباري، انشغل باله لتأخري عن محادثته، فسارع للاستفسار عن حالتي.

«كل أحبائي القدامى نَسُوني

لا فؤاد يجيب لا عفراء.

وأنا الحزن من زمان صديقي،

وقليل في عصرنا الأصدقاء.

فجراح الحُسَيْن بعض جراحي

وبصدري من الأسى كربلاء».

«أنا عمر بلا شباب،

وحياة بلا ربيع.

أشتري الحب بالعذاب،

فمن يبيع؟»

في المستشفى، وعلى السرير الأبيض، والممرضات يُحطْنَ بي...

«تعاودني ذكراك كل عشية،

ويُورق تفكيري حين فيك أفكر.

وتأبى جراحي أن تضم شفاهها،

كأن جراح الحب لا تتخثر.

أودك، لا تفسير عندي لصبوتي،

أفسر ماذا؟ والود لا يُفسر»

لا تؤاخذني في خربشتي:

«طفل يخربش فوق حيطان النجوم،

فَرِح أنا، ورسائلي فَرِحَت معي،

هل للرسائل يا ترى أعصابُ؟»

من المستشفى، من فوق سريري، أبعث برسالتي. مريضة الأسلوب، هزيلة القوام، مهتزة الحروف، إلا أنها صادقة إحساسا، مُتْرَعَة إخلاصًا، ممتلئة وُدًا».

وخرج من المستشفى وعاد إليه... ليخرج منه، لكن... إلى غير دنيانا.

إن أصدقاءنا جزء من وجودنا، وبِصَمْتِهِم ندرك أن جزءًا منا قد كفّ عن الوجود، وإن ظلت أصداؤهم تتشبث بنا ونتشبث بها.

إن أصداء ضحكات سعيد سليمان كردي تتجاوب في الفراغ الذي خَلَّفَهُ رحيله فتطغى على آلام فراقه.

وليعذرني كل من يعتبرني أتحدث عن قضية شخصية جداً؛ لأن هذه الخصوصية الشديدة هي بعينها منفذها إلى عموميتها وإنسانيتها.

دائرة المعارف

أشهر المكتبات في الإسلام قديمًا وحديثًا

إعداد د. محمد علي الجندي

(خ)

خزانة الحكمة (بيت الحكمة):

من أعظم خزائن الكتب في الإسلام، وقد رجح المؤرخون أن أول من أسس هذه الخزانة الجامعة لمختلف المؤلفات هو الخليفة هارون الرشيد (خلافته: ١٧٠ - ١٩٣هـ/٧٨٦ - ٨٠٩م). ولهذه الخزانة ذكر متعدد في كثير من المراجع العربية، قديمها وحديثها، وقد عرفت في بعضها باسم «بيت الحكمة»، وفي بعضها الآخر باسم «دار الحكمة». فالخزانة والبيت والدار يُراد بها هاهنا المحل أو المباءة التي تجمع فيها الكتب وتنضد بنظام معلوم ليطالع فيها ويستفاد من علومها.

بلغت هذه الخزانة أوج عزها وازدهارها في خلافة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ/٨١٣ - ٨٣٣م)، فقد أمدّها بالمؤلفات الكثيرة والدواوين الضخمة حتى صارت هذه المكتبة من أكبر خزائن الكتب في العصر العباسي، حيث حفلت بتراث الأمم السابقة - من يونان وهنود وفرس، وغيرهم من الأمم - في لغته الأصلية أو بعد نقله إلى العربية.

وظلت هذه الخزانة قائمة يستفيد منها الرواد والعلماء وطلاب العلم إلى أن استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦هـ، فتعرضت مقتنياتها للضياع والتلف.

خزانة سابور:

أنشأ هذه الخزانة سابور بن أردشير (٣٨٣/٤١٦هـ) بالكرخ وسماها «دار العلم»، وزودها بكتب كثيرة زادت على عشرة آلاف كتاب في مختلف العلوم، وكانت هذه المكتبة مركزاً ثقافياً مهماً يلتقي فيه العلماء والباحثون للقراءة والمطالعة والمناظرة، وكان أبو العلاء المعري يكثر التردد إليها عندما كان في بغداد.

الخزانة العامة للكتب والوثائق المغربية:

تأسست في مدينة الرباط بالمغرب عام ١٩٢٢م، ثم أصبحت منذ عام ١٩٢٦م مكتبة وطنية مع بقائها محتفظة باسمها القديم «الخزانة العامة»، وتحملها واجبات المكتبة الوطنية.

تتبع المكتبة وزارة الشؤون الثقافية، وتقوم بمهمات المحافظة على التراث المغربي المطبوع والمخطوط وفهرسته وتصنيفه، وإعطاء المعلومات حوله مشافهة ومراسلة. وقد أفرد للمخطوطات التي تقتنيها المكتبة بناء خاص يعرف بقسم الوثائق، وفيه رصيد خاص من مصورات المخطوطات التي تحصل عليها المكتبة عن طريق تصوير المخطوطات الموجودة في المكتبات الخاصة، كما تعتمد في التزود على الشراء أولاً ثم التبادل الذي استطاع أن يمدّها بمجموعات كبيرة من الكتب، كما تعتمد المكتبة بشكل خاص أيضاً على الإيداع القانوني، إذ صدر قانون الإيداع المغربي عام ١٩٣٢م.

تقدم المكتبة لروادها وللقراء بعامة مجموعة جيدة من الخدمات، منها الإعارة

الداخلية والخارجية والدولية وخدمات التصوير والميكروفيلم، وتنشر البيبليوجرافيا الوطنية المغربية.

تحوي المكتبة ٦٣٠٫٠٠٠ مجلد مطبوع في مختلف اللغات والعلوم، كما تحوي ٣٦٫٠٠٠ مجلد مخطوط، و ٢٠٠٠ كتاب نادر، فضلاً عن ٣٣٥١ ميكروفيلماً لمخطوطات نادرة متنوعة.

الخزانة العلمية الصبيحية بسلا (المغرب):

تُنسب إلى الحاج محمد بن الحاج الطيب الصبيحي، خصصها لتكون وقفاً على العلماء وطلبة العلم وعامة القراء في شهر ربيع الأول من عام ١٣٧٨ من الهجرة، وكانت تشتمل على أربعة آلاف كتاب مخطوط ومطبوع، وعين ابنه المهندس عبدالله الصبيحي ناظراً لها كما وقف عليها مبلغاً من المال ليصرف على مصالحها.

وواصل ابنه الناظر المسيرة فوقف على هذه المكتبة بناية جديدة في شعبان من عام ١٣٩٦هـ، تتكون من طابقين وتقع في ساحة الشهداء بمدينة سلا بالمغرب، لتكون مقراً للكتب التي أوقفها والده، وقد جهزت المكتبة تجهيزاً عصريا.

وتمتاز هذه الخزانة باحتوائها على أهم المطبوعات العربية الإسلامية القديمة والحديثة، ماطبع منها في البلاد العربية والهندية والإيرانية والأوروبية، وعدد وافر من المخطوطات الأصلية المتنوعة التي يرجع تاريخ انتساخها إلى القرون الخمسة الأخيرة، كما تمتاز بالتنوع الشامل لكل العلوم التي عرفها المسلمون.

وقد وضع محمد حجي فهرسا لمخطوطات هذه المكتبة يتضمن تعريفاً بـ ١٣٣٧ مخطوطاً نشره معهد المخطوطات العربية بالكويت، جاء في ٧٢٢ صفحة.

خزانة الكتب في حلب:

تذكر المصادر أن التاريخ التقريبي للفترة التي وجدت فيها هذه المكتبة هو أوائل القرن الخامس الهجري، أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، الذي اشتهر بحب العلم ووقف الكتب. وقد حوت هذه المكتبة العديد من الكتب في مختلف صنوف المعرفة، وإن غلب عليها كثرة المؤلفات الموجهة ضد الشيعة الإسماعيلية. ويرجح المؤرخون أن إحراق هذه الخزانة ـ وكان فيها نحو عشرة آلاف مجلد ـ كان بسبب المؤلفات التي تكشف عوار الإسماعيلية.

خزانة المالكية في مكة المكرمة:

لاتذكر المصادر معلومات عن مؤسسها، ولكنها فيما يبدو كانت تزود بين فترة وأخرى بكتب يوقفها علماء وأشخاص من المالكية، ففي عام ٥٨٨هـ وقف محمد بن عبدالله بن الفتوح بن محمد المكناسي إمام المالكية بالحرم الشريف نسخة من المقرب لابن زمنين المالكي في ستة مجلدات على المالكية والشافعية والحنفية ، وجعل مقره خزانة المالكية بمكة.

ويُرجح أن المكتبة لم تكن داخل الحرم المكي، إذ إنها لو كانت كذلك لَنُصّ عليه صراحة، بل كانت مستقلة في مكان خاص بها في مكة المكرمة.

خزانة المدرسة النظامية ببغداد:

أُلحقت هذه الخزانة بالمدرسة النظامية، وهي من أشهر مدارس بغداد وأقدمها عهداً وأجلها شأناً. أنشأها الوزير نظام الملك المتوفى في ٤٨٥هـ/١٠٩٢م.

تنوعت مصادر الكتب في هذه الخزانة، فقد حفلت بأصناف المؤلفات التي كانت تتوارد إليها بالشراء والإهداء والوقف. ولذلك فقد حوت الخزانة كل طريف ونفيس من أمهات الكتب وأعلاق المخطوطات، ولكن من المؤسف أن هذه الخزانة الحافلة التي ازدانت بها المدرسة النظامية تشتت شملها وتبعثرت كتبها بتوالي الأحداث عليها. فلسنا نجد اليوم في خزائن الكتب المفهرسة شيئاً من بقايا كتب هذه الخزانة المندثرة.

خزانة المستنصر بالله:

أُنشئت في عصر الخليفة المستنصر بالله، وهو السابع والعشرون من الخلفاء العباسيين (خلافته : ٦٢٣ - ٦٤٠هـ/١٢٢٦ - ١٢٤٢م).

أُلحقت هذه الخزانة "بالمدرسة المستنصرية" التي أنشأها الخليفة، والتي ردد ذكرها المؤرخون والكتّاب وأطنب في وصفها الشعراء.

خزانة مسجد الزيدي بغداد:

أنشأها أبو الحسن علي بن أحمد الزيدي (ـ ٥٧٥هـ) وزودها بالكتب الكثيرة، كما أسهم غيره في تزويدها.

خزانة الهمذاني (في همذان):

تنتسب هذه الخزانة إلى الحافظ المحدث قطب الدين أبي العلاء الحسن بن أحمد بن الحسن الهمذاني العطار أحد أعيان عصره علماً وزهداً، المتوفى سنة ٥٦٩هـ. وقد أنشأ هذه الخزانة وأوقف جميع كتبه فيها.

والمرجح أن هذه الخزانة لم تكن في بناية مستقلة، ولكنها كانت ضمن منزل العطار، ويسّر لطلاّب العلم والقراء الدخول إليها والمطالعة فيها واستخدامها بعد أن أوقفها عليهم.

خزانة المنصور:

أنشأها أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس. تولى الخلافة نيفاً وعشرين سنة (١٣٦ ـ ١٥٨هـ/٧٥٤ ـ ٧٧٥م). وكانت له خزانة كتب فيما يؤخذ مما أورده الخطيب البغدادي في ترجمة محمد بن إسحاق صاحب السيرة، المتوفى في أواسط المائة الثانية للهجرة، وذكر ابن أبي أصيبعة في ترجمة الطبيب جورجيس بن بختيشوع، المتوفى نحو سنة ١٥٢هـ/٧٦٩م، أنه نقل للمنصور كتباً كثيرة من كتب اليونان إلى العربية.

وأشار إلى أن البطريق كان أحد التراجمة في أيام المنصور، فقد أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة ، وله نقل كثير جيد، إلا أنه دون نقل حنين بن إسحق.

ولاشك في أن النُسخ الأم لهذه الكتب المنقولة، كانت تحفظ في خزانة المنصور.

(د)

دار الكتب الآصفية (في حيدر آباد):

وهي من أجمع دور الكتب في العالم لنفائس المخطوطات، وفهرسها المطبوع يؤكد ذلك، وتحوي المكتبة أمهات الكتب الإسلامية التي نشرتها دائرة المعارف العثمانية، منذ مايقرب من خمس وسبعين سنة.

دار الحكمة في القاهرة:

افتتحت في عام ٣٩٥هـ، وكان مؤسسها هو الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي، الذي أبدى اهتماماً كبيرا بأمرها، وحَرَصَ على توفير موارد مالية كافية تعين على استمرارها في تقديم خدماتها للمستفيدين منها، وذلك بإيقاف دور وحوانيت بُنيت ليستغل ريعها في الصرف على هذه المكتبة.

وقد اشتملت المكتبة على ستمائة ألف كتاب، وأعطت ثماراً جناها أهل العلم من مختلف الطبقات ، ولم يستغن عن استخدامها العلماء والطلاب، وأفراد المجتمع كافة لغناها ووفرة ماكانت تضمه من كتب.

دار العلم (في الموصل):

أنشأ هذه المكتبة الفقيه الشافعي أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي.

لم تحدد المصادر تاريخ إنشاء المكتبة، ولكن من المحتمل أن ذلك كان في فترة تمتد مابين أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع الهجري. أما محتوياتها من الكتب فكانت تضم معارف شتى نظراً لتنوع اهتمامات ابن حمدان نفسه، والذي كان ـ كما تشير المصادر ـ مهتماً بالفقه والشعر والأدب والتاريخ.

ولايُعرف مصير هذه المكتبة بعد أن نُكبَ صاحبها بوشاية جماعة من أهل الموصل ففر إلى بغداد، وبعد هذا الحادث انقطعت أخبار هذه الدار التي خدمت الموصل ويسرت لأهلها سبل العلم والأدب.

دار العلم (خزانة العبيديين):

ألحقها الحاكم العبيدي صاحب مصر بدار الحكمة، التي أنشأها على غرار جامعات بغداد وقرطبة، وقد جمع في دار العلم كتباً كثيرة، وأقام فيها المسؤولين وخصص لهم الجرايات، وجعل في المكتبة مايحتاج إليه المطالعون والنُسَّاخ من الحبر والمحابر والأقلام والورق. وقد كانت هذه الدار من أعظم الخزائن التي عرفها العالم

الإسلامي فيما مضى، وأكثرها جمعاً للكتب النفيسة من جميع العلوم، وبقيت على ذلك إلى أن انقرضت دولة الفاطميين بموت العاضد (٥٦٧هـ) آخر خلفائهم.

دار الكتب الظاهرية (في دمشق):

سميت هذه المكتبة بالظاهرية نسبة إلى المدرسة التي أقيمت فيها المكتبة، وهي مدرسة أنشأها الملك الظاهر بيبرس المتوفى عام ٦٧٦هـ، وكانت دمشق حافلة بخزائن الكتب القديمة قبل أن تصيبها نكبة الطاغية تيمورلنك سنة ٨٠٣هـ، الذي أحرق الدُور والمساجد، بل ترك دمشق تحترق ثلاثة أيام بلياليها، حتى صارت أطلالاً بعد ازدهار وجمال، وقد أقام هذا الطاغية بجيشه في دمشق ثمانين يوماً.

بعد تلك النكبة جُمِعَ بعض ماتبقى من الكتب في العديد من خزائن دمشق في هذه المدرسة، ووضعت إلى جانب مابقي من محفوظاتها القديمة، ثم رُفِدت هذه المكتبة بمجموعات مهمة من المخطوطات، عندما أمر الوالي مدحت باشا، باقتراح وتشجيع من الشيخ طاهر الجزائري مدير المعارف في ولاية سورية آنذاك، بجمع الكتب والمخطوطات الموجودة في مساجد دمشق ومدارسها ووضعها في المكتبة الظاهرية. وإليه يعود الفضل في جمعها وصيانتها وحفظها ورعايتها.

وتعد مخطوطات دار الكتب الظاهرية من أكبر وأهم مخطوطات دور الكتب في العالم، ففيها مخطوطات نادرة قيمة يبلغ عدد مجلداتها ١١٤٢٥ مجلداً تضم مابين خمسين إلى ستين ألف كتاب، وقد وضعت لهذه المخطوطات فهارس مطبوعة، كما حققت أعداد منها وطبعت.

ألحقت المكتبة بديوان وزارة المعارف السورية عام ١٩١٩م، وحملت منذ ذلك التاريخ أسماء مختلفة مثل المكتبة العمومية، ثم دار الكتب العربية، ثم المكتبة الأهلية الظاهرية، ومنذ عام ١٩٤٧ عُرفت بدار الكتب الظاهرية، إلى أن تحول اسمها إلى مكتبة الأسد.

دار الكتب المصرية:

تُعَدُّ من أكبر المكتبات في عصرنا الحاضر، أنشئت سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م، وأُهديت إلى المكتبة عدة خزائن ضخمة لأكابر العلماء كالخزانة التيمورية. ولاتزال هذه المكتبة في تقدم وازدهار حتى صار مجموع مافيها أكثر من مليون مجلد، وقد أُلحق بها مطبعة تطبع أمهات الكتب، وكان لها الفضل الكبير في نشر عدد منها، وفي المكتبة متحف كبير ضمّ بعض نفائس المخطوطات العربية، إلى جانب قسم المخطوطات الذي يضم آلاف المجلدات العلمية.

دار الكتب الوطنية بتونس:

تأسست هذه المكتبة عام ١٩٠٦م تحت اسم المكتبة الفرنسية، ثم سميت فيما بعد بالمكتبة الشعبية، واستمرت تحمل اسمها الثاني حتى عام ١٩٥٦م حيث أطلق عليها «دار الكتب الوطنية»، وهو اسم مازالت تعرف به إلى اليوم.

تقوم هذه المكتبة بجمع وحفظ المطبوعات الوطنية التونسية، كما تقوم بوظيفة مكتبة الإيداع وتصدر الببليوجرافيا الوطنية.

تتبع المكتبة وظيفياً وزارة الشؤون الثقافية، وتقتني المكتبة مجموعة مهمة من الكتب باللغات العربية والأجنبية تقدر بأكثر من ٧٠٠,٠٠٠ مجلد.

(م)

مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة:

لاتزال هذه المكتبة باقية حتى اليوم تؤدي رسالتها، ويقصدها الباحثون وطلاب المعرفة من كل مكان رغبة في الاستفادة من مخطوطاتها النفيسة، وهي تتبع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية. وقد أوقفها شيخ الإسلام أحمد عارف حكمت الحسيني (ت ١٢٧٥هـ) في عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٢م بالمدينة المنورة، وكان من أعلام القرن الثالث عشر، تولى مناصب كثيرة في الدولة العثمانية، منها قضاء مصر وقضاء المدينة المنورة ونقابة الأشراف ثم مشيخة الإسلام في عام ١٢٦٢هـ.

وقد شيد عارف حكمت بناية خاصة لهذه المكتبة، وأوقف عليها كثيراً من البيوت والدكاكين والخانات والبساتين وغيرها لصيانتها والصرف على موظفيها.

وتشير الفهارس الحالية لهذه المكتبة إلى أنها تحوي زهاء خمسة آلاف مخطوط تنقص قليلاً أو تزيد.

ردود خاصة

الأخ معن العمر ـ حلب ـ سورية:
استفسارك الخاص بإمكان الحصول على نسخة مصورة ورقية أو ميكروفلمية من مخطوطات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية يمكن أن يرد عليه قسم المخطوطات بالمركز، وقد أحيل الاستفسار إليه للبت فيه.

الأخ عيسى سلامي ـ الجزائر:
يمكنك الكتابة إلى الملحق التعليمي أو الثقافي في السفارة السعودية في الجزائر للحصول على المعلومات التي تريدها بشأن رغبتكم في مواصلة دراستكم بإحدى الجامعات السعودية.

الأخ خالد قسول الشلف ـ الجزائر:
تستطيع الملحقية الثقافية أو التعليمية بالسفارة السعودية في الجزائر أن تمدكم بالمعلومات التي طلبتها، أما بشأن إدراج اسمكم في ركن «التعارف»، نفيدكم أن مجلة «الفيصل» ليس فيها ركن للتعارف. ونرحب بك صديقًا للمجلة.

الأخ ماهر عجان ـ جامعة حلب ـ سورية:
شكرًا على اطرائك، ونأمل أن تكون المجلة عند حسن ظن القراء بها دومًا. وقد أحيلت طلباتك واستفساراتك إلى قسم الاشتراكات للرد عليها.

الأخ العيد كمال ـ الجلفة ـ الجزائر
سوف نرسل لك أعداد «الفيصل» التي نشر فيها معلومات عن الصقور وتربيتها، وأُحيل خطابك إلى قسم الاشتراكات للرد عليه. ويمكنك الحصول على العنوان الذي تستفسر عنه بالاتصال بالهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها في الرياض، فقد تستطيع أن تمدك بمعلومات أوفى عن الجهات التي تستفسر عنها.

الأخ النحلي توفيق ـ مراكش ـ المغرب:
قسم الاشتراكات سيبعث إليك عدد المجلة الذي طلبته، وأعدادًا أخرى تتضمن معلومات عن النحل.

الإخوة: محمد قاسم محمد العطيوي ـ إربد ـ الأردن، محمد علي ـ معطى الله سيسة ـ بو دحماني عبد القادر ـ قدوري عبد الله ـ بلفتحي نور الدين ـ بالطيب حميد ـ غيتاوي الطيب ـ بو دربالة الربيع ـ الجزائر
استفساراتكم أحيلت إلى قسم الاشتراكات الذي سيتولى الرد عليها بريديا، أما الطلبات التي وردت في رسائلكم فسيتم تلبيتها في أقرب فرصة إن شاء الله.

الأخت آمال أحمد حسن ـ قنا ـ مصر
نأسف لعدم إمكاننا تلبية طلبك، وندعو الله لك بالتوفيق.

الأخ أبو القاسم علي أبو القاسم ـ أم درمان ـ السودان
نأسف لعدم تلبية طلبك، فالمجلة لاتمنح اشتراكات مجانية، وستصلك إن شاء الله أعداد سابقة من المجلة.

الأخ فردي بو بكر ـ قسنطينة ـ الجزائر:
لا تتوافر لدينا المعلومات التي طلبتها، ويمكنك الاستفسار عنها في الملحقيات الثقافية والتعليمية بالسفارات العربية والأجنبية في بلدكم.

الأخ محمد مصطفى المصطفى ـ جامعة حلب ـ سورية:
سيتم إرسال الأعداد التي فزت بها في المسابقة على عنوانك الجديد.

الأخت بتول بنت محسن ابن باقر عبد اللطيف ـ مسقط ـ سلطنة عُمّان
عنوان دارالنشر يمكنك الحصول عليه بالاتصال بالسفارة السورية في بلدك، ونرحب بك صديقة للمجلة.

الأخ أحمد محمد عبد الرحمن السوداني ـ ثانوية الأحمر ـ الافلاج ـ الرياض:
نرحب بك صديقًا للمجلة، ونأمل أن نتلقى إسهاماتك قريبا، وهناك أعداد من المجلة ستصلك حتى تستطيع التعرف على ضوابط النشر، والمجالات التي يمكنك الإسهام بالكتابة فيها.

الأخ رشاد عيسى زكريا ـ إسلام أباد ـ باكستان:
يؤسفنا أن نعتذر من عدم تلبية طلبك، مع شكرنا وتقديرنا لحسن ظنك في المجلة.

الأخ زيتوت فريد - بجاية - الجزائر:

لا يوجد ركن للتعارف في المجلة، لذلك لا يمكننا نشر المعلومات الشخصية التي أرسلتها، أما رغبتك في التواصل مع الأشقاء المسلمين فيمكن عن طريق إسهامك بالكتابة إلى الصحف والمجلات التي تصدر في المملكة، على أن تكون كتاباتك في المستوى المطلوب حتى تجد طريقها إلى النشر ومن ثم يتحقق التواصل.

الأخ أحمد حمادة نكرمي - حلب - سورية

استفسارك الأول في رسالتك يمكن توجيهه إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المملكة العربية السعودية، وقد تستطيع السفارة السعودية في دمشق تزويدك بالمعلومات التي طلبتها، أما شروط مسابقة الخط العربي في تركيا فيمكنك أن تسأل عنها لجنة المسابقة في تركيا، لأن شروط المسابقات قد تتغير من عام إلى آخر. وترحب المجلة باقتراحك الخاص بإجراء لقاءات مع الخطاطين السوريين، ولكن نفضل أن ترسل إلينا بالأسئلة واسم الضيف المُحَاور قبل إجراء اللقاء لإبداء الرأي، وأخذ الموافقة.

الأخ عبد العزيز أحمد الجميعة - الدمام:

هناك ستة أعداد من الفيصل تناولت الموضوع الذي تستفسر عنه، وسوف يتم إرسال بعض هذه الأعداد إليك قريباً إن شاء الله.

الأخ طاهر بن علي - قصر البخاري - الجزائر:

أحيل استفسارك إلى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، وفي إمكانك مراسلته مباشرة للحصول على المعلومات التي تريدها في أي مجال بحثي تحدده.

الأخ درويش مصطفى الشافعي - إربد - الأردن:

نشكرك على مشاعرك الأخوية، ونأمل أن نكون عند حسن ظن القراء جميعاً.

الأخ رافعة - أندونيسيا

ستصلك أعداد من المجلة قريبا إن شاء الله، أما الكتب التي طلبتها فسوف نحاول تزويدك ببعضها في القريب. وتقبل دعواتنا بالتوفيق والسداد، ومرحبا بك صديقا للمجلة.

الأخ إبراهيم علي أبو رمان - عمان - الأردن

أحلنا طلبك إلى قسم الاشتراكات للرد عليه، وستصلك بعض أعداد المجلة التي طلبتها قريبا إن شاء الله. أما المقالات التي تريد إرسالها إلى المجلة، فنحن نرحب كثيرا بإسهامك، وإسهام الآخرين من الإخوة القراء، ولكن هناك ضوابط موضوعية معينة يتم الحكم من خلالها على مدى صلاحية المقالة للنشر، ويقوم بهذه المهمة مراجعون متخصصون.

الأخ مولاي حسين - ولاية أراغواط - الجزائر:

للأسف لاتتوافر لدينا المعلومات التي طلبت أن نزودك بها، لذا نأمل قبول اعتذارنا، كما نفيدك أن المجلة ليس فيها باب للتعارف، ومرحبا بك صديقا للمجلة.

الأخ عبد الرحمن ديرو - حلب - سورية

الكتاب الذي تطلبه توجد منه نسخة واحدة في مكتبة المجلة، لذلك ليس بإمكاننا أن نرسله إليك، ولكن هناك كتب أخرى عديدة تتناول القضية نفسها، ويمكنك الاستعانة بها.

الأخ محمد عبد الله الدباغ - الدوحة - قطر:

خطابك أحيل إلى الدكتور محمد بن سعد الشويعر مؤلف الكتاب الذي طلبته، لعله يستطيع أن يجيب طلبك، أما استفسارك عن باب التعارف، فليس في المجلة مثل هذا الباب.

الأخ م. ن - مصر:

كانت الشجاعة تقتضي أن تكون موضوعيًا، فتكتب بخط واضح ما تريد أن تقوله، وأن تكتب اسمك صراحة، بدلاً من هذا الأسلوب الذي كتبت به رسالتك، والذي ينم عن عدم النضج، وقلة التجربة، وبخاصة ذلك الرسم للقلب الجريح الذي ذكرنا بالتشويه الذي يمارسه قليلو التجربة من أبنائنا على جدران الحوائط، وجذوع الأشجار في حدائقنا العامة.



القضاء على اللغة العربية !



طالعت في العدد المميز ٢٠٥ من مجلة "الفيصل" الصادر في شهر رجب ١٤١٤هـ (ديسمبر ١٩٩٣م - يناير ١٩٩٤م)، مقالة للدكتور محمد بن سعد الشويعر بعنوان "محاربة العربية"، وكذا في العدد ٢٠٦ الصادر في شهر شعبان ١٤١٤هـ (يناير - فبراير ١٩٩٤م) مقالة للأستاذ علي محمد العمير بعنوان «تكريس الأمية اللغوية». لقد اجتذبتني هاتان المقالتان بما حوتا من حقائق عن الهجمة الشرسة التي كانت، ولاتزال تتعرض لها لغتنا العربية في كامل رقعة الوطن العربي والعالم الإسلامي، اللغة التي حملت في يوم من الأيام نبراس العلم والمعرفة وأنارت به ظلمات أوربا.

فلغتنا العربية ليست كسائر اللغات، فهي وعاء الإسلام ولغة القرآن الكريم، والحملة التي تتعرض لها هي بسبب هاتين الميزتين اللتين حباها الله بهما، والحقائق التاريخية تؤكد ذلك، فما إن يحلّ استعمار صليبي بأرض إسلامية، إلا نجده يسعى جاهداً لمحو أثرها من الوجود والقلوب .

فالاستعمار الفرنسي ـ مثلاً ـ عندما حلّ بأرض الجزائر، كان أول ما سعى إلى إنجازه هو هدم المساجد وتحويل بعضها إلى إسطبلات ومساكن لجيوشه الغازية وإلى كنائس أيضاً ـ رغم أن داي الجزائر وقّع اتفاق الاستسلام بشرط احترام الأماكن المقدسة والدين الإسلامي ـ لأنه كان يعلم جيداً أن قوة المسلم تكمن في عقيدته، فإن تمكن من إبعاده عنها سهل له التمكين في هذه الأرض.

ولكن الله سبحانه وتعالى شاء أن ينقذ عباده من هذه الخطة الدنيئة، فقام مصلحون جزائريون بالتحذير من ذلك من خلال تنظيم عرف باسم "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، وكان شعارها: الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا، ترأسها الشيخ العلامة عبدالحميد بن باديس، وضمت عدة شخصيات بارزة في ميدان الوعظ والإصلاح والإرشاد مثل: مبارك الميلي، خير الدين، العربي التبسي، البشير الإبراهيمي، عمر راسم، محمد الأمين العمودي.

ولقد نشط أعضاء هذه الجمعية في إلقاء الدروس بشتى المساجد، وفي فتح المدارس لافشال خطة المستعمر في إنشاء جيل جديد يجهل دينه ولغته، فنجحوا ولله الحمد، فاتجه المستعمر إلى تغيير خططه ببث الفرقة والضغينة بين بني الوطن الواحد، فكان رد شيخنا على هذا أن قال: "أنا بربري عربني الإسلام". هكذا ظهر ـ بفضل جهود هذه الجمعية ـ جيل ملتزم بقيم الإسلام ووطني إلى النخاع، وبالمقابل تمكنت السلطات الاستعمارية من توظيف بعض العناصر المتفرنجة التي عرقلت فيما بعد مسار التعريب إبّان الاستقلال وعطلت إنجاز هذا المشروع بعدة حجج واهية، منها، أن هياكل البلاد ومؤسساتها غير قابلة لهذا التغيير، وضعف اللغة العربية، وأنها لغة معرقلة للتقدم الحاصل، وأنها لغة ليست عالمية.

ومن هنا يظهر جلياً مدى الدور الذي يقوم به أعداء اللغة العربية من الداخل من أجل تعطيل استعمالها وانتشارها في وطنها، فهم بمثابة العبد المطيع لسيده. وإن كنا نحن غافلين عن مدى خطورة هذه الهجمة، فإن أعداءنا يسعون بكل ما أوتوا من ذكاء من

أجل تغييبها وإحلال لغتهم مكانها.

ومن خلال ماوقع وماهو واقع الآن أرى أن هذه الهجمة تتبع عدة مراحل، فما إن تفشل مرحلة في الوصول إلى نتيجة إلا وينطلقون في تطبيق المرحلة التي تليها ليصلوا إلى غايتهم المنشودة، وتلك المراحل يمكن أن ألخصها فيما يلي:

ـ إحلال لغة المستعمر مكان اللغة العربية: وهذه المهمة يقوم بتنفيذها عادة قادة الجيوش ــ كما رأينا في احتلال فرنسا للجزائر مثلاً ـ وأغلب هذه المحاولات تكون فاشلة لأنها مكشوفة.

ـ إحلال اللهجة العامية مكان اللغة العربية: وهذا جد خطير لأننا نعلم جيداً أن اللهجة العامية محشوة بكلمات أجنبية وقابلة في آن واحد للإثراء؛ والمعروف تاريخيًا أن أول كتاب دعا إلى استعمال العامية كتبه قاضٍ إنجليزي في مصر عام ١٩٠٢م اسمه ولمور، وسمّاه "لغة القاهرة"، وضع فيه قواعد تلك اللهجة، واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب جميعاً، كما اقترح كتابتها بالأحرف اللاتينية، ومن بعده جاء مهندس الرّي الإنجليزي وليم ولكوكس الذي قام ينعق بهجر العربية (١٩٢٦م)، ويترجم أجزاء من الإنجيل إلى ماسمّاه "اللغة المصرية". ثم اقتفى أثرهما بعض الأشخاص في محاولة لِهدم اللغة العربية منهم: سلامة موسى، فخري البارودي، سعيد عقل.

ـ بث النعرات اللغوية والقبلية: وأكبر مثال على ذلك إعادة تحريك قضية اللغة الأمازيغية (البربرية) في الجزائر، التي سبق أن فصل فيها عبدالحميد بن باديس يرحمه الله.

ـ تشجيع الإنتاج السمعي والبصري الذي يستخدم اللهجة العامية المطعمة ـ كما هو معروف ـ بألفاظ أجنبية ونشره. وأكبر مثال على ذلك انتشار أغاني الراي الساقطة في مختلف أصقاع العالم.

ومع كل ذلك فستبقى اللغة العربية لغة للوطن العربي، رغم كيد أعدائها، وإجحاف أهلها في حقها.

وختاماً أتمنى لمجلتنا الرائدة "الفيصل"، وللدكتور محمد بن سعد الشويعر، وللأستاذ علي محمد العمير دوام النجاح والتقدم في خدمة الفكر النير والأصيل واللغة العربية.

بريم عبدالرزاق
الجزائر العاصمة

حداثة من نوع: «تعال إلى حيث النكهة»



في العدد ٢٠٩ لشهر ذي القعدة ١٤١٤هـ/أبريل ـ مايو ١٩٩٤م. أمتعنا الدكتور وليد قصاب بمقاله السجالي «موقف الحداثة العربية المعاصرة من الدين». وتثمينا لمعانيه وأفكاره نبعث بهذه الخواطر، عن الكتابة وعلاقتها بالواقع:

سُئِلَ الناقد الفرنسي رولان بارت يوم ٢١ فبراير ١٩٨٠م من طرف صحيفة «النوفيل أوبسيرفاتور» عن مفهومه للكتابة، فأجاب: «لا أستطيع الإجابة طبقا لأسباب كبيرة يطغى عليها تفخيم الكلام، ولكن ينبغي أن نلعب على الكلمات الأكثر بساطة .. الكتابة خلق .. وبهذا المقياس نعتقد أننا سنصبح كتابا خالدين بعد الموت». وقبل بارت، قال زعيم الشعراء الصعاليك عروة بن الورد "أحاديث تبقى والفتى غير خالد".

كل كتابة تتفيأ الفعل المغاير، تتأسس على رؤية ما. كأن تنهض على رغبة في إعادة صياغة أسئلة الواقع. والخطاب الأدبي العميق جزء من فسيسفاء الكتابة. إنه شفاف ومهيمن وأخاذ ومسيطر. إذ تتضح فيه سحرية كيمياء الكلمات وهي بعض من عجين الواقع المعاش. وهذا يطرح إشكالية مكرورة: الكتابة في علاقتها بالواقع. لنَقُلْ إن الأمر يتعلق بعلاقة جدلية: علاقة تأثر وتأثير. والكتابة الأدبية تنفلت من أسار خيوط اليومي والعادي والسياسي والاقتصادي وغير هذه العوالم، ليس ابتعاداً أو إيغالا فيه، لكن في إطار التجاوز وإعادة تركيب العلائق والوقائع وفق أنساق إشارية ونسيج لغوي قادر على الاستيعاب والمجاوزة.

وفي هذا السياق يقول محمد علي شمس

الدين الشاعر اللبناني: «هناك جدل بين إيقاع الحياة والتعبير عنها .. هناك علاقة ليست آلية بين الواقع والفن ... بين الحدث في الخارج وإيقاعه في الكتابة ... ولكن أيهما يقدم حضوراً أكثر وضوحاً في الحياة؟ على العموم الفن الحقيقي فن مخترق. فالفنان الحقيقي ينطلق من أرضية الواقع ويهجس بتكوينه الفكري وحساسيته لما يمكن أن يؤدي إليه الخط البياني للحدث»(١) ودعونا من بعض الأسماء التي ركبت موجة من الشعارات لتؤسس بذلك «المستوطنات الفكرية والنظرية والفلسفية والشعرية والنثرية والثقافية بعامة»(٢).

والغريب في الأمر أن كل من حاول عقلنة التعامل مع هذه الموجة أو تلك صُنِّفَ ضمن «الخونة والعملاء والأبواق والأتباع»(٣). واختلطت الأوراق، وأصبح أشباه المثقفين بمثابة «أولياء الكلمة» الذين لايشق لهم غبار. والمثقفون الحقيقيون يَصْلَونَها سعيراً من جراء التهميش والحرمان القسريين. إن إكليروسا ممن نصبوا أنفسهم نقادا يتحملون نصيبا من هذه الوضعية حيث تضيع الأوراق، في حين أن عملية تقويم الأدب لاتكتسي صبغتها الأساسية إلا من خلال الجمهور العريض.

يُروى أن أحد الوزراء في الحكومة التركية كان يتجول في مناطق فلاحية، وفوجىء بفلاح يقرأ صفحات كتاب من تأليف الروائي كمال يشار «رواية إنجي الصغير» وعندما سُئل هذا الأخير عن رأيه في مثل هذا «الحدث» كان جوابه واضحا: إن مايرفع من قيمة الأديب هو مدى معانقة الجماهير له ومعانقته لها.

إن أية كتابة ترمي إلى ذر الرماد في أعين الجماهير هي كتابة ساقطة ومنبوذة، مهما حاول إكليروس «منظري الطبعة الجديدة» تلميعها وتزويقها وعرضها على القراء.

عن الحداثة في المجتمع العربي

لنتساءل بداية عن المعطيات السويسو - ثقافية التي كانت وراء المناداة بالحداثة، «الحقيقة أن التيه الذي بذرته اليقظة المفاجئة في أذهان الكثيرين يوشك أن يُستَغل من قبل بعض النزعات التي تريد بداية حرة ومسرعة، تنتهي إلى الدعوة إلى فقدان الذاكرة القومية: أي ليس التخلي، فقط، عما يشكل عنصرا سالبا في الماضي، ويسهم في تكبيلنا وإضعافنا، وإنما حتى عن كل مايُشكِّل جوهر حضارتنا وشخصيتنا التاريخية»(٤). إن فشل مجموعة من الدعوات الإصلاحية التي كانت تهدف إلى الإجابة عن تساؤلات ملحاحة بخصوص التخلص من هيمنة الاستعمار وتجلياته البعيدة والقريبة، وبالتالي اصطدام المشروع الإصلاحي العربي بهذه المتحولات على مستوى حركة الاستعمار المتكالبة على الوطن العربي، جعلت الذات الإبداعية للعربي تحاول إعادة طرح الأسئلة.. «وكانت لحظة حاسمة من تاريخه، لحظة فوارة بإعادة النظر والتفحص والاختبار. وخلافا للتجليات الأولى اليَقظَة في مطلع هذا القرن، فإنه لايبدو مهموما بإنقاذ صورته القديمة، جزئياً أو كلياً، بقدر مايبدو مهموما بالدخول - وعلى نحو نهائي - في كابوس عالم الآخر والتكيف بحسب طبيعة ومعرفة لعبه وقوانينه»(٥).

هذه هي الرحم التي أفرزت لنا موجة الحداثة والحداثيين. وماينبغي علينا أن نعلمه أن بعض روادها يوغلون في اعتبارها «اشتغالا مستمرا» على اللغة، لأنه «لكي نصلٍ إلى الحداثة في كل شيء، يجب أن نعبر باللغة»(٦). واللغة ــ هذا الكائن الحي ــ ألا يمكن اعتبارها معطى من ضمن معطيات، وبالتالي فهي مترابطة مع ماهو اقتصادي واجتماعي وسياسي وعسكري؟ إن اشتغال الأديب باللغة لايسوغ لنا إحداث قطيعة مع وظيفة الأدب المركزية، والمتجلية في مواكبة الإنسان في كبواته وانتصاراته، في آلامه وأحلامه، والعمل الدؤوب على مؤازرة الضعيف حتى يقوى، والمضطهد حتى يتحرر.

إن بروتوكولات حكماء الحداثة العربية، ومن خلال استقرائها، تؤكد بالملموس أن الحداثة التي يهجس بزرعها هؤلاء، هي حداثة من نوع: «تعال إلى حيث النكهة» كما قال الراحل نجيب سرور: إنه الهذيان الذي يعتمد على إيقاعية الجمل ونبر التراكيب مع غض الطرف عن حركية الواقع والتاريخ.

إن حداثة من هذا القبيل تصب كامل اهتمامها على الاشتغال باللغة، ضاربة عرض الحائط بخصوصية هذا الوطن العربي وخلفياته الحضارية، هي في الحقيقة وهم حداثة. فالحداثة الأدبية التي يمكن أن نطمح إليها هي حركة دائبة تهجس إلى تحديث هذا العالم العربي للخروج به من حالة الخراب التي طالت جُلَّ أطرافه إلى حالة البناء وفق حاجيات أبنائه وماتمليها تحديات الآخرين.

بهذا المعنى، نطرح هذا السؤال: أية حداثة ولأي مجتمع؟.

أحمد هبة
خنيفرة ـ المغرب

الهوامش:

١ـ محمد علي شمس الدين، ندوة أصيلة الشعرية، ربيع ١٩٧٩م.
٢ـ نجيب سرور، في محاورة أدونيس، مجلة الثقافة، أكتوبر ١٩٧٩م، ص٨٨.
٣ـ المصدر السابق، ص ٨٨.
٤ـ كمال خير بك، حركية الحداثة في الشعر العربي المعاصر، ط ٣، ص٢٣.
٥ـ المصدر السابق، ص ٢٣.
٦ـ هادي العلوي، حول الحداثة في اللغة، مجلة مواقف، عدد ٣٦، شتاء ١٩٨٠م، ص ٦٧.

حول عيسى عليه السلام



طالعت في مجلة "الفيصل" العدد ٢٠٥ لشهر رجب ١٤١٤هـ تعليقاً حول عيسى عليه السلام للأستاذ علي صالح محمد، على مقالة نشرت في العدد ١٦٨ بعنوان «عيسى من التثليث إلى التوحيد».

والنص الوارد في المقالة السابقة قول الكاتب: «وعيسى حين سمي بهذا الاسم، إنما هدف إلى التأكيد على أن عيسى عليه السلام هو إنسان من صلب إنسان، ونبي مرسل جاء بالحق من أمر ربه ولم يدَّعِ الربوبية يوماً». وكأن الأستاذ علياً استنكر قول الكاتب «هو إنسان من صلب إنسان» فعقب بقوله: «وكان ينبغي أن يقول: إن عيسى عليه السلام هو إنسان ولد من إنسانة، حتى لا يوجد مجالاً لليهود ـ لعنهم الله ـ في قولهم على مريم بهتاناً عظيماً ....». وختم تعقيبه بقوله: «إن صاحب المقال لم يقصد وضع هذه الكلمة، وإنما هي سَبْقُ قلم أو خطأ مطبعي».

أعتقد أن صاحب المقالة لم يخطىء وليس في مقالته سبق قلم أو خطأ مطبعي. بل هناك خطأ شائع وقع فيه صاحب التعقيب في كلمة «إنسانة».

فمن الفصيح أن نقول: هو إنسان وهي إنسان، لأن إنسان اسم جنس يقع على المذكر والمؤنث من بني آدم.

وقد أجمعت القواميس على ذلك، وقام بتلخيص هذه الأقوال الأستاذ محمد العدناني في كتابه «معجم الأخطاء الشائعة»، ففي قوله: «ويقولون فلانة إنسانة صالحة»، ذكر جلَّ أقوال العلماء القدامى في قول إنسان. كما ذكرها الزبيدي في تاجه وزاد عليها قول بعض المحدثين فقال: «ويقول ابن سيده صاحب المخصص، وابن منظور صاحب لسان العرب: فلانة إنسان طيب [طيب: صفة للفظ إنسان].

ويقول الفيومي صاحب المصباح المنير: الإنسان يقع على الذكر والأنثى والواحد والجمع، ويقول الجوهري في الصحاح: ويُقال للمرأة أيضًا إنسان ولايقال إنسانة، والعامة تقوله، ويقول أحمد رضا في متن اللغة: الإنسان للمذكر والمؤنث وقولهم إنسانة عامي، ويقول الفيروز آبادي في القاموس المحيط: والمرأة إنسان وبالهاء عامية سمع في شعر كأنه مولد:

إنسانة فتانة
بدر الدجى منها خجل

ولكنَّ الزَّبيدي صاحب تاج العروس يخالفهم في ذلك ويقول: إن العرب استعملت (إنسانة) قليلاً. والقلة لاتقضي إنكارها، والقولُ إنها عامية» انتهى. كما أورد الزبيدي عددًا من الشواهد الشعرية التي تذكر إنسانة وذكر أن قائليها من المولدين (ج١٥ ، ص ٤٠٩، وزارة الإعلام بالكويت).

أما كلمة (صلب) فربما استنكرها صاحب التعقيب أيضًا، لأن أكثر الناس تقرنها بالرجل فقط فيقال: هذا من صُلب أبيه. والصُّلب كما وردت في القواميس تعني الشديد القوي. ضدّ اللين وهو عظم من لدن الكاهل إلى العُجْب (العجز).

وأنشد العجاج في وصف امرأة :

رَيَّا العِظَام فَخْمَةُ المُخدَّم
في صَلَب مِثْلَ العِنَان المُؤْدَمِ

والصَلَب لغة من الصُّلْب.

وفي حديث سعيد بن جبير في «الصلب الدية» (تاج العروس ج٣ ص ٢٠١).

وقد وردت الصلب مرتين في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ «النساء:٢٣» وقوله: ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ «الطارق :٧». وقد اختلف المفسرون في تفسيرها؛ قال القرطبي: الصلب من الرجل والترائب من المرأة، وكذا قال قتادة، وقال الحسن كما ذكر القرطبي: يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل ومن صلب المرأة وترائب المرأة.

وذكر الصابوني في صفوة التفاسير (مجلد ٢، ص ٥١٥): يخرج هذا الماء من بين الصلب وعظم الصدر من الرجل والمرأة. وفي الهامش: وكنى بالصلب عن الرجل وبالترائب عن المرأة. وذكر الشيخ حسنين محمد مخلوف في كتاب «كلمات القرآن»: «الصلب ظهر كل من الرجل والمرأة، والترائب عظام الصدر أو الأطراف في كل منهما» ص ٤١٦. وللأستاذ محيي الدين درويش في كتابه "إعراب القرآن" رأي آخر، فقال: الصلب الشديد، يقال هو صلب في دينه ويقال: هو من صلب فلان أي من نسله وولده (ج ١٠، ص ٤٤٠). وقد ذكر مثل هذا الزبيدي بقوله: الصُّلب: الحَسَبُ والقوة، وذكر قول عدي بن زيد:

إجْلَ أنَّ الله قد فضَّلكم
فوق ماأحْكَى بصلب وإزار

وبعد ماذكرته سابقًا أرى أنه لاخطأ في قول الكاتب إن عيسى عليه السلام إنسان من صلب إنسان. والله أعلم.

خليل محمود الصمادي
الرياض

ويأتيك بالأمثال

لاَ أبوكَ نُشِرَ وَلاَ التّرَابُ نَفِدَ

يُضرب مثلا في طلب مالا يجدي.
قال الأحمر: أصل هذا المثل أن رجلاً قال: لو علمت أين قُتل أبي، لأخذت من تراب موضعه فجعلته على رأسي.
فقيل له هذه المقالة، أي إنك لاتدرك بهذا ثأر أبيك، ولا تقدر أن تُنْفِد التراب.

للرعية المنام وعلى الولاة القيام

كان هارون الرشيد في إحدى غزواته، ونزل عليه الثلج ليلة، فقال له بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين: أما ترى ما نحن فيه من الجهد والتعب، والرعية قارة وادعة نائمة.
فقال الرشيد لُمحَدِّثه: اسكت إن للرعية المنام، وعلينا القيام، ولابدّ للراعي من حراسة الرعية وتحمّل الأذية.

تكررت عشرين مرة

شكا موظف بإحدى المؤسسات إلى مديرها فقال: إنَّه أمضى عشرين عامًا في عمله بالمؤسسة ، اكتسب خلالها خبرة، ومع ذلك تخطاه في الترقية مَنْ هم أحدث منه عهداً من الموظفين.
فقال المدير: الواقع أن لك خبرة عام واحد فقط، لكنها تكررت عشرين مرة.

قيل

قيل: مَنْ أبصر عيب نفسه، اشتغل عن عيب غيره، ومَنْ رضي بما قسّم الله، لم يحزن على مافاته، ومَنْ سلّ سيف البغي، قُتل به، ومَنْ نسي خطيئته، استعظم خطيئة غيره، ومَنْ أعجب برأيه، ضلّ، ومَنْ استغنى بعقله، زلّ، ومَنْ تكبر على الناس، ذلّ، ومَنْ خالط الأنذال، احْتُقرَ، ومَنْ دخل مداخل السوء، اتُّهِمَ، ومَنْ جالس العلماء، وُقِّرَ.

بين حافظ ومطران

يُروى أن الشاعرين حافظ إبراهيم وخليل مطران، ذهبا يومًا لزيارة حديقة الحيوان في الجيزة، فقال مطران مُمازحًا حافظًا: حاسب أحسن يحوشك البواب عند الباب! ردَّ حافظ قائلاً: أظن أن لاخوف عليك أنت، إذ إن بالداخل كثير منك!

رثاء حمار

مات حمار للشاعر المصري يحيى بن عبد العظيم الجزار، المعروف بأبي الحسين الجزار (٦٠١-٦٧٢هـ)، فكتب قصيدة في رثائه منها:

ما كل حين تنجح الأسفار
نفق الحمار وبارت الأشعار
خرجي على كتفي، وها أنا دائر
بين البيوت كأنني عطار
لم أدر عيبًا فيه إلا أنه
مع ذا الذكاء يقال عنه حمار

نصيحة

قال حكيم: اعلم يابني أن المقام في الدنيا قليل، والركون إليها غرور، والغبطة فيها حلم، فكن سمحًا، سهلاً، قريبًا، أمينًا، وكلمة جامعة: اتق الله في جميع أحوالك، ولا تعصه في شيء من أمورك.

الكريم

إن الكريم إذا نالته مخمصة
أبدى إلى الناس ريّا وهو ظمآن
يحني الضلوع على مثل اللظى حرقًا
والوجه غمر بماء البشر ملآن



بوابة الثميري بعد التوسعة، وتعد البوابة الرئيسية لمدينة الرياض ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م

يعرف نفسه

كان يزيد بن المهلب مسافرًا بصحبة ابنه معاوية، فمرَّ بامرأة بدوية فاستضافتهما، وذبحت لهما عنزًا، فلما أكلا، قال يزيد لابنه: ما معك من النفقة؟ قال: مائة دينار.

فقال يزيد :أعطها إياها. قال ابنه: هذه امرأة فقيرة، يرضيها القليل، وهي لاتعرفك. فقال يزيد: إن كان يرضيها القليل، فأنا لايرضيني إلا الكثير، وإن كانت لاتعرفني فأنا أعرف نفسي.

نفايات الأمريكان أكثر!

قالت إحصائية قامت بها وكالة أوربية: إن الأمريكيين يتفوَّقون على الأوربيين من حيث إنتاجهم للقمامة.

أشارت الإحصائية إلى أن إنتاج الفرد الأمريكي من النفايات يصل إلى ٧٢٠ كيلو جرامًا سنويًا، مقابل ٣٠٠ كيلو جرام للفرد الأوربي، و١١٠ كيلو جرامات للياباني.

من نوادر البخلاء

حُكي أن أحد البخلاء اشترى دارًا، وانتقل إليها، فوقف ببابه سائل، فقال له البخيل: يفتح الله عليك. ثم وقف سائل ثان. فقال له البخيل: إن الله هو الرزاق. ثم وقف ثالث، فقال له البخيل: الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب. ثم التفت إلى ابنته فقال لها: ما أكثر السؤال في هذا الحي؟! قالت الابنة: لا بأس علينا يا أبي مادامت الأعطيات على هذا المنوال!

وصية

كتب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله - رضي الله عنهما -: أما بعد، فإنه مَنْ اتقى الله وقاه، ومَنْ توكل عليه كفاه، ومَنْ شكر له زاده، ومَنْ أقرضه جزاه. فاجعل التقوى عماد قلبك وجلاء بصرك. فإنه لا عمل لَمنْ لانية له، ولا أجر لَمنْ لاخشية له، ولاجديد لَمنْ لاخلق له.

ترف..

تقول دراسات اقتصادية: إن الأمريكيين ينفقون يوميًا مليونين ونصف المليون دولار على غسيل سياراتهم، وأربعين مليونا على شراء قطع غيار لها.

أكبر مخزن للذهب

يُعدُّ الذهب الموجود في بنك الاحتياط الفيدرالي في نيويورك أكبر كمية من سبائك الذهب تتجمع في مكان واحد، حيث يبلغ وزن السبائك قرابة ١٤ ألف طن!

ينتمي أصحاب هذه السبائك إلى أربعين دولة من أنحاء العالم المختلفة.

هكذا سادوا

يروى أن عبد الملك بن مروان استأذن على معاوية - رضي الله عنه - في الدخول، فأذن له. ثم سلّم عليه وجلس، وبعد أن فرغ من حديثه، قام وانصرف.. فقال معاوية: ما أكمل أدب هذا الفتى! فقال بعض الحاضرين : نعم يا أمير المؤمنين لقد أخذ بأخلاق أربعة، وترك أخلاقًا أربعة. أخذ بأحسن البشر إذا لقي، وبأحسن الحديث إذا حَدّث، وبأحسن الاستماع إذا حُدّث، وبأحسن الوفاء إذا وعد، وترك المزح مع مَنْ لا يثق بعقله، ومجالسة مَنْ لا يرجع إلى الحق، ومخالطة مَنْ لا أدب عنده، ومن القول والعمل كل ما يُعتذر منه.

قتل عاد



الشكوى من تكاثر النسل غير صحيحة، لاأساس لها من الصحة، ومختلقة، وشكوى زور، ودعوى كيدية. وهي شكوى تزعم أن البشرية قد زاد عددها على خمسة مليارات نسمة وأن مافي الأرض من خيرات لايكفي هذه المليارات.

لكننا إذا نظرنا إلى الصراعات بين البشر لعلمنا أن ماتحصده الحروب لايحل المشكلة فحسب، بل يجعل مَن تُكتب له الحياة بعد الحروب يرتع في رخاء وينعم بالترف .. ويأكل فاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون .

لقد سمعنا الحديث الشريف الذي تمثل بقتل عاد في قوله المروي عليه الصلاة والسلام: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد» وشاهدنا على شاشات الدشاشات (أو مرئيات القبب المقلوبة) ما معنى "قتل عاد" بما لايحتاج إلى شرح.

لكن الشكوى بأن سكان كوكبنا كثيرون شكوى مغلوطة، مشبوهة، مقلوبة. فكل يوم يموت أناس طبيعياً وصناعياً وبالمدافع والقذائف والقنابل والألغام والطائرات والنابالم والحرائق والغرق والزلازل والغازات .. فبعد أن خرجنا من حرب عالمية ثانية، جاءت الحرب الكورية ثم الفيتنامية ثم الهندية الباكستانية والهندية الصينية والصين الهندية والهند وكشمير وأفغانستان والبوسنة والهرسك وفلسطين والصومال .. ورواندا .. ولاتنس لبنان .. وأخيراً أحفاد قوم عاد.

كأن البشرية قد اتفقت في الأمم المتحدة على عقد اجتماعي تتخلص به من بعض جسدها كما يتخلص الواحد منا من الشعر الزائد عند الحلاق.

فالذين يزعمون أن البشرية "تتكاثر" أمر مبالغ فيه. ربما كانت البشرية "تتناقص" أو على الأقل تتوازن، بحيث كلما وقعت زيادة سكانية في مكان ما وقعت محرقة أو مجزرة اسمها الحرب، لكي "تكافح" الغزو البشري للبر والبحر والجو .. ف «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون».

محمد علي الجفري

الطاقة الجديدة والمتجددة

كتاب علمي، تربوي، تثقيفي .. يجيب على عدد من التساؤلات، ويوضح بعض الجوانب المتعلقة بالطاقة كعنصر حيوي لإعمار الكون، كما يناقش مشكلات سوء استخدام الطاقة. وقد كرست الدكتورة سنية محمد عبدالرحمن في هذا الكتاب خطة مكتب التربية العربي لدول الخليج العربية، الرامية إلى نشر الوعي العلمي والثقافة العلمية. فاعتنت بتأصيل وتوضيح مفهوم تقسيمات الطاقة، وطرحت في صورة مبسطة العلاقة الوثيقة القائمة بين التربية والتعليم والتوظيف الأمثل للطاقة. وفي سياق الدعوة إلى وضع الضوابط والأسس الكفيلة بحماية الإنسان من مخاطر الطاقة يتضمن الكتاب التلوث الضوضائي كمشكلات ناجمة عن الطاقة.

يقع الكتاب في ١١٢ صفحة من القطع المتوسط، وهو من إصدار مكتب التربية العربي لدول الخليج.

قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي

يقدم هذا الكتاب نماذج تطبيقية لفاعلية قيم المجتمع الإسلامي واستمرارها في الواقع، وكيف تعاملت معها الصفوة من العلماء والفقهاء والعامة في فترات مختلفة، وأماكن متعددة. ويناقش الكتاب موضوعات مثل: الفقهاء والسلطة، دور العامة في الحياة السياسية، المجتمع والسلطة في الأندلس في عصر التدهور، فقهاء المدينة وعلاقتهم بالرأي العام، إجراءات الحكم الأموي ضد المعارضين، موقف فقهاء المدينة من الخلافة الأموية، العامة في بغداد أواخر العصر العباسي.

ويقول المؤلف: إن أهمية دراسة هذه الجوانب تكمن في أنها تشكل أدلة للنقد، والتقويم، والتحليل التاريخي لتحديد مواطن التغيير، وأسباب القصور، ووضع الخطط الأساسية التي تحقق استشراف الماضي، وفهم الحاضر لبناء المشروع الإسلامي للنهوض .. والكتاب من جانب آخر يلح على إعادة التفاعل بين الإنسان والإسلام، ويدعو المسلمين، لاستعادة دور الأمة في الشهود الحضاري.

صدر الكتاب عن سلسلة كتاب الأمة في الدوحة ١٤١٤هـ . ويقع في ١٥٢ صفحة من القطع الصغير، وهو من تأليف الدكتور أكرم ضياء العمري.

التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي

الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التنصيري الذي نُظم بمدينة جلين ايري في كلورادو بالولايات المتحدة الأمريكية، بإشراف منظمة التصور الدولية المتخصصة في التنصير.

عقد هذا المؤتمر الخطير عام ١٩٨٧م بمشاركة ١٥٠ شخصية منتقاة من أنحاء العالم المسيحي، وهم خبراء في مختلف الفروع، وبخاصة في الدراسات الإسلامية، وعلم الأجناس، وشؤون العالم الثالث، ونظريات الإعلام، وأساليب تغيير الاتجاهات والتأثير في الرأي. والهدف الرئيس لهذا المؤتمر هو وضع استراتيجيات متقدمة، وخطط مرحلية لغزو العالم الإسلامي.

وللوصول إلى هذه الغاية ناقش المؤتمرون أربعين موضوعاً بتركيز شديد لاستنباط تصورات جديدة لتعجيل بتنصير ٧٢٠ مليون مسلم، أو كما جاء في التقديم لأعمال المؤتمر «إن عملية تنصير المسلمين من أعظم التحديات التي واجهت الكنيسة على مر العصور».

يقع المجلد في ٨٧٨ صفحة من القطع الكبير، ويشتمل على البحوث التي طرحت في المؤتمر، إضافة إلى خلاصة تعقيبات المشاركين، وردود مقدمي البحوث على التعقيبات. قام بنشر أعمال المؤتمر دار مارك في كاليفورنيا.

السجل العلمي ندوة استخدام اللغة العربية في تقنية المعلومات

يشتمل على أعمال وبحوث «الندوة العلمية لاستخدام اللغة العربية في تقنية المعلومات»، التي نظمتها مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض خلال الفترة من ٨ - ١٢ ذي القعدة ١٤١٢هـ، وقد نوقش في تلك الندوة ٤٢ بحثاً علمياً بمشاركة ٧٣ باحثاً من أنحاء العالم العربي.

تم تصدير السجل بكلمة صاحب السمو الملكي الأمير بدر بن عبدالعزيز نائب رئيس الحرس الوطني، التي ألقاها في افتتاح الندوة، وأكد فيها على «أن اللغة هي أهم مظاهر استقلال الأمة وقوتها، وأن اللغة العربية هي

أجدر اللغات لتكون لغة العلم والحضارة».

جاء السجل، من حيث ترتيب البحوث، وفقاً لبرنامج الندوة وجلسات العمل التي بلغت ١٥ جلسة، بالإضافة إلى الجلسة الختامية التي أُعلنت فيها توصيات الندوة. والسجل يقع في ٨٨٦ صفحة في مجلد من الحجم الكبير، يبدأ بمقدمة تشرح أهداف مكتبة الملك عبدالعزيز من تنظيم الندوة، ومحاور الندوة والتعريف بأوراق العمل. وهذا السجل هو العمل الرابع في سلسلة الأعمال المحكمة التي أصدرتها المكتبة.

العثمانيون في التاريخ والحضارة

ينهج الدكتور محمد حرب في هذا الكتاب منهجاً تحليلياً تقويمياً لإبراز مساهمات الدولة العثمانية في التاريخ والحضارة. ويهدف بذلك - كما يقول - إلى إنصاف العثمانيين، وتقديم معرفة صحيحة عن تلك الفترة من التاريخ الإسلامي، مستنداً إلى أن الطريق نحو تقويم الحكم العثماني يبدأ بمحاولة فهم العثمانيين، ولكي تنجح هذه المحاولة ، وتحقق هدفها ينبغي أن تتوافر للباحث ثلاثة عناصر هي: الوثائق، والمخطوطات، والقوانين العثمانية. داخل هذا الإطار يتناول المؤلف تراجم العثمانيين، وفتوحاتهم وغزواتهم، وموقفهم من اليهود، وكذلك الثورات التي اندلعت ضد العثمانيين. وفي جانب المساهمات الحضارية، يقدم نماذج من إضافاتهم في الفكر، والفنون، والعلوم، وهو بذلك يرد على الدراسات العدائية التي نشأت في الغرب، وانتشرت في البلدان العربية، وشوهت صورة العثمانيين بغرض تقويض دعائم دولتهم، ثم مالبثت أن تعمقت تلك الصور في أذهان البعض.

صدر الكتاب عن المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، القاهرة ١٩٩٤م، ويقع في ٣٢٨ صفحة من القطع الكبير.

التوثيق التربوي

نشرة نصف سنوية يصدرها مركز المعلومات الإحصائية في وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية، وتهتم بتوثيق وتسجيل البرامج والمشروعات التعليمية، ونشر الأنظمة واللوائح والدراسات التربوية، ومتابعة التطور الكمي والكيفي لمسيرة التعليم في المملكة. والإصدار الذي نحن بصدده يشتمل على العددين ٣٣و٣٤ في مجلد واحد، ويحفل بمجموعة من الموضوعات التربوية والعامة، من أبرزها «أنظمة مجلس الشورى تحديث وتطوير لما هو قائم»، «عرض وثائقي إحصائي لمدارس تحفيظ القرآن الكريم في المملكة»، «إنجازات الخطط الخمسية الأربع بالأرقام»، «تقويم التحصيل الدراسي»، «جهود وزارة المعارف في إنجاز أعمال التعداد العام للسكان والمساكن»، «النظام الفعلي الجديد للدراسة بكليات المعلمين». كما يحتوي الإصدار على نصوص ومناقشات وأوراق عمل عدد من الندوات واللقاءات التربوية.

المعجم المفسر لألفاظ النبات

يجمع هذا المعجم بين دفتيه ماورد في القرآن الكريم من أسماء ومصطلحات نباتية، وماذكر من ملحقاتها وصفاتها، وأردفها المؤلف مختار فوزي النعال بالشرح والتفسير، وأقوال أهل الاختصاص من علماء وأطباء ونباتيين، ووازن بين أقوالهم وآرائهم مرجحاً الأصوب من خلال السياق. وقد عرض المعلومات بأسلوب ومنهج معجمي.

يدخل هذا المعجم في قائمة الدراسات القرآنية والأعمال الموسوعية الإسلامية، حيث يقف القارىء من خلاله على المعارف الصادرة عن كتاب الله.

يقع المعجم في ٣٨٤ صفحة من القطع الصغير، وقد صدر عن نادي جدة الأدبي الثقافي ١٤١٤هـ.

عبدالعزيز الرفاعي أديباً

دراسة تكشف عن بعض ملامح الأدب السعودي من خلال التحاور حول الإنتاج الأدبي للأستاذ الراحل عبدالعزيز الرفاعي. وهي دراسة موسعة تربط نتاج هذه الشخصية بمسيرة الأدب السعودي في عمومه عن طريق الموازنة وبيان الخصائص المشتركة بين الأدباء، وماينفرد به بعضهم من السمات، وكذلك بيان مواطن الخبرة والابتكار، والتوافق والاختلاف.

وتتمحور الدراسة حول خمسة أبعاد، عالج الأول المهاد العلمي للرفاعي من خلال رحلته مع المكتبات ومع التأليف، وتناول البعد الثاني اهتماماته التاريخية، وفي البعد الثالث يتوقف المؤلف عند جهود الرفاعي الأدبية، ومن خلال «ظلال ولا أغصان» عالج البعد الإبداعي في الشخصية موضوع الدراسة، ورصد المحور الخامس البعد التقويمي لجهود الرفاعي الأدبية.

الكتاب من تأليف محمد بن مريس الحارثي، ويقع في ٢٢٧ صفحة من القطع المتوسط، صدر عن النادي الأدبي الثقافي بجدة ١٤١٤هـ.

مسابقة مجلة
الفيصل

١ـ الإخوة الأعزاء :

جوائز عديدة تقدمها المجلة لأصحاب الحلول الفائزة على النحو التالي:

أ ـ ثلاث جوائز مالية تمنح لثلاثة فائزين (٥٠٠ ريال، ٣٥٠ ريالاً، ١٥٠ ريالاً)

ب ـ خمس جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤ عدداً).

ج ـ عشر جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢ عدداً).

د ـ خمس جوائز عبارة عن مجموعات من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض، قيمة كل مجموعة في حدود مائة ريال.

٢ـ شروط المسابقة:

أ ـ الإجابة عن جميع الأسئلة، وإرفاق القسيمة الأصلية ـ وليس نسخة مصورة ـ للمسابقة مع ورقة الإجابات التي يوضح فيها الاسم ثلاثياً أو رباعياً ـ إن أمكن ـ وعنوان المراسلة.

ب ـ ترسل الإجابات على العنوان التالي:

مسابقة ، مجلة الفيصل،
ص.ب. (٣) الرياض (١١٤١١)
المملكة العربية السعودية

(مع ضرورة ذكر رقم المسابقة على المظروف)

جـ ـ أية إجابات تصل بعد ٤٥ يوماً (حسب التقويم الهجري) من صدور العدد لن يلتفت إليها.

د ـ من حق القارئ أن يشترك باسمه في المسابقة الواحدة أكثر من مرة شرط إرفاق قسيمة المسابقة مع كل رسالة.

تنبيه: نرجو من الإخوة المشاركين عدم لصق القسيمة على ورقة الإجابات أو قص أجزاء منها، وإنما يكفي وضعها مع ورقة الإجابات داخل المظروف.

أجوبة مسابقة العدد ٢٠٩

ج١: الآية التي جمعت المحرمات من الطعام، هي الآية رقم (٣) من سورة المائدة.

* * *

ج٢: يستحسن شرعًا إعلان الزواج، ليخرج بذلك عن نكاح السر المنهي عنه، وإظهارًا للفرح بما أحل الله من الطيبات. وليعلمه الخاص والعام، والقريب والبعيد، وليكون دعاية تشجع الذين يؤثرون العزوبة على الز واج، فتروج سوق الزواج.

والإعلان يكون بوسائل متعددة، بما جرت به العادة، ودرج عليه عرف كل جماعة، بشرط ألا يصحبه محظور شرعي كشرب الخمر، أو اختلاط الرجال بالنساء، و نحو ذلك. روى أحمد والترمذي ـ وحسّنه ـ عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه الدفوف».

كما روى الترمذي والحاكم ـ وصححه ـ عن يحيى بن سليم قال: قلت لمحمد بن حاطب: تزوجت امرأتين ما كان في واحدة منهما صوت ـ يعني دفًا ـ فقال محمد ـ رضي الله عنه ـ « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فصل ما بين الحلال والحرام الصوت بالدف».

* * *

ج٣: أول من حوّل العرب عن دين إسماعيل ـ عليه السلام ـ، هو عمرو بن لحيّ بن حارثة بن عامر الأزدي القحطاني. وكان قد ولي حجابة البيت الحرام بمكة المكرمة، وزار بلاد الشام، ودخل أرض «موآب» في وادي الأردن، فوجد أهلها يعبدون الأصنام. وكانت قد انتشرت بمكة عادة تتمثل في أنه إذ ا أراد أحد أهلها سفرًا، حمل معه حجرًا من حجارة الحرم يتيمن به، وانتقل بعضهم من ذلك إلى تقديس ذلك الحجر والطواف حوله. ثم كان أن صاروا يختارون أي حجر يعجبهم من أي مكان فيطوفون حوله كما يطوفون بالكعبة. وأعجبت «عمرو بن لحي» أصنام موآب، فأخذ عددًا منها، فنصبها بمكة، ودعا الناس إلى تعظيمها والاستشفاء بها. فكان أول من فعل ذلك في العرب.

* * *

ج٤: هو جيمس وات، المخترع الأسكتلندي (١٧٣٦ ـ ١٨١٩م). الذي طوّرآلة نيوكومن البخارية. وقد وضع

للاشتراك املأ هذه القسيمة
(عنوان الاشتراك من الخلف)
الاسم: ....
المهنة: ....
العنوان: ....

«وات» تعبير «قوة حصان» لقياس السرعة التي تدور بها الآلات العاملة، بعد أن حسب قدرات الحصان العادي، وقارن بينها وبين قدرات الآلات . ولاتزال وحدة «قوة حصان» مستعملة إلى يومنا هذا.

* * *

ج٥: كانت مدينة نيويورك أول مدينة تضاء بالكهرباء في العالم، وذلك سنة ١٨٨٢م، بعد أن افتتح «توماس ألفا إديسون» أول محطة لتوليد الكهرباء في بيرل ستريت.

نتائج مسابقة العدد (٢٠٩)

أ- فاز بالجائزة المالية الأولى، وقدرها ٥٠٠ ريال سعودي، سالم علوي معلا الجميدي، المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية.

وفاز بالجائزة المالية الثانية، وقدرها ٣٥٠ريالاً سعودياً، منصور علي، المسيلة ـ الجزائر.

وفاز بالجائزة المالية الثالثة، وقدرها ١٥٠ ريالاً سعودياً، البريدي سعيد، الدار البيضاء ـ المغرب.

* * *

ب ـ فاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤ عدداً)، كل من:

١ـ عبد السلام محمد أحمد الندوي، كيرالا ـ الهند.

٢ـ محمد مغربي محمد مكي، قنا ـ مصر.

٣ـ عبد الرزاق الملقي ، دمشق ـ سورية.

٤ـ حاتم بن محمد معرّف، طبلبة ـ تونس.

٥ـ ولي الحق صادق أنوار الحق، إسلام آباد ـ الباكستان.

* * *

ج ـ وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢ عدداً)، كل من:

١ـ عبد المنعم عثمان الحسين سعد، الخرطوم ـ السودان.

٢ـ علي موسى محمد، وهران ـ الجزائر.

٣ـ عبد الله عواد المغذوي الحربي، المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية.

٤ـ عائشة محمد ريحاوي ، عمّان ـ الأردن.

٥ـ مخلص موسى الطويل ، دمشق ـ سورية.

٦ـ علي مطر محمد المزيني، المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية.

٧ـ ألفة بنت عبد العزيز بحلوس، باجة ـ تونس.

٨ـ إبراهيم عبد الوهاب شرف، الد قهلية، مصر.

٩ـ محمد علي محمد مشوط الأحمري، أبها ـ المملكة العربية السعودية.

١٠ـ حامد أشرف إبراهيم مكاوي ، البديع ـ البحرين.

* * *

د ـ كما فاز بجائزة مجموعة من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، كل من:

١ـ عبد القادر نصير سليم القرم، سيناء ـ مصر.

٢ـ أحمد بن عبد الوهاب العبد الوهاب ، حلب ـ سورية.

٣ـ زياد زهدي محمد أبو طالب، عمّان ـ الأردن.

٤ـ عبد العزيز نصار الفريدي، المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية.

٥ـ أسامة علي عبد الله الطويل، أسوان ـ مصر.

أسئلة مسابقة العدد (٢١٢)

السؤال الأول: شرع الإسلام الهبة لما فيها من توثيق عُرى المحبة بين الناس، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها. اذكر حديثين شريفين في ذلك.

* * *

السؤال الثاني: حرص الإسلام على إحلال الوفاق بين الناس محل الخصومة، وشرع للمتخاصمين أن يتصالحوا، وللصلح أقسام. اذكر اثنين منها.

* * *

السؤال الثالث: مِنَ العلماء الذين خدموا اللغة العربية، مجموعة عرفوا بلقب «الأخفش». عرّف اثنين منهم.

* * *

السؤال الرابع: لماذا يحذر الأطباء ـ بشدة ـ من التحديق إلى الشمس بالعين المجردة؟

* * *

السؤال الخامس: من الأمراض النفسية المعروفة، مرض «لذة الألم» أو «السادية». لماذا سمي بهذا الاسم؟

من السجل الأسود لفظائع الصرب ضد المسلمين في البوسنة يتذكر بوريسلاف هيراك تلك الصورة - حين أطلق النار هو واثنان من رفاقه على عشرة أفراد فأردوهم قتلى - صورة الطفلة الصغيرة ذات الرداء الأحمر التي حاولت الاختفاء خلف جدتها.

وقد جاء في إذاعة لندن أنه في أماكن أخرى أدرك الصّرب عددًا من المسلمين في حال منكرة من الفزع وشرعوا يجهزون عليهم وهم يصيحون: أين ربكم الآن يا مسلمون؟

إن المثير في الأمر ليس وقوع هذه الجرائم، بل عدم المبالاة التي يعامل بها العالم هذه الجرائم التي ترتكب بحقّ المسلمين.

فى مأتم سراييفو

شعر:
د. يوسف محيي الدين أبو هلالة

أوقدوا النار فالحديث طويل ... والدّجى حالك السّواد ثقيلُ
في عيوني شوكٌ وفي القلب شوك ... وعن الشوك خطوتي لا تميلُ
كلّ دنيا للمسلمين جراحٌ ... راعفاتٌ وحسرةٌ وعويلُ
روّعتني بلواك يا «سراييفو» ... واعتراني مما دهاك ذهولُ
في فؤادي مما رمتك الليالي ... ألف جرح منها الدماء تسيلُ
تتبدى من روعة الخطب فيها ... وهو صدق كأنه تخييلُ
لهف نفسي على الديار دهاها ... حادث هائل وشرّ وبيلُ
لهف نفسي على المساجد منها ... أين غاض التكبير والتهليل؟
لهف نفسي على المقاصير عادت ... موحشات ترتاع منها الطلولُ
كم فتاة بزهر عفتها الأشرار ... عاثت حين استبيح الخميل؟
ورضيع طوى الرّدى والديه ... ويتيم عنه مضى من يعولُ
وعجوز لم يُغن حين استباحوا ... شيبه أنه الضعيف الهزيل

الفيصل
مجلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار الفيصل الثقافية

ملاحظات عامة

مع تقديرنا لكل من يسهم في الكتابة في المجلة، فإننا نرجو من كتابنا الكرام أن يضعوا في حسبانهم الملاحظات التالية:

١- أن يتسم الموضوع المقدم للنشر بالجدّة والموضوعية، مع توثيق المراجع إذا اقتضى الأمر ذلك.

٢- ألا يكون الموضوع منشورًا من قبل، أو مرسلاً إلى أي جهة أخرى ناشرة.

٣- حين تردّ المجلة على كاتب ما بأن موضوعه «غير مناسب للنشر» فإن هذا لا يعني أنه «غير صالح للنشر» في غيرها، وإنما يعني عدم مناسبته لسياسة النشر فيها.

٤- أن يرفق الكاتب (الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة) مع موضوعه، الاسم والمؤهلات العلمية والإنتاج الفكري - إن وجد - وعنوان المراسلة، في ورقة مستقلة.

٥- الموضوعات المنشورة في هذه المجلة تعبّر عن آراء أصحابها. ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

وجـريح وِرْدَ الردى أوردوه ... منه لم يَشْفَ حين مات الغليلُ
وألوف المشـرّدين الحيارى ... من ذهول تاهوا وتاهَ الدليلُ
إن يقيموا على المنايا أقاموا ... أو يفرّوا فللمنون الوصولُ
من رآها تداس من همج الضّرب ... وقد كبّلت يديها الكبولُ
لرأى منظرًا يُشقُّ له الصدرُ ... وتلتاثُ من أساهُ العقولُ
ألف جرح في القلب ما جدّلته ... أي جرح به الفؤادُ جديلُ؟
منظر الطفلة الصغيرة يجتاح ... ذويها مدجج مخبولُ
ظنت الجدَّةَ الكبيرة حصنًا ... دون غدر المهاجمين يحولُ
أطفأوا بسمة الصباح بعينيها ... فماتت وما استتم الأصيلُ
بالذل الجباه والدين أضحى ... غرضًا للعدى فأين الفحول؟
منذ تسعين والميادين ظمأى ... فاغمري الأرض بالندى يا سيول
في احتدام المعارك الزّيف يعرى ... ويجلّي في المعمعان الأصيلُ
إخوة الدّين ليس يُجنى انتصارٌ ... من ضياع وليس يجدي العويلُ
كلُّ قول مبطن لم يلامس ... وجع المسلمين لص دخيلُ
كلّ نثر لم يَرْوِهِ الدم يومًا ... لو بدا مورقًا فصادٍ محيلُ
كلّ فكر عن الهدى يتجافى ... عدم اللعن في سواه نبيلُ
ألف صنف في السوق تلقاك منه ... كالبغايا والعاهراتُ شكولُ
كلّ شعر مزخرف ليس فيه ... فضح من أجرموا جبانٌ ذليلُ
جعلوه «المفعول فيه» وأقصوا ... عن معانيه «فاعلٌ» «وفعولُ»
يوزن الشعر بالنقود ويشرى ... فإذا مالت النقود يميلُ
أعينُ الثأر للمغاوير ترنو ... وبفرسانها تهيب الخيولُ
ربّ، عدلاً عاقَبْتَنا.. ما جَهِلنا ... نَهجُك النهجُ والسبيلُ السبيلُ
فهب المجرمين عن ذنبهم فينا ... - إلهي - عذابَ يومٍ يهولُ

العنوان

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ -
المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٦٥٣٠٢٦ - ٤٦٥٣٠٢٧ -
- ٤٦٤٧٨٨٤
فاكسملي: ٤٦٤٧٨٥١

الأسعار:

السعودية ٨ريالات - الكويت ٦٥٠ فلسا - الإمارات ٧دراهم - قطر ٧ريالات - البحرين ٧٥٠ فلسًا - عُمان ٧٥٠بيسة - الأردن ٥٠٠فلس - اليمن ٢٥ريالاً - مصر جنيهان - السودان ٣ جنيهات - المغرب ٦دراهم - تونس ٦٠٠مليم - الجزائر ١٠دنانير - العراق ٤٠٠فلس - سورية ٢٠ليرة - ليبيا ٨٠٠درهم - موريتانيا ١٠٠أوقية - الصومال ٢٠٠٠شلن - جيبوتي ١٥٠فرنكًا - لبنان مايعادل ٤ريالات سعودية - الباكستان ٢٠ روبية - المملكة المتحدة جنيه استرليني واحد.

الاشتراكات السنوية:

للأفراد ١٥٠ريالاً سعوديًا، للمؤسسات ٢٥٠ ريالاً سعوديًا.

الإعلانات:

يتم الاتفاق عليها مع إدارة المجلة.



وفاة السعد والصديقي

أعضاء جدد في مجمع اللغة العربية بالقاهرة

قانون فرنسي لحماية اللغة الفرنسية من الإنجليزية وغيرها

إقرار جائزة القدس الأدبية

قاموس عالمي للفن الإسلامي

فتح باب الترشيح لجائزة سلطان العويس

السعودية

تبوك ورعاية المتفوقين والمتقنين

أبدى العديد من الشخصيات الدبلوماسية والفكرية إعجابهم بما شاهدوه من نهضة ثقافية وحضارية في منطقة تبوك خلال زياراتهم لها في مناسبات مختلفة.

وكان سمو أمير المنطقة صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن سلطان بن عبد العزيز، قد رعى - بحضور شخصيات بارزة - في السادس من شهر محرم ١٤١٥هـ الماضي، حفل توزيع جائزة سموه للمزرعة النموذجية في عامها الثالث. حيث تم تكريم ثلاثين مزارعًا، حفزاً للإتقان وتشجيعًا لدور القطاع الخاص في تحقيق الأمن الغذائي، وخلقًا لروح التنافس الشريف بين المزارعين فيما يعود على الوطن بالخير.

كما رعى سموه في الثاني والعشرين من شهر ذي القعدة الماضي ١٤١٤هـ، حفل مهرجان جائزة سموه للتفوق العلمي في عامها السادس.

تم خلال الحفل تكريم عشرة مديرين، وخمسة مدرسين من المرحلة الثانوية، وثلاثة من المرحلة المتوسطة، وستة من المرحلة الابتدائية، كما كُرِّمت خمس مديرات و ١٥ مدرّسة للمرحلة الابتدائية، فضلاً عن ٩٥ طالبًا وطالبة من المتفوقين بالمنطقة من مختلف المراحل التعليمية.


صاحب السمو الملكي
الأمير فهد بن سلطان بن عبد العزيز

حضر الحفل عدد من أعضاء مجلس الشورى، ومجموعة من رجال العلم والفكر والأدب والصحافة، الذين أشادوا بالجائزة ومثيلاتها من الجوائز العلمية، التي تعمل على تزكية روح التنافس الشريف في طلب العلم بين الناشئة، وتشكل حافزًا لهم للوصول إلى التفوق والإبداع، وتمثل جانبًا من جوانب اهتمام المسؤولين بالعلم والثقافة.

وكان تلاقي هذا الجمع من المفكرين والمثقفين في حاضرة الشمال فرصة لحوارات تناولت شجونًا شتى في الفكر والأدب والثقافة والنهضة التي تحياها المملكة العربية السعودية في شتى المجالات.

مجلة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

قررت هيئة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة، في ختام أعمال اجتماعها السادس بمكة المكرمة في السابع من شهر محرم الماضي ١٤١٥هـ، إصدار مجلة محكمة سنوية باللغتين العربية والإنجليزية تحت مسمى «الإعجاز»، يقوم بتحكيمها مختصون شرعيون وكونيون.

تهدف المجلة لتحقيق جملة غايات من بينها: تشجيع أبحاث الإعجازالعلمي للقرآن الكريم والسنة، والبحوث العلمية بعامة، مع الاهتمام بنشر القواعد والمناهج التي تضبط الكتابة في هذا المجال، وتعريف الباحثين والدارسين والمهتمين بالكتب التي نشرت في مجال الإعجاز للقرآن الكريم والسنة، وكذا المؤسسات المهتمة بهذه الدراسات، فضلاً عن نشر أخبار الهيئة.


د. عبدالله نصيف

كما تضمنت التوصيات إقرار الميزانية

المقترحة لعام ١٤١٥هـ، وتشكيل لجنة لوضع مقترحات للصيغة التي تتطلع إليها الهيئة في مجال البحوث والتعامل مع الباحثين ومراكز البحث في العالم.

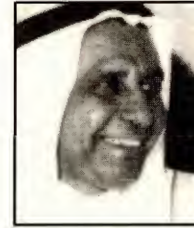
وقرر المؤتمرون الموافقة على عقد المؤتمر السابع للإعجاز العلمي في القرآن الكريم في باندونج بأندونيسيا في الثالث عشر من شهر ربيع الأول المقبل (٢٠ أغسطس ١٩٩٤م).

يذكر أن الهيئة تتبع المجلس الأعلى العالمي للمساجدالتابع لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

سورة الإخلاص على نصب حجري من القرن ٣هـ

عثر مواطن يُدعى سعيد بن سلوان الزنجي في منطقة الليث على نصب حجري نقشت عليه سورة الإخلاص، محاطة بإطار زخرفي.

يُعتقد أن النقش يعود إلى مدينة السرين الأثرية في القرن الثالث الهجري.


عبدالله السعد

وفاة السعد والصديقي

توفي - مؤخراً - الوزير السابق والكاتب المعروف عبد الله السعد عن عمر يناهز ٨٤ عامًا، والداعية الإسلامي الشيخ محمود محمد حسن الصديقي.

ولد عبد الله السعد في مضارب قبيلة بني حارث بالقرب من الطائف عام ١٣٣٠هـ، وتلقى تعليمه الابتدائي في مكة المكرمة، ونال شهادة المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة عام ١٣٥٢هـ، حيث بدأ حياته الوظيفية في وزارة المالية، وتدرج في الوظائف المختلفة حتى صار وكيلاً للوزارة، ثم انتقل إلى وزارة المواصلات وكيلاً لها، ثم وزيرًا للمواصلات إلى أن تقاعد عام ١٣٨١هـ.

وقد مارس الكتابة الصحفية في جريدة «البلاد»، كما صدر له كتابان.

أما الشيخ الصديقي فكان من أوائل المدرسين بمدرسة الدمام الأولى، ومارس إلى جانب التدريس، الإمامة والخطابة والوعظ، وكان أول مدير لمركز الدعوة والإرشاد في المنطقة الشرقية في عهد الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ يرحمهما الله.

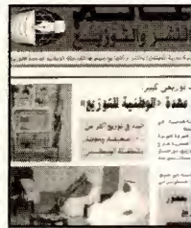
مجلة «فواصل»

انضمت إلى ركب الصحافة الشهرية مجلة جديدة هي «فواصل» التي صدر عددها الأول - مؤخرًا - عن شركة فواصل للنشر المحدودة.

«فواصل» مجلة شاملة، صاحب امتيازها ورئيس مجلس إدارتها الشاعر طلال العبد العزيز الرشيد، ويشاركه في التحرير الشاعران فهد عافت، ومسفر الدوسري.

ويعني الاسم - كما قال صاحب امتياز المجلة - أنها فاصلة أو علامة فارقة بين زميلاتها من المجلات والدوريات.

نشرة «عالم النشر والتوزيع »



أصدرت الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع، العدد الأول من نشرتها المتخصصة «عالم النشر والتوزيع»، المُوَجَّهة للمهتمين بهذين المجالين.

تضمن العدد الأول مجموعة من الأخبار المتنوعة في مجال التوزيع، ويشرف على النشرة المدير العام للشركة إبراهيم بن حسين فتوح، ويدير تحريرها عبد الوهاب القحطاني.

كتب جديدة

أهم المعالم للمواجهة الشاملة في مجال محو الأمية وتعليم الكبار في المملكة، كتاب توثيقي، صدر عن الإدارة العامة للتعليم في الرياض.

«آفاق شعرية.. قراءة لما وراء النصوص» دراسة نقدية كتبها محمد محمود جاد الله، وصدرت عن نادي المدينة المنورة الأدبي.

تقييم مساهمات المرأة السعودية في سوق العمل، تأليف عائشة أحمد الحسيني، صدر عن مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبد العزيز بجدة.

الإمارات

مجلس بالشارقة لتنمية الفنون

صدر مرسوم أميري بتأسيس مجلس الشارقة لتنمية الفنون.

تناط بالمجلس مهمة تحسين مستوى الفنون الجميلة والتطبيقية وفنون المسرح وتطويرها، وتلبية متطلبات المجتمع، والارتقاء بالمهارات المحلية، ودعم النشاطات التي تهدف إلى بناء القدرات وتنميتها.

جائزة سلطان العويس

أعلنت الأمانة العامة لجائزة سلطان العويس الثقافية عن فتح باب الترشيح للجائزة في دورتها الرابعة لعام ٩٤/١٩٩٥م

الحركة الثقافية في شهر

دعت الأمانة المؤسسات الثقافية والعلمية والروابط الأدبية والثقافية العربية، وغيرها، إلى ترشيح من تراه مناسبًا من المفكرين والأدباء العرب لنيل الجائزة في أحد مجالاتها الأربعة: الشعر، القصة والرواية والمسرحية، الدراسات الأدبية والنقدية، والدراسات الإنسانية والمستقبلية.

وتحدد يوم الثامن والعشرين من شهر فبراير ١٩٩٥م المقبل موعدًا نهائيًا لقبول الترشيحات.

ومن ناحية ثانية، أُعلِنت ـ مؤخرًا ـ أسماء الفائزين بجوائز سلطان العويس للدراسات والابتكار العلمي، المخصصة لأبناء الامارات. ففي المسابقة العامة، فاز بالمركز الأول في فرع تاريخ الملاحة في الإمارات د. حسن عبد الله النابودة، تلته موزة محمد علي سالم. وفي تاريخ اللؤلؤ وتجارته جاء في المركز الأول حسن علي عبد الله سالم، ثم عائشة عتيق أحمد يوسف ، ومحسن محمد صالح، وفي تاريخ الحركة التجارية في الإمارات، نال الجائزة الأولى عن بحث مشترك كلٌ من عواطف أحمد الهيش، وفاطمة عبد الله الدبل، فيما فاز بالجائزة الأولى في مجال تاريخ الخدمات الطبية في الامارات كل من مريم سلطان أحمد لوثاه، و د. رفيعة عبيد غانم غباش. وجاء في المركز الثاني داود سليمان الحمادي، وفي مجال تاريخ الحركة الرياضية في الإمارات فاز بالجائزة الأولى أحمد سعد عبد الله الشريف، وفازت في مجال جزر الإمارات زهرة جاسم. ونال عبد الرحمن عبد الله نقي جائزة تشجيعية في مجال جبال الإمارات.

وفي مسابقة الشباب فاز كل من: أحمد شكري عبد الله،أماني محمد عمران، تغريد علي الحبشي، جميلة حسن الحديدي، جميلة يوسف البشري، فوزية يوسف حسن عبد الله، ليلى محمد إسماعيل، محمد راشد جاسم بو الحمام، مريم عبيد راشد، وميساء محمد العصيمي.

وفي مسابقة أحسن بحث عن دولة الإمارات فاز بالجائزة الأولى عن بحث مشترك عن السياسة النقدية كلٌ من د. أحمد خليل المطوع، و د. علي فرج، وجاءت هدى علي جاسم في المركز الثاني.

وحصل د. إبراهيم حسني كلداري على المركز الأول في مسابقة البحوث العلمية التطبيقية.

وفي مسابقة أفضل عمل فني تشكيلي لأبناء الإمارات، فاز عبد الرحيم سالم بالجائزة الأولى، تلاه عبد القادر الريس.

معرض تشكيلي لفنانات خليجيات

نظمت دائرة الثقافة والإعلام في الشارقة معرضًا تشكيليًا جماعيًا لفنانات خليجيات.

محاضرات وندوات

«اللغة العربية وتحديات عصر المعلومات» عنوان محاضرة ألقاها في قاعة المحاضرات التابعة لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض، د. نبيل علي محمد عبد العزيز.

«مستقبل التنمية في المجتمعات العمرانية والمدن الجديدة» عنوان محاضرة ألقاها في المركز الثقافي التابع للسفارة المصرية في الرياض د. يحيى شديد.

«الفاتيكان والحوار الإسلامي المسيحي»عنوان محاضرة ألقاها في دار الندوة في بيروت د. عادل تيودور خوري، قدّم للمحاضرة د. ميشال خليل جحا.

أقام جاليري الكوفة في لندن أمسية شعرية للشاعر اللبناني هنري زغيب، حضرتها مجموعة من الأدباء العرب ومحبي الشعر.

أقام نادي الشرقية الأدبي أمسية شعرية في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في الأحساء للدكتورين محمد بن سعد الدبل، وإبراهيم بن محمد أبو عباة.

«الأدوية والسموم: الاستخدام والأخطار» عنوان ندوة نظمتها مديرية الشؤون الصحية في جدة، شارك فيها عدد من المتخصصين.

«أداب الشعوب الإسلامية» عنوان محاضرة ألقاها د. محمد عبد الرحمن الربيع.

«العربية بين الدرس القديم وعلم اللغة الحديث» عنوان محاضرة ألقاها د.

احتوى المعرض على قرابة ٧٢ لوحة تشكيلية، معظمها يستلهم التراث الخليجي.

من الأسماء التي شاركت: الجازي الحسيني (السعودية)، صباح الموسوي (البحرين)، فوزية العيسى (الكويت)، وفاء أحمد الحمد (قطر)، نجاة حسن مكي (الامارات)، ومريم عبد الكريم (سلطنة عمان).

الكويت

مؤتمر التعريب الطبي

يرتب المركز العربي للوثائق والمطبوعات الصحية لعقد المؤتمر السنوي للتعريب في العام الميلادي المقبل.

يُقام على هامش المؤتمر معرض التعريب السنوي، وسوف ترصد جوائز لأفضل كتاب منشور، وأفضل جناح عرض، وللشخصية التعريبية للعام، وأفضل بحث تعريبي.

يشارك في المؤتمر العديد من الجهات المعنية بمجال الأبحاث الطبية والتعريب.

مجلة «كيف؟»

هذا هو اسم أحدث مجلة تطبيقية عامة صدر - مؤخراً - عددها الأول عن مؤسسة تقنية المستقبل في الكويت.

تعنى «كيف؟» بنشر ما يخدم القارئ العربي من موضوعات علمية وحرفية تمثل محور المحيط اليومي للإنسان، وتجيب عن تساؤلاته بلغة بسيطة، تقرب بين العلم والهواية والاهتمامات، وتُنَمِّي لدى القارئ القدرة على الابتكار، والتعامل الذاتي مع ما قد يواجهه من مشكلات حرفية في محيطه.

يرأس تحرير المجلة د. عادل خالد الصبيح، ويدير التحرير د. سعد عبد الله الفرحان، بمساعدة محمد خلدون مكي.

العراق

وفاة الشاعر أطيمش

توفي الأكاديمي والشاعر د. محسن أطيمش، أستاذ الأدب العربي في الجامعة المستنصرية ببغداد.

وللفقيد عدة مؤلفات منها: الأناشيد (مجموعة شعرية)، الشاعر العربي مسرحيًا (دراسة)، دير الملاك (دراسة في الشعر العراقي)، موسيقى الشعر. كما ترك مخطوطًا دراسة نقدية في الشعر بعنوان «تحولات الشجرة»، وديوان شعر عنوانه «مدن جديدة».

مصر

مؤتمر دولي لفني المشربية والزجاج المعشق

يقام في القاهرة خلال شهر يناير المقبل ١٩٩٥م مؤتمر دولي حول فني المشربية والزجاج المعشق.

يناقش المؤتمر واقع هذين الفنين الإسلاميين ومستقبلهما، وتشارك في أعماله أربعون دولة عربية وإسلامية، ومجموعة من أبرز الباحثين والمتخصصين في هذين الفنين.

ينظم المؤتمر مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في إستانبول، التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، بالتعاون مع هيئة اليونسكو العالمية.

عبده الراجحي.

ألقيت المحاضرتان السابقتان في نادي القصيم الأدبي في بريدة.

«مستقبل المياه في مصر» موضوع ندوة نظمها مركز البحوث والدراسات السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة، شارك فيها مجموعة من الباحثين والمتخصصين.

نظم النادي الأدبي في المنطقة الشرقية أمسية شعرية للشاعر السوري محمد عبد الله العلي، أدارها علي المغنم

شارك الشاعران الفلسطينيان محمود درويش، وسميح القاسم في أمسية شعرية أقيمت في المسرح البلدي بالعاصمة التونسية بدعوة من وزارة الثقافة التونسية، والدائرة الثقافية في منظمة التحرير الفلسطينية.

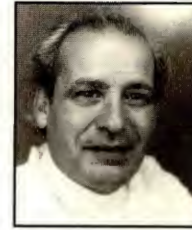
«مسرح الطفل في لبنان» عنوان ندوة نظمها النادي الثقافي العربي في بيروت، شارك فيها عدد من المتخصصين.

«مشاهد وعظات» عنوان محاضرة ألقاها في مسجد صلاح الدين بالثقبة في المنطقة الشرقية الشيخ محمد أحمد الشيخ.

«الولاء والبراء» عنوان محاضرة ألقاها في الجامع الكبير بالجبيل د. عبدالله محمد المطلق.

نظمت مؤسسة عبد الحميد شومان الثقافية في عمان ندوة بمناسبة الذكرى العشرين لوفاة القاص الأردني محمود سيف الدين الإيراني، شارك فيها كل من الدكاترة: نعيم اليافي، إبراهيم خليل، إبراهيم السعافين، حسن عليان، وإبراهيم أبو هشهش.

أعضاء جدد في مجمع اللغة


د. محمد بن شريفة

أسفرت الانتخابات التي أجريت - مؤخرًا - في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عن انضمام أربعة أعضاء جدد للمجمع عن العلميين، وعضوين عن اللغويين وعضوين مراسلين.

فاز بعضوية المجمع عن العلميين كل من الأساتذة الدكاترة: أحمد مستجير (عميد كلية الزراعة بجامعة القاهرة)، محمد السيد غلاّب (العميد السابق لمعهد الدراسات الأفريقية)، ومحمد الأمين بسيوني (العميد السابق لكلية العلوم بجامعة عين شمس)، وأحمد الصباغ (العميد السابق لكلية الهندسة).

وفاز عن اللغويين:د. علي الحديدي (الوكيل السابق لكلية البنات بجامعة عين شمس)، و د. حسن الشافعي (وكيل كلية دار العلوم بجامعة القاهرة).

وعن الأعضاء المراسلين فاز د. عبد الله الغنيم (الكويت)، د. محمد بن شريفة (المغرب).

مكتبة الاسكندرية مقرًا لوثائق الأمم المتحدة

اختيرت مكتبة الاسكندرية الجديدة لتكون واحدة من ٣٣١مكتبة في ١٣٦ بلدًا في أنحاء العالم المختلفة تُودَعُ فيها وثائق هيئة الأمم المتحدة، بناء على قرار مجلس منشورات الأمم المتحدة .

وكانت مكتبة داج همرشولد بمقر الأمم المتحدة في نيويورك قد أقرت عام ١٩٤٦م نظام مكتبات الإيداع ،القاضي بتوفير وثائق الأمم المتحدة ومنشوراتها للباحثين والقراء في أنحاء العالم.

يُذكر أن المكتبات المذكورة موزعة كالتالي: ٨٦ مكتبة في آسيا والمحيط الهادي، ٤٨ مكتبة في أفريقيا، ٧٧ مكتبة في أوروبا الغربية، ٢٥ مكتبة في أوروبا الشرقية، ٥٢ مكتبة في أمريكا الشمالية، و٤٣ مكتبة في أمريكا اللاتينية والبحرالكاريبي.

مهرجان القراءة للجميع

انطلقت في النصف الثاني من شهر ذي الحجة الماضي ١٤١٤هـ برامج مهرجان «القراءة للجميع» في دورته الرابعة.

تضمن المهرجان برامج جديدة دشنتها راعيته السيدة سوزان حرم الرئيس المصري محمد حسني مبارك، تحت شعار «الطفل والشباب والأسرة».

وقامت الهيئة المصرية العامة للكتاب في إطار مشاركتها في المهرجان، بنشر ١٥٠ كتابًا من روائع الأدب العربي، والأعمال الفكرية والإبداعية العربية والعالمية، وطرحتها في الأسواق بسعر رمزي لا يتجاوزخمسين قرشًا مصريًا.

الليزر يروي أسرار حضارة مصر

تجرى - حاليا - في المجلس الأعلى للآثار دراسات مكثفة لإنتاج برامج على أشرطة الفيديو والليزر توضح مظاهر الحضارة المصرية عبر العصور بهدف تعريف طلبة المدارس بحضارتهم بنواحيها المعرفية المختلفة من علوم وآداب وثقافة وآثار وغير ذلك.

وقد تم اعتماد مائتي ألف جنيه لإنتاج البرامج على مدى عامين.

بينالي القاهرة الثاني للخزف

شارك ٢٠٨ فنانين من ٤١ دولة بنحو ٥٥٥ عملاً فنيًا خزفيًا في بينالي القاهرة الثاني للخزف الذي أقيم - مؤخرًا - في مجمع الفنون بالزمالك.

نالت الجائزة الأولى للبينالي الفنانة المصرية زينب محمد علي سالم، وفاز بجائزة العمل الأول كل من: محمد خليل مندور، يوسف مكرم إبراهيم، ميرفت حسن السويفي (مصر)، بولجار الدريجو (هنغاريا)، ورو هاري (بلجيكا).

ومنحت جائزة لجنة التحكيم لكل من: تهاني محمد العادل، حسن محمد عثمان، فتحية صبحي معتوق، جمال الدين عبود (مصر)، دارل جون (نيوزيلندا)، وجلان كارتو (إيطاليا).

وفاز بجوائز الشباب كل من: عماد عبد الحفيظ، عادل فؤاد العجمي، عصام عزت عبد الجواد (مصر)، تامي ونكيم (كوريا) د. يتاكنبل (ألمانيا).

متحف لوثائق طابا

يفتتح في شهر مارس ١٩٩٥م في منطقة طابا بسيناء متحف متخصص يضم كل المراسلات والوثائق التي تم تبادلها بين مصر وإسرائيل بخصوص مشكلة طابا.

كما يضم المتحف قسماً خاصاً بالخرائط المصرية التي أكدت حق مصر في منطقة طابا، وجزءاً خاصاً بآثار سيناء من بينها قطع فرعونية يرجع تاريخها إلى ما قبل خمسة آلاف سنة.

يقام المتحف على قطعة أرض مساحتها ألف متر مربع .

حلبة مصارعة من العصر الروماني

اكتشفت في منطقة الكنائس بمدينة بلوزيوم القديمة في سينا حلبة مصارعة يبلغ قطرها ٦٢ متراً، ويعود تاريخها إلى القرن الثالث الميلادي، ولايوجد لها مثيل معماري سوى في تركيا.

تضم الحلبة ، التي اكتشفتها بعثة مصرية سويسرية مشتركة، مدرجات للمشاهدين وأربع غرف للحيوانات.

وقال الأمين العام للمجلس الأعلى المصري للآثار د. عبد الحليم نور الدين: إن الحلبة استخدمت في فترة لاحقة كمسرح، بعد دمار مسرح بلوزيوم في الحقبة الرومانية.

وأضاف أنه يجرى ـ حالياً ـ ترميم الحلبة، لتضاف إلى المزارات السياحية في سيناء.

كتب جديدة

أسس الدعوة إلى الله في القرآن الكريم، تأليف الدكتور عمر يوسف حمزة.

من معالم الإسلام، تأ ليف محمد فريد وجدي، جمع فصوله وقدم لها د. محمد رجب البيومي.

الأميرة ذات الهمة، دراسة تحقيقية للكاتب شوقي عبد الحكيم.

صدرت الكتب الثلاثة السابقة عن الدار المصرية ـ اللبنانية.

روائع الأدب العالمي في كبسولة، (عرض وتبسيط بعض روائع الأدب العالمي)، عرضها في جزئين مختار السويفي.

شاهد على العصر، (شهادات وأقوال لبعض الأدباء والمفكرين سجلت إذاعيًا) جمعها الإذاعي عمر بطيشة.

صدر الكتابان السابقان عن الدار العربية للكتاب.

الأسلوب الأدبي بين الاتجاهين النحوي والبلاغي، تأليف د. صلاح عيد، صدر عن دار الآداب في القاهرة.

قراءة في الفكر الروائي عند ثروت أباظة، تأليف عاطف عز الدين عبد الفتاح، تقديم د. عبد العزيز شرف، صدر عن مؤسسة دار الشعب في القاهرة.

العثمانيون في التاريخ والحضارة، تأليف د. محمد حرب، صدر عن مركز الدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي في القاهرة.

دروس من محنة البوسنة والهرسك، تأليف محمد قطب.

مستقبل الثقافة في مصر العربية، تأليف د. سليمان حزين.

دراسات في النقد الأدبي المعاصر، تأليف د. محمد زكي العشماوي.

إحقاق الحق، تأليف فهمي هويدي.

صدرت الكتب الأربعة السابقة عن دار الشروق بالقاهرة.

قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، تأليف د. عائشة عبد الرحمن.

مستقبل الثقافة في مصر، تأليف د. طه حسين، طبعة جديدة قدم لها د. أحمد فتحي سرور.

نساء الخلفاء، تأليف تاج الدين ابن الساعي، تحقيق د. مصطفى جوّاد، ط٢.

صدرت الكتب الثلاثة السابقة عن دار المعارف في مصر.

رشاد رشدي، تأليف د. نبيل راغب، صدر ضمن سلسلة «نقاد الأدب».

الحرب الكيميائية، تأليف الدكاترة: أحمد مدحت إسلام، عبد الفتاح محسن بدوي، محمد عبدالرازق الزرقا، صدر ضمن سلسلة «العلم والحياة».

مطلوب أمل، مجموعة قصصية للقاص اليوناني أندوني ساماراكي، ترجمها إلى اللغة العربية د. نعيم عطية، وصدرت ضمن سلسلة «الرواية العالمية».

الهلاك الأبدي، مسرحية لجيم ألين، ترجمها إلى اللغة العربية حسين حامد، وصدرت ضمن سلسلة «روائع المسرح العالمي».

ريم البراري المستحيلة، تأليف ميرال الطحاوي، صدرت ضمن سلسلة «قصص عربية».

طوائف الحرف في مصر(١٨٠٥ - ١٩١٤م)، تأليف د. عبد السلام عبد الحليم عامر، صدر ضمن سلسلة «مصر النهضة».

صدرت الكتب الستة السابقة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الصور الفنية عند النابغة الذبياني، تأليف خالد محمد الزواوي، صدر الكتاب عن الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان).

عرب وأكراد؛ خصام أم وئام، تأليف درية عوني، صدر عن مؤسسة دار الهلال بالقاهرة.

غربة الصبح، ديوان للشاعر محمد فارس، صدر عن مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر.

الصومال: الوعي الغائب، تأليف خالد رياض، صدر عن دار الأمين.

البحث عن المستقبل، تأليف رجب البنا، صدر عن المكتبة الأكاديمية.

الخروج على النص، تأليف غالي شكري، صدر عن دار ابن سينا للنشر.

صحفي للبيع، تأليف وجيه أبو ذكري، صدر عن المكتب المصري الحديث.

الأداء الفني للنص، تأليف د. عباس بيومي عجلان، صدر عن دار المعرفة الجامعية في الإسكندرية.

الأردن

جائزة القدس الأدبية

قرر الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب إنشاء جائزة تحمل اسم «جائزة القدس الأدبية»، تمنح مرة كل عامين لكاتب أو اثنين من أعضاء الاتحاد.

تبلغ قيمة الجائزة عشرة آلاف دولار، سوف يبدأ منحها اعتباراً من العام الميلادي الحالي.

وتمنح عن مجمل أعمال الكاتب الأدبية والفكرية وفقًا للشروط التالية:

- أن تكون للكاتب إسهامات ذات طابع قومي وإنساني في مجالات الإبداع الأدبي والفكري والدراسات والبحوث.
- أن تعكس إسهامات الفائز وكتاباته الالتصاق الحميم بالقضايا الإنسانية والمعيشية للإنسان العربي، والدفاع الأمين عن مطالبه الأساسية، في مجالات الحرية والديموقراطية، وحقه المشروع في العيش الكريم.
- أن تعكس كتابات الفائز وقوفه الصريح ضد مخططات الصهيونية في المنطقة، والدفاع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها، وأن تتضمن موقفًا من قضايا الانسان عمومًا، والدفاع عن مطالبه الأساسية في الحرية والعدالة والسلام.
- أن تتوفر في أعمال الفائز أصالة وحداثة سواء في الشكل أوالمضمون.

وقد بدأ الاتحاد في تلقي الترشيحات للجائزة، التي لم يُعلن - إلى كتابة هذه السطور- الموعد النهائي لاستقبال الترشيحات لها.

ملتقى الفينيق الشعري

أقيمت في عمان - مؤ خرًا - أعمال ملتقى الفينيق الشعري الأول الذي نظمه جاليري الفينيق للثقافة والفنون.

هَدف الملتقى إلى فتح حوار بين الاتجاهات والأجيال الشعرية المختلفة، وصولاً إلى رسم حالة شعرية متقدمة، وشارك في برامجه شعراء من أنحاء العالم العربي، إضافة إلى الأردن.

رسائل جامعية

« كتاب الكفاية الكبرى في القراءات العشر لأبي العز محمد ابن الحسين القلانسي: دراسة وتحقيقًا» عنوان رسالة ماجستير في القراءات القرآنية نوقشت في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، تقدم بها عبد الله بن عبد الرحمن الشتري.

« كتاب مختصر ابن تميم .. دراسة وتحقيقًا» عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في المعهد العالي للقضاء بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تقدم بها علي إبراهيم محمد القصير.

«اعتراضات السهيلي على النحاة .. جمعًا ودراسة» عنوان رسالة ماجستير نوقشت في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، تقدم بها عبد الله بن زيد الداود.

«نواقص الإيمان الاعتقادية وضوابطها عند أهل السنة» عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، تقدم بها محمد عبد الله الوهيبي.

«تأثير مادة البني كونازول على نبات القمح» عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية البنات بالدمام، تقدمت بها شيخة بنت سعد محمد العبد الكريم.

ويطمح الجاليري أن يتمكن - مستقبلاً - من تنظيم ملتقيات مشابهة حول الرواية والقصة.

لبنان

جائزة كامل مروة

أعلنت أسرة الصحافي اللبناني الراحل كامل مروة، مؤسس صحيفة «الحياة» في ذكرى اغتياله، عن إنشاء جائزة سنوية تمنح لأفضل الأعمال الصحافية، تتولى الإشراف على منحها «مؤسسة كامل مروة».

يُنتظر أن تُعلن تفاصيل الجائزة في مؤتمر صحفي يُعقد قريبًا في مقر نقابة الصحافة اللبنانية، يحدد خلاله الحقول التي ستمنح فيها، وقيمتها والمعايير التي يتم على أساسها اختيار الفائزين.

يذكر أن كامل مروة أغتيل وهو في الحادية والخمسين في مكتبه في ١٦/٥/١٩٦١م

وفاة غنطوس الرامي

فقد الوسط الثقافي اللبناني الشاعر والصحافي والإذاعي غنطوس الرامي.

يُعَدُّ الرامي الإذاعي الأول في لبنان، وعلى يديه تتلمذت أجيال من الإذاعيين، وقد عمل في الإذاعة اللبنانية منذ تأسيسهاعام ١٩٣٨م باسم «راديو الشرق».

وللفقيد ديوان شعر بعنوان «سمر».

كتب جديدة

حركة الترجمة في عصر النهضة، تأليف د. لطيف زيتوني.

من أيام الضوء والظلام، (سيرة ذاتية لرئيس الجامعة اللبنانية الراحل د. ميشال عاصي)، قدم للكتاب السفير فؤاد ترك.

صدر الكتابان السابقان عن دار النهار للنشر في بيروت.

جامع الفرق والمذاهب، تأليف أمير مهنا وعلي خريس، صدر عن المركز الثقافي العربي في بيروت.

معجم العلاج النفسي الدوائي، تأليف د. محمد أحمد النابلسي، صدر عن منشورات دار ومكتبة الهلال في بيروت

تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية، تأليف د. محمد جابر الأنصاري، صدر عن منشورات مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت.

لم أدع أحدًا، ديوان للشاعر عقل العويط، صدر عن دار الجديد في بيروت.

سورية

تكريم الكيلاني

كرمت مجلة «الثقافة» الباحث الدكتور إبراهيم الكيلاني، في حفل كبير شاركت فيه وزيرة الثقافة الدكتورة نجاح العطار، ومجموعة من الأدباء والمفكرين والمثقفين.

والدكتور كيلاني (٧٨عامًا) باحث ومحقق، يصل مجموع أعماله إلى قرابة ٤٥ مؤلفًا، من أبرزها في مجال التحقيق أحد عشر مجلدًا من أعمال أبي حيان التوحيدي.

وفاة حورانية

فقدت القصة القصيرة السورية واحدًا من روادها بوفاة الأديب سعيد حورانية عن عمر يناهز ٦٥ عامًا.

«تحديد كفاية معلمات اللغة الإنجليزية بالمرحلة المتوسطة في المملكة العربية السعودية» موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية التربية بجامعة أم القرى، تقدمت بها إكرام عقيل عبد الله برديسي.

«دراسات وراثية خلوية لبعض الزواحف المصرية» عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية العلوم بجامعة الأزهر، تقدم بها أحمد عبد الفضيل .

«النار والماء في الاحتفالات الشعبية ببور سعيد في مصر وفالنسيا في إسبانيا.. دراسة مقارنة» عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في جامعة مدريد، تقدم بها طلعت شاهين.

«المستفاد من مبهمات المتن والإسناد للحافظ العراقي.. دراسة وتحقيقًا» عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، تقدم بها محمد علي إبراهيم.

«التوازن معيارًا جماليًا: تنظير وتطبيق على الآداب الاجتماعية في البيان النبوي» عنوان رسالة ماجستير نوقشت في جامعة أم القرى، تقدمت بها غادة عبد العزيز الحوطي.

«البلاغة والنقد فيما نشر من شروح الاختيارات الشعرية» عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تقدم بها محمد سليمان العقيل.

والفقيد من مواليد دمشق، وتخرج في جامعتها، ومارس العمل في حقل التربية والتعليم، وكان واحداً من مؤسسي اتحاد الكُتَّاب العرب في دمشق.

وله عدة مجموعات قصصية منها: «وفي الناس المسرة»، و«سنتان وتحترق الغابة».

كتب جديدة

تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، تأليف أنور الرفاعي، صدر عن دار الفكر في دمشق.

التراب والرحيل، رواية للكاتب السوداني إبراهيم بشير إبراهيم، صدرت عن دار الأهالي في دمشق.

حدائق الندى، ديوان للشاعر نزار بريك هنيدي، صدر عن وزارة الثقافة.

حياة جلال الدين السيوطي مع العلم من المهد إلى اللحد، تأليف سعدي أبو جيب، صدر عن دار المناهل في دمشق.

فيروزة والمزمار السحري، مجموعة مسرحيات للأطفال كتبها منير الحافظ، وصدرت عن دار المجد للطباعة والنشر في دمشق.

اللؤلؤة، رواية لنبيل بلوكباشي، صدرت عن دار كنده للنشر في دمشق.

الغابة النائمة، مجموعة قصصية لنادر السباعي، صدرت عن مركز الإنماء الحضاري في حلب.

الجزائر

الثقافة تعاود الصدور

عاودت مجلة «الثقافة» الصدور في العاصمة الجزائرية بعد توقف دام سنوات.

تصدر المجلة عن وزارة الاتصال، ويرأس تحريرها في ثوبها الجديد الصحافي القاص الشريف الأدرع.

إسبانيا

مهرجان للفن الإسلامي

أُقيم في السابع والعشرين من شهر محرم المنصرم ١٤١٥هـ (٢٧ يونية ١٩٩٤م) في مدريد مهرجان عربي إسلامي.

ضم المهرجان عرض ١٣٥٠عملاً فنيًا إسلاميًا، بعضها أصلي وبعضها مُقلَّد، من بينها لوحة «منمنمات أندلسية» للفنان المغربي عبيدي القيرواني، التي يعود تاريخها إلى عام ١٨١٤م.

وتضمن المهرجان تنظيم سلسلة من الندوات حول الفن الإسلامي: سماته وغاياته، وأمسيات شعرية شارك فيها مجموعة من الشعراء العرب.

مجلة متخصصة في الآداب العربية

تدرس دار نشر كنتاربيا مشروعًا لتحويلها إلى مؤسسة ثقافية تسهم في التواصل الثقافي بين العالم العربي وإسبانيا.

رسائل جامعية

«الأصول والفروع: حقيقتهما والفرق بينهما والأحكام المتعلقة بهما» عنوان رسالة ماجستير نوقشت في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تقدم بها سعد بن ناصر الشثري.

«لسان الدين ابن الخطيب.. ناثراً وشاعراً» عنوان رسالة دكتوراة نوقشت في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية، تقدم بها نبيل خالد الخطيب.

«دراسات على أنزيمات التحلل المائي للفوسفات في الاكتوميستات والفطريات الخيطية» عنوان رسالة دكتوراة نوقشت في كلية التربية للبنات بالرياض (الأقسام العلمية)، تقدمت بها هدى حمد عبد الله الحميدان.

«المفاعيل بين العربية والعبرية والسريانية.. دراسة مقارنة» عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب بجامعة القاهرة، تقدم بها أحمد عبد العزيز دراج.

«دراسة نظرية على بارامترات النموذج الضوئي للاستطارة المرنة لأيوني الكربون» عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية العلوم للبنات في الدمام، تقدمت بها شعفة بنت عبد الله فرج آل مهباد.

وتبحث الدار فكرة إنشاء مجلة متخصصة في الدراسات والآداب العربية.

وكانت الدار قد قامت بنشر ترجمات لكتب عربية، بهدف تقديمها للقارئ الأسباني.

وفاة أونتيني

توفي - مؤخراً - الكاتب خوان كارلوس أونتيني عن عمر يناهز ٨٤عاماً.

يُعدُّ أونتيني أحد أبرز كُتَّاب اللغة الإسبانية - في الأرجواي - في العصر الحديث، وقد عاش سنواته الاثنتي عشرة الأخيرة معتزلاً العالم، وعبر عن عالم أمريكا اللاتينية برواياته وأعماله التي اخترع لها عالمًا خاصًا أسماه عالم «سانتا ماريا».

فرنسا

الفرنسيون يحمون لغتهم

أقرت الجمعية الوطنية الفرنسية قانونًا جديداً يقضي بحماية اللغة الفرنسية في فرنسا من الألفاظ والعبارات الأجنبية.

ينص القانون على منع اللجوء إلى ألفاظ، أو عبارات أجنبية في بعض الأفعال والممارسات الاجتماعية والاقتصادية في حالة وجود لفظ أو عبارة فرنسية تؤدي المعنى نفسه.

ويُطَبَّق هذا القانون في الوثائق والمستندات المتصلة بالمقتنيات، والخدمات والإعلانات المسموعة والمكتوبة، وعقود المؤسسات والمؤتمرات العلمية، وغير ذلك من المجالات.

يجيء هذا المشروع بعد أن ظهرت بوادر انتشار استخدام كلمات وتعبيرات إنجليزية، أو بلغات سكان المستعمرات الفرنسية السابقة.

لقاء شعري عربي - أوربي

شارك شعراء عرب وأوربيون في اللقاء الشعري الثاني الذي عُقِدَ في مدينة لاروشيل - مؤخراً - تحت عنوان «الشعر عتبة الجنوب»

وإلى جانب الأمسيات والقراءات الشعرية، تضمن اللقاء افتتاح معرض لصور شعراء فرنسيين وعرب، وآخر خاص بمجلة «جنوب SUD» الشعرية.

من الشعراء العرب الذين شاركوا: أدونيس (سورية)، كاظم جهاد (العراق)، صلاح ستيتة (لبنان)، جمال الدين بن شيخ (الجزائر)

وفاة الشلق

فقدت الأوساط الثقافية العربية في أوروبا الكاتب السوري زهير الشلق، الذي توفي إثر مرض عضال.

والشلق محام ومؤرخ وكاتب سياسي، ويعد كتابه «سورية في عهد الانتداب: تاريخ ما نسيه التاريخ» آخر كتبه.

معرض لوسائل الكتابة

أقيم - مؤخراً - في باريس معرض بعنوان «وسائل الكتابة».

ضم المعرض مجموعة من أقلام الحبر التاريخية، وبعض نماذج الخطوط، وأوراقًا حديثة.

«المذهب المالكي: مدارسه ومؤلفاته.. خصائصه وسماته» عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، تقدم بها محمد المختار محمد الماضي.

«كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ .. دراسة موضوعية» عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، تقدم بها سامر محمد البارودي.

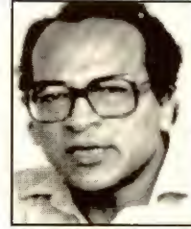
«كتاب الكفاية في التفسير لأبي عبد الرحمن إسماعيل بن أحمد» عنوان رسالة دكتوراة نوقشت في كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، تقدم بها علي غازي التويجري.

«كتاب الميسر في شرح مصابيح السنة للإمام التوربشتي من أول باب أوقات النهي من كتاب الصلاة إلى نهاية كتاب الصوم. دراسة وتحقيقًا» عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، تقدم بها أحمد عبد الله حمد الباتلي.

«المؤرخ أحمد بن محمد الحضراوي (١٢٥٢ - ١٣٢٧هـ)» عنوان رسالة ماجستير نوقشت في قسم التاريخ بكلية الآداب في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، تقدمت بها ابتسام محمد صالح كشميري.

الحركة الثقافية في شهر

جائزة للغيطاني


جمال الغيطاني

منح الروائي المصري جمال الغيطاني جائزة «الصداقة العربية الفرنسية لعام ١٩٩٤م عن روايته «رسالة البصائر».

تعد الرواية الفائزة آخر ما كتبه الغيطاني، وقد صدرت ترجمتها - مؤخراً - باللغة الفرنسية.

وتبلغ قيمة الجائزة عشرة آلاف فرنك فرنسي.

أحدث الكتب

أشجار بلا ثمار، (عن بعض الملابسات الثقافية والاجتماعية والسياسية التي حدثت في أوروبا في فترات تاريخية مختلفة)، تأليف فيليب مارسيل، صدر عن دار نشر سوى في باريس.

الإسلام: اكتشاف ولقاء، تأليف بيار يوز، صدر عن دار داسلكيه دي بوير.

دفتر الأعلام العرب، إعداد مجموعة من باحثي المركز الوطني للبحوث العلمية في باريس، صدر ضمن منشورات المركز

غداً، الإسلام في فرنسا، تأليف مرسي المجالي، صدر عن منشورات مام.

العالم العربي والمرأة، تأليف جيتا الخياط، ط٣، صدر عن دار نشر لارماتامز في باريس.

عندما كانت الشمس حارة، رواية لجوزيتا عاليا، صدرت عن دار نشر جراسيه في باريس.

بريطانيا

قاموس عالمي للفن الإسلامي

شارك مائتا عالم وباحث من سبع وعشرين دولة في إعداد قاموس عالمي للفن الإسلامي.

وذكرت مجلة الفنون في العالم الإسلامي التي تصدر باللغة الإنجليزية عن جمعية الفنانين المسلمين في لندن، أن القاموس يضم أربعة وثلاثين جزءاً، واستغرق إعداده عامين، ويضم حصراً لجميع الفنانين المسلمين في القرن التاسع عشر الميلادي، وتغطية ومسحاً شاملا للفن الإسلامي في شبه القارة الهندية، كما يتطرق إلى الأقليات الإسلامية في الفلبين وجنوب فيتنام.

وفاة بوتر

توفي الكاتب المسرحي دينيس بوتر، بعد معاناة مع مرض السرطان عن عمر يناهز ٥٩ عاماً.

ورغم أن بوتر كان قد عانى خلال الثلاثين عامًا الأخيرة من حياته من شلل جزئي، إلا أن ذلك لم يحل بينه وبين الاستمرار في الإبداع، حيث قدم عدة مسرحيات لاقت ذيوعًا منها: «قروش من الجنة»، «التحري المغني»، و«ذكريات التلال الزرقاء»

أحدث الكتب

سنابل في منحدر، مجموعة شعرية لمحمد الدميني، صدرت عن دار السراة في لندن.

أوربا التي نريدها، تأليف ليون برثيان، صدر عن دار نشر هاميسن هاميلتون.

الحرب ضد المافيا، تأليف تيم شوكروس، صدر عن دار نشرمينستريمر في لندن

تفكير، (محاولة لإثبات أن قراءة النشء للأعمال الأدبية التي ألفها كُتّاب بلادهم، تعمق إحساسهم بالمواطنة، وتجعلهم أقدر على تفهم مشكلات وطنهم)، تأليف بارك كوسكو، صدر عن دار نشر هاربر كولينز.

دور الطاقة النووية المتغير، تأليف بيتر بيك، صدر ضمن منشورات المعهد الملكي للشؤون الدولية.

الانهيارات الهيكلية النظرية الحديثة لتوازن البطالة وسعر الفائدة والأصول، تأليف أدموند فيليس، صدر عن جامعة هارفارد.

الفلسفة الحديثة: مقدمة ومراجعة، تأليف روجرسكراتون، صدر عن دار نشر سنكلير - ستيفنسون.

يوميات تولستوي، ترجمها عن اللغة الروسية ر.ف. كريستيان، صدر عن دار نشر فلامنجو.

الولايات المتحدة

الحاسب الآلي.. مؤلفًا

توصل الكاتب الأمريكي سكوت فرنش إلى طريقة يمكن بواسطتها استكمال الأعمال الأدبية التي توفي أصحابها قبل الانتهاء منها.

تتمثل الطريقة الجديدة في تزويد الحاسب الآلي بالمعلومات الخاصة بأسلوب المؤلف وطريقة كتابته، وسير الحدث في الرواية وشخصياتها، لاستكمال العمل.

أجريت التجربة على رواية «حكم النقاد» التي توفيت كاتبتها جاكلين سوزان قبل استكمالها.

نهاية مأساوية لبولار

توفي الكاتب الأمريكي لويس بولار (٤٨ عامًا) بنهاية مأساوية حيث أطلق الرصاص على رأسه في منزله بولاية فرجينيا.

ولم تُكْشَفْ ملابسات انتحار بولار، إلا أنه كان يعاني في أيامه الأخيرة من حالة اكتئاب حاد، إضافة إلى إدمان الكحول.

وكان بولار قد بُترت ساقاه أثناء خدمته العسكرية في فيتنام عام ١٩٦٨م، وعرض محنته الذاتية في كتاب، بعنوان «الابن المحظوظ»، نال عنه جائزة بوليتزر العالمية عام ١٩٩٢م.

أحدث الكتب

القوة الصحية لفعل الخير، تأليف الطبيب النفسي، آلان تاكس، صدر عن دار دابلداي بريا: ضابط ستالين الأول، تأليف آمي نايت، صدر عن دار نشر برنستون يونيفرسيتي برس.

الاقتصاد الذي أُسيئ فهمه، تأليف روبرت آيسنر، صدر عن هارفارد بيزنس سكول.

فن وهندسة الإسلام مابين ١٢٥٠ - ١٨٠٠م، تأليف شيلا. إس. بلير، وجونثان. إم. بلوم، صدر عن جامعة ييل.

تحدي التكامل: بين أوربا والأمريكتين، تأليف بيتر هاو سميث، صدر عن دار نشر ترانس اكشن بابلشرز.

روسيا ٢٠١٠م، وماذا تعني للعالم؟، تأليف دانيال يرجن، وثين جوستافسن، صدر عن دار نشر راندوم هاوس في نيويورك.

عالم بلا هوية، تأليف بول نير مارك، صدر عن دار نشر فورتون.

النظر إلى الشمس، (عن النجاح الاقتصادي لليابان وبعض بلدان آسيا) تأليف جيمس فالوز، صدر عن دار نشر بانثيون في نيويورك.

الصين

أسبوع ثقافي خليجي

تستضيف بكين في شهر مايو المقبل ١٩٩٥م، أسبوعًا ثقافيًا لدول الخليج العربية.

وتجرى حاليًا في دول الخليج استعدادات لإقامة هذا الأسبوع ، الذي يشمل معرضًا للكتاب، وأمسيات شعرية وقصصية، وندوات ومحاضرات ثقافية، إلى جانب عروض تلفازية وأشرطة وثائقية.

روسيا

عودة سولجينتسين من المنفى

عاد إلى بلاده - وسط مظاهرة إعلامية كبيرة -، الكاتب الروسي الكسندر سولجينتسين (٧٥عامًا)، بعد أن قضى في المنفى قرابة عشرين عامًا، لمعاداته النظام الشيوعي.

كان من بين مستقبليه، ممثل للرئيس الروسي يلتسين.

ويُعَدُّ سولجينتسين - إضافة إلى قيمته الأدبية - أحد رموز مقاومة الحكم الشيوعي السابق في بلاده، وقد تعرض بسبب ذلك للاضطهاد والاعتقال، حيث قضى في معتقل غولاج قرابة ثمانية أعوام، عبّر عن مرارتها في مؤلفه الشهير «أرخبيل غولاج».

ورغم رفض سولجنيستين للشيوعية، إلا أنه أيضا يرفض أن تتبنى بلاده النظام الرأسمالي على النمط الغربي، وقد أكد أنه لن يسعى إلى الانضمام لتيار سياسي معين أو خوض معترك السياسة مكتفيًا بدوره كأديب.

معرض لترجمات معاني القرآن

نظمت سفارة المملكة العربية السعودية في موسكو، بالتعاون مع المكتبة الحكومية المركزية معرضًا بعنوان «القرآن الكريم كتاب المسلمين المقدس»

ضم المعرض مجموعة من ترجمات معاني القرآن الكريم بلغات مختلفة قدمها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، هدية للمكتبة الروسية.

هولندا

مهرجان ثقافي عربي

نظم «مركز الهجرة» العربي للفن والثقافة في أمستردام - مؤخرًا - المهرجان السابع للفن العربي.

تضمن المهرجان معرضًا للصور الفوتوجرافية، وعرضًا غنائيًا موسيقيًا لفرقة «وشم» المغربية.

وشهد مناقشات حامية بين الشعراء الهولنديين والعرب، حول الشعر وقضاياه بين الثقافتين العربية والهولندية، واتفق الجانبان على أهمية اعتبار التعريف بالشعر العربي والهولندي جسرًا يعمق الصلة بين الثقافتين.

كما أ قيمت عدة قراءات شعرية لشعراء عرب وهولنديين.

اللغة وحياة الإنسان

الحيوان له صوت والإنسان له لغة.. لذلك يقال إن الإنسان كائن لغوي يرى ويسمع ويفكر باللغة...

حين يتألم الحيوان أو يخاف يصرخ. والصراخ فعل ذاتي يعبر به الحيوان عن إحساسه.. لكن الإنسان حين يتألم أو يخاف ينادي.. والنداء فعل موضوعي لا يَقصد به الإنسان مجرد نقل إحساسه، بل يضيف إليه غرضا فكريا هو استدعاء الآخرين لنجدته..

في الحالة الأولى لا يعدو الصراخ أن يكون مجرد عاطفة.. وهو حركة عقيمة لا تشغل غير مكانها.. أما في الثانية فالنداء عاطفة وعقل وهو دعوة إلى المجتمع..

يقول سلامة موسى: إن الحيوان لعجزه عن اختراع اللغة لا يختزن تفكيره، ولا ينتفع لهذا السبب بتفكير آبائه وأجداده أو زملائه.. لكن اللغة عند الإنسان جعلت الزمن بعدا تاريخيا والفضاء بعداً جغرافيا..

والكلب الذي يعيش في مدينة يعرف الشارع الذي به منزله، وبضعة شوارع أخرى، ولكن الصبي يعرف جغرافية مدينته ومكانها من بلاده، بل ومكان بلاده على كوكب الأرض..

وزمن الكلب هو ساعته أو يومه، أما الإنسان فله أمس وغد، وله سنوات ماضية، وأخرى قادمة.. لذلك له تاريخ.

يفكر الإنسان بالكلمات، والكلمات هي رموز للأشياء.. وقد لا يعرف الإنسان حقائق أغلبية الأشياء التي يتعامل معها، وإنما يعرف أسماءها فقط.. وهو كثيرا ما يخلط بين الاسم والمسمى فيظنهما شيئًا واحدًا.. ولما كانت الكلمات تشبه في تداولها النقود إلى حد كبير، فإن القرش وهو اسم لقطعة معدنية يرمز إلى قوة شرائية معينة.. ولكن هذه القوة المتمثلة في الاسم تخصنا نحن المتعاملين به، ولا تخص القرش من حيث إنه قطعة من معدن..

والخلط بين الشيء واسمه قد يوقع في ألوان من الخطأ تضر ولا تفيد.. فإن العديد من الكلمات التي يعتقد الإنسان أنها تثير تفكيره قد تكون كلمات تجري على المستوى العاطفي فتؤدي إلى الانفعال بدلا من التفكير.

ذلك لأن الكلمات لا تكسبنا اتجاها أخلاقيا على المستوى العقلي فحسب، بل تكسبنا أيضًا اتجاهًا مزاجيًا على المستوى العاطفي.. وأغلب ما يشمئز منه الإنسان أو يطرب له أو ينشط إليه يعود في الأصل إلى ما لديه من كلمات تلقاها من المجتمع.

فالإنسان منذ أن يولد يتسلط عليه المجتمع بكلمات تفرض عليه مقاييس اجتماعية وأخلاقية وروحية يحيا بها.. فالكلمات تحدد له السلوك كأنها أوامر..

وقد يعتقد الإنسان أنه يتصرف من تلقاء نفسه وأنه يسلك طريقه عن حرية بينما هو في الواقع مقيد بالكلمات التي تبعث فيه الانفعالات وتكسب عقله قيما لا مفر له من التسليم بها.. خاصة تلك الكلمات التي انغرست فيه منذ الصغر حين لم يكن عقله قد نضج واتسعت مداركه وتدرب على التساؤل والنقد والاختيار.

ولازالت كلمات عديدة مثل العرض والثأر والشرف والانتقام تحمل في صعيد مصر، وفي غيره كثيرا من الشحنات الانفعالية التي تقود إلى الجرائم.. ويجوز لنا أن نطلق عليها جرائم لغوية.. وكثيرة هي الجرائم اللغوية التي تجري على ألسنتنا ولا ننتبه لها.. فقد اعتدنا أن نصف المرأة التي شارفت سن الخمسين بأنها قد بلغت سن اليأس.. ولا ندرك كم تثير هذه الجملة الصغيرة من اضطراب ويأس وخوف من المستقبل.. كما اعتدنا أن نطلق الصفات السيئة المنفرة على العلاقات الجنسية ونَصفَ أعضاء التناسل البشري بصفات بذيئة تحيل أشرف عاطفة بين الزوجين إلى دنس وخسة.

على أن طبيعة الكلمات هي الجمود، بينما طبيعة الأشياء التي تعبر عنها هي التغير.. ولكن الحياة وهي تطور نفسها تطور معها اللغة.. فالكلمات كالكؤوس تظل محتفظة بشكلها الخارجي، بينما يتغير محتواها وفقا لتطور الحياة وتغيرها.. فكلمة القطار تعني في الأصل عددا من الإبل يعقب بعضها بعضا على نسق واحد.. ولكن، بتغير الظروف الاجتماعية وظهور الآلات واكتشاف الفحم والبخار أصبحت كلمة القطار تطلق على مركبات السكة الحديدية التي تقطر كل مركبة منها ما خلفها..

ولغتنا العربية، وهي من أغنى لغات الأرض، قامت على كلمات وأفعال نبتت في واقعها، وعبّرت في أصولها القديمة عن العقائد والأعمال والقواعد الاجتماعية التي عاشها الأسلاف...

فكلمة الحياة مشتقة من الحيا، أي عضو التناسل عند المرأة، ومازال الفلاحون المصريون يقولون حيا البقرة، وحيا الفرس.. ومن الرحم اشتقت كلمة الرحمة التي كانت في الأصل رمزا للعلاقة الحميمة بين أبناء الرحم الواحد..

وقد عرفت الروح من الريح، والنسمة من النسيم والنَّفَس من النَّفْس (بفتح الفاء) لأن الفارق الوحيد بين الحياة والموت هو التنفس.

ويرجح بعض العلماء أن اشتقاق صفة الملاحة جاء من الملح، لأنه كان فيما مضى من الأشياء الثمينة التي لم يكن يحصل عليها غير المترفين. وأن الملاح هو تاجر الملح أو صاحبه وهو أيضا الرجل الذي يوجه السفينة أو يعمل فيها..

كما أن المساعدة قد جاءت من الساعد، لأن المساعدة تعني أن هناك من استعمل ساعده لخدمتنا.. والأنفة من الأنف، والشمم من الشم، لأننا حين نأنف من شيء نرتفع عنه بأنوفنا، وأن العقاب من التعقب.

ونحن إن نظرنا إلى كلمة كفَّ بمعنى امتنع، نجد أنها مشتقة من الكف، أي باطن اليد لأننا نعبر عن المنع بإشارة من كفوف أيدينا.. والكفيف هو من لا يرى تمثلا لوضع الكف فوق العينين لحجب الرؤية..

أما الفعل أحصى بمعنى عَدَّ.. فإنه مشتق من الحصى، أي صغار الحجر.. فقد كان الإنسان قبل أن يعرف الأرقام يلجأ إلى وضع حصاة في جعبته عن كل خروف إن شاء أن يعرف ما لديه من خراف.. وقد توصل الرومان إلى الحساب والعد بانتهاجهم هذا المنوال، وتبعهم في ذلك آخرون كما نرى في الفعل الإنجليزي كالكيوليت، بمعنى حسب من كالكيولس، بمعنى حصاة أو حجر.. كذلك الحال في اللغة الفرنسية.

إن اللغة من أهم مؤسسات كل أمة.. ولغتنا العربية فيها مقدساتنا وتراثنا العظيم وتاريخنا الحافل... وعلينا أن نرعاها ونسعى دائما إلى تحديثها وتبسيط صعابها والارتقاء بها، لأنها أقوى الروابط، فهي توحد الفكر والعاطفة.. والثقافة والتاريخ.. وهي دعامة المستقبل الواحد والمصير المشترك...

بدر نشأت